الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون

أطروحة قدمت إلى جامعة كاليكوت كتتمة جزئية للمتطلبات لتحصيل

شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

(نسخة منقحة)

قدمها

رشيد. وي. وي

تحت إشراف

د. عباس كى. بي

أستاذ مساعد ومشرف البحوث،
قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها
كلية فاروق (حكم ذاتي)
(كلية ذات كفاءة للامتياز معترفة ومحكمة
بدرجة+ A لدى المجلس الأعلى للجامعات، نيودلهي)
كاليكوت، كيرالا، الهند

جامعة كاليكوت

كيرالا- الهند

2023م

المحتويات

مقدمة **5**

الباب الأول: الوطن والمنفى دراسة تحليلية **13**

الفصل الأول: مفهوم الوطن نظرة عامة **14**

المبحث الأول: مفهوم الوطن في اللغة **15**

المبحث الثاني: مفهوم الوطن اصطلاحيا **16**

المبحث الثالث: أنواع الوطن **18**

الفصل الثاني: حب الوطن والانتماء إليه **21**

الفصل الثالث: القومية والوطنية **30**

المبحث الأول: الفرق بين القومية والوطنية **32**

المبحث الثاني: الهوية الوطنية الفلسطينية **34**

الفصل الرابع: مفهوم المنفى **37**

المبحث الأول: مفهوم المنفى في اللغة **37**

المبحث الثاني: مفهوم المنفى في الاصطلاح **38**

المبحث الثالث: أقسام المنفى **45**

المبحث الرابع: أدب المنفى **50**

الباب الثاني: تطور الرواية الفلسطينية: دراسة عامة **55**

الفصل الأول: الرواية العربية الفلسطينية: **56**

الفصل الثاني: دور ربعي المدهون في تطوير الرواية الفلسطينية **66**

الفصل الثالث: أشهر الروائيين الفلسطينيين **70**

الباب الثالث: ربعي المدهون حياته وأعماله الأدبية **85**

الفصل الأول: السيرة الذاتية **86**

الفصل الثاني : أعماله الأدبية **88**

المبحث الأول: ملخص الرواية " مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة " **89**

المبحث الثاني: ملخص الرواية "السيدة من تل أبيب" **110**

المبحث الثالث: خلاصة "طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة" **117**

الفصل الثالث :المكان في رو ايات ربعي المدهون **131**

الفصل الر ابع :الزمن في رو ايات ربعي المدهون **151**

الباب الر ابع: الوطن والمنفى في رو ايات ربعي المدهون **161**

الفصل الأول: الوطن في رو ايات ربعي المدهون **163**

المبحث الأول: تجليات الوطن **165**

المبحث الثاني: الوطن المستوطنة (المحتلة) **167**

المبحث الثالث: الوطن المفقود **169**

المبحث الرابع: صورة المدينة **173**

الفصل الثاني: شعورالوطنية في رو ايات ربعي المدهون **175**

المبحث الأول: حب الوطن **175**

المبحث الثاني: الانتماء إلى الوطن **176**

المبحث الثالث: استعادة الوطن **178**

المبحث الرابع: التعايش في الوطن **179**

المبحث الخامس: التراث الوطني **182**

المبحث السادس: الهوية الوطنية (الفلسطينية) **186**

الفصل الثالث: القضايا الوطنية في رو ايات ربعي المدهون **189**

المبحث الأول: قضية الحرب **190**

المبحث الثاني: قضية الاحتلال 195
المبحث الثالث: المقاومة 197
المبحث الرابع: قضية المرأة 200
الفصل الرابع: المنفى في روايات ربعي المدهون 203
المبحث الأول: المنفى في الوطن 205
المبحث الثاني: المنفى في المنفى 208
الفصل الخامس: أنواع المنفى في روايات ربعي المدهون 215
المبحث الأول: المنفى المكاني 215
المبحث الثاني: المنفى السياسي 216
المبحث الثالث: المنفى الذاتي (نفسي) 217
المبحث الرابع: المنفى الاجتماعي 221
المبحث الخامس: المنفى الثقافي والحضاري 223
الفصل السادس: شعور المنفى في روايات ربعي المدهون 226
المبحث الأول: العودة من المنفى 226
المبحث الثاني: الحنين إلى الوطن 228
المبحث الثالث: الذكريات من المنفى 230
المبحث الرابع: الوصية من المنفى 235
خاتمة البحث ونتائجه 238
الاقتراحات والتوصيات 241
المصادر والمراجع 242

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وبيده يتمّ كل خير والصالحات، سبحانه لا إله إلا هو نحمده كثيرا، ونشكر فضله في كل حين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلىّ الله عليه والسلّم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

فهذه الأطروحة المعنونة ب "الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون" بحث أكاديمي على مستوى الدكتوراه في الأدب العربي، مقدم إلى جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند، لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة في اللغة العربية وآدابها.

يناقش الباحث في هذه الدراسة عن نشأة كلمة " الوطن والمنفى" لغة واصطلاحا، وأنواعهما وتأثيرهما في الأدب العربي لاسيما في الأدب الفلسطيني، وكيفية استخدام الكاتب كلمة "الوطن والمنفى" في رواياته. الرواية الفلسطينية هي مرآة عاكسة لشعبها، حيث تعالج فيها "القضية الفلسطينية والمنفى وما يتعلق بها، ويصوّر الكاتب فيها حياة الشعب الفلسطيني وقضاياهم الوطنية وشعور المنفى وذكرياتها.

وقد كتبت الروايات الفلسطينية في مرحلتين: ما قبل النكبة وما بعدها، قد ألفت الروايات الفلسطينية خارج الوطن. وكان الكاتب يعيش في المنفى ويرغب في العودة من المنفى والحياة في وطنه، ولكن لن يستطيع أن يحقق أحلامه، وبدأ أن يعبر عن حنينه إلى الوطن من المنفى بالكتابة وعالج في مؤلفاته موضوعات حول الوطن والمنفى وأخبر للعالم عن أحوال الشعب الفلسطيني وتاريخ الوطن وقضاياهم، هنا يحاول الباحث الدراسة العميقة عن سرديات الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون.

تحليل العنوان:

الوطن والمنفى هما موضــوعان يتعلق بعضــهما بعضــا، إذا فقد الإنســان الوطن فهو يكون في المنفى، وكذلك يحس الإنســان بشــعور المنفى في داخل الوطن لأســباب مختلفة مثل تغيير الثقافة والحضــارة وعدم وجود ذكريات الطفولة والمعالم والآثار والأماكن التي أضــيعت في داخل الوطن بوقوع الاحتلال أو الحرب الداخلية والخارجية وتأثير الثقافة الأجنبية في ثقافة الوطن، هذه الأســباب تخلق شــعور المنفى داخل الوطن.

يحاول الباحث في هذه الدراسة لاكتشاف الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون كما تجري المناقشات في هذه الدراسة أيضا حول أصول كلمة الوطن والمنفى لغويا واصطلاحيا وتتناول الدراسة عن موضوع نشأة الرواية وتطورها عامة وعن الرواية الفلسطينية خاصة.

الوطن والوطنية والمواطن، هي كلمات تبقى متأصلة في نفوس الإنسان، بما تحمل من دلالات الهوية، لما لها من أثر وتأثير ومغزى وأهمية على قلوب أصحابها، مما جعلها تغرق بين تلابيب قلوبهم ودواخلهم حتى يسيل الدم من عروقهم. مفهوم كلمة "الوطن" مفهوم واسع، حيث لا يمكن أن يحصر معناه في كلمات قليلة، الوطن شوق وعاطفة، الوطن ليس مجرد كلمة تقال بشكل عابر، بل هو مفهوم واسع مع اتساع الحياة، الوطن لا يحتوي على أرض جغرافية فقط ولكن يتضمن كل ثروة الوطن منها البيوت والآثار والمدارس والجامعات والمساجد والكنائس والطبيعة والأسرة والأصدقاء.

المنفى هو أحد أكثر المصائر يأسا، وفي العصر الحديث كان النفي عقابا فظيعا بشكل خاص، لأنه لم يتجول بلا هدف فقط، بعيدا عن الأسرة والأماكن المألوفة، ولكنه لم يكن أبدا منبوذا دائما، يبدو أنه من بين عائلته وأصدقائه، ولا يتلاءم إطلاقا مع محيطه، ولا يندم على الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا

يتمتع إلا بالمرارة. هنا يبحث الباحث عن موضوعي الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون الذي يعيش في المنفى ويكتب مؤلفاته فيه، معظمها يعالج موضوع قضية الوطن والمنفى ويعبّر مشاعره عبر التأليف.

وقال الله تعالى : "وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"[1]، ويقول المفسرون عن تأويل هذه الآية أن كلمة "المستقر" تعني المكان الذي يعيش فيه الإنسان ويسكن، يتكوّن الوطن من مكونات عديدة منها، الأرض، الإنسان، البيوت، الأشجار، الطيور، الحيوانات، وكل ما توجد في الوطن المحدد، وإذا أجبر الإنسان على ترك الوطن والهجرة منها يكون في المنفى ويعبر عن الحنين إلى الوطن، ويرجو العودة من المنفى ويفكر كل وقت عن ذكريات الوطن وما حصل من ذكرياتها.

وأما ربعي المدهون فهو كاتب فلسطيني الذي يحمل الجنسية البريطانية، وهاجر من وطنه إلى بلاد مختلفة بسبب النكبة التي وقعت عام 1948م، وهو من أبرز الأدباء من فلسطين، ومن أعماله الأدبية: أبله خان يونس، وطعم الفراق، والسيدة من تل أبيب، ومصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، وسوبر نمية.

الدراسات السابقة:

وقد أجريت دراسات أكاديمية حول مؤلفات ربعي المدهون في بعض الجامعات في مستوى الماجستير من قبل الأكاديميين، كما نشرت مقالات فردية تتناول أبعاد مؤلفاته الأدبية في الصحف والمجلات المختلفة في العربية.

ومن أهم الدراسات الأكاديمية المنشورة ما يأتي:

- إيمان مزياني وخولة سلطاني، ازدواجية الشخصية الفلسطينية في رواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة " لربعي المدهون، جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي، الجزائر، 2018 م.

[1] سورة البقرة آية 36.

- وردة دغفل، التجريب الروائي في رواية "مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة " لربعي المدهون، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، 2019 م.
- أحلام مازن عبد العزيز بكري، البنية الفنية في رواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة " لربعي المدهون، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2018م .
- طارق مصطفى حميدة، أنسنة المحتل وشيطنة الذات والتخلي عن الحكاية، في روايتي ربعي المدهون:السيدة من تل أبيب ومصائر،2019م ، 21/05/2022، https://www. Odabasham. Net.
- الدكتور عالية محمود يعقوب صالح، تنوع السرد وتعدد الخطاب في رواية " السيدة من تل أبيب "، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد 17، العدد 3، 2017م.
- الدكتور مصطفى عبد الغني المقاومة والمنفى في الرواية الفلسطينية، دارة الكرز للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1، 2012م .

وأما الدراسات التي تتناول الوطن والمنفى في أعمال ربعي المدهون لم تجر في المجالات الأكاديمية داخل البلاد العربية وخارجها حسب معرفة الباحث، فيرى الباحث أن هذا الموضوع جدير بالدراسة والتحليل في مستوى الدكتوراه.

أسباب اختيار الموضوع وأهدافه:

وقد ركز الباحث في اختيار موضوع البحث على روايات ربعي المدهون بدوافع متعددة حيث أن لديه اهتماما كبيرا في دراسة الروايات الفلسطينية، ومن أهم أسبابه رغبة الباحث أن يقدم دراسة جديدة من خلال دراسة تحليلية عن روايات ربعي المدهون. ومن أهم أهداف هذا البحث القيام بدراسة مستفيدة عن مفهومي الوطن والمنفى وكيفية توظيفهما في روايات ربعي المدهون.

إشكالية البحث:

أما فيما يخص باشكالية البحث فتتمثل في جملة من الأسئلة الآتية:

- ما هو مفهوم الوطن والمنفى لغة واصطلاحا؟
- ما هي القومية والوطنية وما هو الفرق بينهما؟
- ما هو أدب المنفى؟
- كيف نشأت الرواية العربية الفلسطينية؟
- ما هو دور ربعي المدهون في تطوير الرواية العربية الفلسطينية؟
- ما هي مساهمات ربعي المدهون الروائية؟
- كيف يوظّف ربعي المدهون الوطن والمنفى في رواياته؟

منهج البحث:

وقد اعتمد الباحث في دراسته على منهج شائع في البحث الأكاديمي هو المنهج الوصفي التحليلي، وها هي أهم الخطوات التي اتخذها لتحقيق هذا المنهج:

- جمع المصادر الأولية والثانوية التي تحتاج إليها هذه الدراسة.
- تحليل الدراسات السابقة ذات الصلة، التي تتناول موضوع الوطن والمنفى.
- قراءة مؤلفات الكاتب والمعلومات والبيانات التي تتعلق بالبحث.
- توثيق النقول توثيقا علميا بحيث يكون توثيقا كاملا عند أول ورود للمرجع، وبعد ذلك يكتفي الباحث بذكر اسم المؤلف، واسم الكتاب، الطبعة، مكان النشر والناشر، والسنة والصفحة.
- عرض أهم النتائج في خاتمة البحث.

يعتبر المنهج الاستقرائي التحليلي والوصفي من أبرز المناهج المستخدمة في الدراسات العملية وأطروحات الدكتوراه، طبيعة هذا البحث تبنى المنهج الاستقرائي التحليلي المذكور أعلاه، وبعد تحديد إشكاليات الدراسة وتساؤلاتها، جمع الباحث المصادر الأولية والثانوية المطلوبة ، حيث جرت هذه العملية الدراسية عدة شهور مع جهود متواصلة، وبعد جمع المواد الكافية من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات، و راجعها الباحث وفحصها بجميع جوانبها بإتقان وبدقة وبشكل جيد وكما قام بتحليلها ووصفها.

خطة البحث:

وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى أربعة أبواب، وكل باب مقسم إلى فصول ومباحث تعالج موضوعا خاصا ويختتم بخلاصة موجزة، ويبدأ هذا البحث بالمقدمة التي تبين فيها طبيعة البحث وأهدافه وإشكاليته ومنهجه.

فالباب الأول المسمى ب "الوطن والمنفى دراسة تحليلية "، ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول، وهي كما يلي: الفصل الأول هو مفهوم الوطن، يناقش الباحث في هذا الفصل عن كلمة " الوطن " لغويا واصطلاحيا والفصل الثاني يتناول عن حب الوطن والانتماء إليه والتصريحات عن حب الوطن في القرآن والسنة والفصل الثالث يبحث عن القومية والوطنية وما الفرق بينهما والفصل الرابع يدرس مفهوم المنفى لغويا واصطلاحيا وأقسام المنفى. وفي الباب الثاني نظرة عامة إلى نشأة الرواية الفلسطينية وتطورها، ويقسم إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول يناقش عن مفهوم للرواية العربية الفلسطينية نشأتها وتطورها وأما الفصل الثاني يسلط الضوء على أشهر الروائيين في فلسطين والفصل الثالث يتناول عن دور ربعي المدهون في تطوير الرواية العربية الفلسطينية.

والباب الثالث الموسوم ب "ربعي المدهون حياته ومؤلفاته " ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول، الفصل الأول يتناول فيه عن شخصية الكاتب الأدبية والثاني يعالج فيه عن مؤلفات الكاتب وخلاصة أعماله في مجال الرواية، والفصل الثالث يتناول فيه الباحث عن المكان في روايات ربعي المدهون والفصل الأخير يبحث عن الزمان في روايات ربعي المدهون.

والباب الرابع يتناول الباحث فيه عن الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون، فهذا الباب مقسم إلى ستة فصول والفصل الأول يناقش عن الوطن الذي تناوله الكاتب في رواياته والفصل الثاني يعالج عن شعور الوطنية في رواياته والفصل الثالث يبحث القضايا الوطنية في رواياته ويعالج الباحث عن القضايا المختلفة المنعكسة في رواياته والفصل الرابع يناقش فيه عن المنفى في روايات ربعي المدهون،والفصل الخامس يناقش عن أنواع المنفى في روايات الكاتب والفصل الأخير يعالج الباحث عن شعور المنفى في روايات ربعي المدهون، وتنتهي الدراسة بالخاتمة التي تحمل ما توصل إليه البحث من نتيجة وتعليق يعرض فيه مصادر البحث ومراجعه. يقدم الباحث بعد الخاتمة الاقتراحات والتوصيات للباحثين الراغبين لدراسة عن روايات ربعي المدهون.

قد واجه الباحث خلال مدة بحثه صعوبات كثيرة من أهمها وهي قلة البحوث والدراسات حول الوطن والمنفى في روايات العربية وندرة الدراسات عن ربعي المدهون وكذلك صعوبة التعامل والاشتغال على المراجع المعتمدة عليها في مدة البحث.

كلمة الشكر:

الله هو المستحق للشكر كله، جل عظمه وهو الذي وزّع علمه من نوره ووسّع حلمه من فضله على العبيد الفقير، والباحث المسكين، فيحمد عليه ب "الحمد الله "، من قلبه الخاشع الخاضع والخالص والمستحق للشكر بعده هو الأستاذ الفاضل الدكتور عباس كى. بي، المشرف على هذا البحث الذي

أرشدني بإرشاداته المستقيمة وبملاحظاته المطلوبة والذي قضى من أوقاته الثمينة واقفا على جمل وتراكيب ومصطلحات هذه الأطروحة ليكون هذا البحث جامعا لمقصوداته ومانعا لمردوداته ومكتملا بصورته. ويقدم الباحث الشكر لمن تعلم من حضرتهم من الأساتذة الكرام المتوفين منهم والأحياء، وصب الله عز وجل على من مات منهم من مغفرته ورحمته وأدخلهم الله فسيح جناته، وطول الله أعمار من هم على قيد الحياة. ومع هذا يقدم الباحث فائق الاحترام والشكر على من أعانوه من الأساتذة والزملاء، ومن تعاونوا باقتراحاتهم الصائبة في إتمام هذه الأطروحة، ويخص بالشكر لمن قاموا بمساعدته في جمع المصادر والمراجع المختصة لهذا البحث.

والشكر موصول أيضا إلى جميع أساتذة قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها بكلية فاروق وخاصة للدكتور يونس سليم، رئيس قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها، والدكتور محمد عابد يو. بي، منسق البحوث، على تفضلهم بالمساعدات والإرشادات النفيسة لإجراء هذا البحث بشكل ناجح. جزاهم الله أحسن الجزاء في الدارين.

وأخيرا يرجو الباحث أن تكون هذه الدراسة المتواضعة مفيدة ومستفيدة للباحثين القادمين والمتعلمين والطلبة والأساتذة والمهتمين باللغة العربية، والله ولي التوفيق.

الباحث

رشيد. وى. وى

الباب الأول: الوطن والمنفى دراسة تحليلية

الفصل الأول: مفهوم الوطن نظرة عامة

المبحث الأول: مفهوم الوطن في اللغة

المبحث الثاني: مفهوم الوطن في الاصطلاح

المبحث الثالث: أنواع الوطن

الفصل الثاني: حب الوطن والانتماء إليه

الفصل الثالث: القومية والوطنية

المبحث الأول: الفرق بين القومية والوطنية

المبحث الثاني: الهوية الوطنية الفلسطينية

الفصل الرابع: مفهوم المنفى

المبحث الأول: مفهوم المنفى في اللغة

المبحث الثاني: مفهوم المنفى في الاصطلاح

المبحث الثالث: أقسام المنفى

المبحث الرابع: أدب المنفى

الباب الأول: الوطن والمنفى دراسة تحليلية

الفصل الأول: مفهوم الوطن نظرة عامة

الوطن في الكلمة التي يرددها الناس هو: حق، أمان حرية كرامة، شعور سعيد بالانتماء، هذه الكلمات هي تعريف الوطن بالنسبة لكل إنسان، الإنسان الذي لا يحتاج إلى كتب في السياسة والعلوم الاجتماعية والقانون وخطابات القادة من أجل معرفة وتعريف الوطن، وكل كلمة أو مفهوم ذي دلالة عاطفية وشعورية وليست علمية فقط، أي أن الوطن هو الذي يولد في الإنسان شعورا بالحق والأمن والحرية والكرامة وسعادة الانتماء.

الوطن هو مكان الذي يولد فيه من المشاعر الاجتماعية والسياسية، وإذا ضاع للإنسان مثل هذه الأنواع من المشاعر يعني المشاعر الاجتماعية والسياسية في الوطن ويكون هذا المكان ليس وطنا وإنما هو مكان الاقامة فقط مثلما يشعر يكون هذا المكان كمنفى.

يريد بالشعور بالحق أي أن لك حقوقا متساوية مع الجميع، وأن هناك حكومة التي تحمي وتحفظ حقوقك وتمنع أي أحد من الاعتداء عليه، بدءا من حق الحياة الطبيعية وانتهاء بحق الحياة المدنية والسياسية والثقافية، هذا الشعور لا يتولد إلا إذا كان يحقق الحق أمرا واقعيا وليس مجرد خطاب الذي لا علاقة له بالواقع.

المبحث الأول: مفهوم الوطن في اللغة

وجاء في "المنجد"، الوطن مقر الإنسان الذي ولد فيه، الوطن الأم هو الوطن الأصلي موضع الولادة، نقول: عاد المهاجر إلى الوطن الأم[2]. مفهوم الوطن مفهومٌ واسعٌ، لا يمكن حصره في كلماتٍ قليلةٍ، فالوطن هو المكان الذي يضمّن بين أحضانه، هو البيت الكبير الذي تستريح فيه النفس، وتأوي إليه الروح، وهو الأرض الرحبة التي نحيا فيها ونموت وندفن فيها، فإن سافرنا نشتاق إليه، وإن عدنا إليه قبّلنا ترابه شوقاً وشغفاً. "الوطن ليس مجرد كلمة تقال بشكل عابر، إنما هو مفهوم واسع باتساع الحياة، فهو البيوت والشوارع والمدارس والجامعات، وهو المساجد والكنائس والأشجار والورود والأهل والأصدقاء "[3]، وهذه الأشياء تحتوي في مضمون معنى الواسع عن الوطن، وليس مجرد جغرافية المكان فقط، وإذا الإنسان فقد هذه الأشياء وحرم من تمتع هذه الثروات، ولن يعتبر هذا المكان في معنى الوطن الحقيقي.

وقد ذكر القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أهمية الوطن للإنسان وقد عدد الحافظ الذهبي رحمه الله محبوبات الرسول صل الله عليه وسلم، فقال (وكان يحب عائشة، ويحب أباها، ويحب أسامة، ويحب سبطيه، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أحد، ويحب وطنه...) .[4]

علينا جميعا حماية الوطن والرعاية عليه، فهو المسكن والطمأنينة، وهو المكان الذي ينتمي إليه المرء. لا تختلف تعريفات الوطن في المعاجم العربية فيما بينها، فكلها تصب في المعنى نفسه. جاء في لسان العرب لابن منظور " الوطن هو منزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، واستوطن هذه البلاد أي توطنها.

---

[2] صبحي حموي: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (و. ط. ن) ط1،، 2002م، ص:1539.

[3] عاتكة زياد البوريني، تعبير عن مفهوم الوطن، https://mawdoo3. com. 05/09/2022

[4] محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبي عبد الله، سير أعلام النبلاء، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، ط3، ص 392.

يعني الوطن في المعجم الوسيط المكان، " وَطَنَ يَطِنُ (ض) بالمكان أي أقام به؛ ووَطَنَ البلدَ أي اتخذه وَطْنًا، وكذلك اِتَّطَنَ واسْتَوْطَنَ وتَوَطَّنَ البلدَ: اتخذه وَطْنًا، والوَطْنُ ج: أوطان: منزل إقامة الإنسان وُلِدَ فيه أو لم يُولَدْ، والوطن مكان إقامة الإنسان ومقره إليه انتمائه ولد به أو يولد ".[5]

ويُعَرَّفُ الوطن أيضًا بأنه واقع مادي جغرافي الملامح، يُشَكِّل جزءًا من الكرة الأرضية، التي يتوطنها البشر منذ قرون في مجموعات متفاعلة متماسكة بهدف تحقيق مصلحة في بقعة أرضية مُعَيَّنة؛ ولذلك لا يستطيع الإنسان العيش بدون وطن يحميه ويدافع عنه ويرعاه ويُقَدِّم له الخدمات المختلفة. ويُعَرَّف الوطن كذلك بأنه هو الأرض التي ينشأ عليها الإنسان ويتوارثها، وهو المصدر الذي يُؤَمِّن له مُسْتَلْزَمَات الحياة من طعام وشراب ولباس ومأوى، كما يؤثر الوطن في تكوين شخصيات مواطنيه بما يُرَسِّخ فيهم من عادات وتقاليد وأعراف ومُعْتَقَدَات، بالإضافة إلى تأثيرات الأرض والماء والهواء والحرارة والأحياء التي تُكْسِب المواطنين صفات متشابهة.

من ثم يختلف سكان وطن عن سكان وطن آخر في الأمزجة والطبائع والملكات والخصائص الإنسانية الكثيرة التي يمتاز بها أهالي وطن عن أهالي وطن آخر، رغم تشارك الناس جميعًا في المزايا الإنسانية الكثيرة المتشابهة.

المبحث الثاني: مفهوم الوطن اصطلاحيا

لا يختلف الوطن في الاصطلاح كثيرا عن المعنى اللغوي، ولا يخالفه في المفهوم والدلالة فقد عرف الجرجاني الوطن في الاصطلاح بقوله: " الوطن الأصلي هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه"[6]. " لا مكان في الحياةِ بالنِّسبةِ للإنسان، أجملُ وأبهى من المكان الذي ولد فيه وترعرع، وتفيأَ ظلالَه وارتوى من فراتِ مائِهِ، فالمكانُ هو تذكُّرٌ لمَراتِع الصِّبا، وضَحكاتِ الطُّفُولةِ البريَئةِ، وهو جزء من كِيانِ الإنسانِ، فمهما ابتعد

[5] معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، ج2، ص 1042.

[6] الشريف الجرجاني: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص 253 .

عنه، وشطت به الدارُ، فلا بد أن تبقى أطلالُ بلادهِ في ثنايا مُخَيِّلتِه، وهذا جُزْءٌ يَسِيْرٌ مِنَ الوفاءِ لهذه الأرضِ التي حملتكَ على ظهْرها وأنتَ تحبو، ثم وأنتَ تخطو، ثم تمشي، ثم بعد انتهاء الأجل تدفن فيها " .[7]

وللكتّاب والمفكرين آراء مختلفة حول كلمة (الوطن)، وكيف تكون مكانته في نفوس أبنائه وقاطنيه، يقول الشيخ الإمام محمد عبده: " الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقا، فهو السكن بمعنى: استوطن القوم هذه الأرض وتوطنها أي اتخذها سكنا: وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه، وتحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وأهلك ومالك، ومن أقوالهم فيه، لا وطن إلا مع الحرية، غير أن الشعور الوطني، يتباين من مرحلة إلى مرحلة أخرى، ومع ذلك لم يفتر في نفوس أصحابه، وبخاصة في أوقات محن الوطن وشدائده، وعندما تلم به الملمات، وتنزل به النوازل والنكبات، هنالك يعلو ذلك الشعور ويشتد، فيلتصق العضو بالجسد الكبير فلا يكادان ينفصلان أبدا .[8]

فإذا كان الوطن في معاجمنا العربية هو مكان الإنسان ومقره، وإليه انتماؤه. فلا بد أن يكون الوطن حاملا للقيم الايجابية التي تجعل هذا التمسك بهذا الجزء من الانتماء قويا، كما تطلق يد الأدباء من المؤمنين بالقيم الإنسانية من الحدود الضيقة والقيود الإقليمية لتصبح الوطنية عالمية طليقة، لا تعرف إلا الحق والعدل ولا تستنكر إلا الظلم والاعتداء .[9]

يقول ربعي المدهون" الوطن حقيقة ترفض أن تموت تحت ضربات وقائع تاريخ لم يرحمها، الوطن ليس ظلا، الوطن صورة يحضر جانب منها هنا، ويحضر آخر هناك، في الجهة الأخرى حيث أمي، أنا لا يرعبني شيء مثلما ترعبني هواجسي. ويقول أيضا عن الوطن بأن يكون سلاما بين الإنسان،

"تخيل أن لا وجود لبلدان

[7] مصطفى قاسم عباس، "حُبُّ الوطنِ في عيون الشُّعراء "، www. akhbarak. net 22/07/2018.

[8] د-عبد العاطي كيوان: القيم الإنسانية في أدب الأطفال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1424هـ -2003م، ص:177.

[9] إيمان بقاعي: القيم الروحية والإنسانية في شعر عبد العزيز محيي الدين خوجة، قناديل للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط1، 2004م،ص .134-133 :

ليس صعبا أن تفعل

لا شيء تقتل من أجله أو تُقتل

ولا وجود أيضا لأديان

تخيل الناس جميعا يعيشون حياتهم بسلام" .[10]

وكذلك عند البحث عن اصطلاحات الوطن في معجم المصطلحات السياسية الدولية ونرى المعنى بالتوافق كما نرى في معاجم الأخرى: " الوطن هو البلد الذي تسكنه أمة يشعر المرء بارتباطه بها، وانتهائه إليها".[11]من هذه المصطلحات والتعريفات يوصل الباحث زيد عبد الكريم الزيد كلمة " الوطن" بمعنى العام هو " الوطن الخاص، الذي يلد الشخص فيه ولادة ونشأة، أو نشأة فقط، وتعارف الناس عليه في العصر الحاضر بالحصول على الجنسية، أو رابطة الجنسية، وهو لبنة متماسكة في بناء الوطن العام الذي يحد بالعقيدة الإسلامية ولا يحد بالحدود الجغرافية" .[12]

المبحث الثالث: أنواع الوطن

يقسم العلماء الوطن من حيث تعلق الأحكام الشرعية به إلى ثلاثة أقسام: وطن أصلي، ووطن إقامة، وطن سكنى. قال معالي الشيخ أ. د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل – حفظه الله -: وتقسيم العلماء هذا بناء على نظرتهم لأثر الإقامة الدائمة في أحكام السفر، وهي كما يلي:

النوع الأول: الوطن الأصلي

[10]المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، عام 2015 م، ص 36.

[11]أحمد زكي بدوي معجم المصطلحات السياسية والدولية، دار الكتاب المصري، القاهرة /دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989م، ص 100 .

[12]زيد عبد الكريم الزيد، حب الوطن من منظور شرعي، طبع على نفقة المؤلف، ط1، 1996م، ص 18- 17.

الوطن الأصلي هو مولد الشخص والبلد الذي هو فيه. قال الحنفية هو: موطن ولادة الإنسان أو تأهله أو توطنه، وقال ابن عابدين: "الوطن الأصلي، ويسمى بالأهلي، ووطن الفطرة، والقرار، ومعنى تأهله أي تزوجه، ومعنى توطنه أي عزمه على القرار فيه وعدم الارتحال عنه وإن لم يتأهل فيه" "[13]. وعند الشافعية والحنبلية: الوطن هو المكان الذي يقيم فيه الشخص لا يرحل عنه صيفا ولا شتاء إلا لحاجة كالتجارة وزيارة "[14]. والوطن الأصلي: " هو المكان الذي ولد فيه الإنسان، أو نشأ فيه ". [15]

النوع الثاني: وطن الإقامة

وطن الإقامة هو المكان الذي الإقامة فيه لمدة خمسة عشر يوما أو أكثر من غير أن يتخذه مسكنا، قال الحنفية: وطن الإقامة هو ما خرج إليه الإنسان بنية إقامة مدة قاطعة لحكم السفر، ويسمى بالوطن المستعار أو بالوطن الحادث[16]. وبقية العلماء يتفقون مع الحنفية على هذا المعنى مع اختلاف في المدة قاطعة لحكم السفر. ووطن الإقامة قد يكون ملجأ لأهداف كثيرة وهو الذي ينتقل إليه الإنسان لأي غرض من الأغراض، كالدراسة، أو التجارة أو العلاج، أو السياحة، أو للإقامة الدائمة، لمن أخرج من بلده، ونحو ذلك.

النوع الثالث: وطن السكنى

وطن السفر، يسمى وطن السكنى: وهو أن يقصد الإنسان المقام في غير بلدته أقل من خمسة عشر يوما[17]. قال الحنفية: وطن السكنى هو المكان الذي يقصد الإنسان المقام به أقل من المدة القاطعة للسفر[18]. قلت: وفي واقعنا المعاصر أنواع الوطن لا تختلف عن تقسيم العلماء كثيرا، لأن الوطن الأصلي

[13] ابن عابدين، محمد أمين، حاشية ابن عابدين (رد المختار على شرح تنوير الأبصار) دار الكتب العلمية ببيروت، ص 532.

[14] عبد الجبار بن أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، دار الكتب العلمية ببيروت، ص .372

[15] جميل صليبا:المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ج 2 ، 1994م، ، ص580.

[16] ابن عابدين، محمد أمين، حاشية ابن عابدين (رد المختار على شرح تنوير الأبصار) دار الكتب العلمية ببيروت ،ص 532.

[17] أ م دي صلاح محمد سالم، الفرق بين الوطن الإقامة والأصلي، مجلة علوم الإنسانية، 2008م.

[18] ابن عابدين، محمد أمين، حاشية ابن عابدين (رد المختار على شرح تنوير الأبصار) دار الكتب العلمية ببيروت، ص .523

عند العلماء يقابله في عصرنا الوطن الخاص، ولكن يقيد في عصرنا بأن من يتزوز من بلد لا يعتبر من مواطنيها، وأما وطن الإقامة فهو موجود في عصرنا وهو من ينتقل من بلده للدراسة، أو العلاج، أو التجارة أو السياحة، أو أخرج من بلده قهرا، أو غيرها من الأمور.

الفصل الثاني: حب الوطن والانتماء إليه

إن حب الوطن يتضمن بالضرورة حب المواطنين الذين ينتمون إلى هذا الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة، وأن هذه المحبة المتبادلة بين الفرد وأمته ووطنه كما يراها ابن باديس غريزية ومكتسبة، إذ تنشأ مع الإنسان منذ طفولته، وعليه فالحنين فيوض في الوجدان الذاتي يقارن ما سلف بما حدث.

حب الوطن هو ذلك الشعور الخفي الذي يدفع المواطن إلى التعلق به، والشعور بالانتماء إليه مهما بَعُد عنه، وهو شعور فطري ينمو مع التقدم في العمر، وإحساس بأنّه لا شيء يضاهي دفء الأرض التي خلق من ترابها، وترعرع في روابيها مهما رأى وأحب من بلاد أخرى. إنّه حب تناقله من الأجداد للآباء فاستقرّ في قلبه وما زال يكبر.

حب الوطن جزء لا يتجزأ في حياة الإنسان. لولا الوطن لما شعر الإنسان بمعنى الاستقرار والأمان، فهو الملاذ من كل ما يؤذيه، وهو المكان الذي عمل من أجله ليلاً ونهارًا لما كان قادرا على أداء حقها، فهي الكيان الذي يستحق أن يعمل. حبّ الوطن مقرون بالأفعال، فيظهر قولاً وفعلاً، وذلك بما يقدمه من أجله من أمور تساهم في بنائه وتطوره وارتقائه، والسعي بكلّ ما أوتي من علم ومهارة وقوة لتطويره وتحقيق نهضته، والمشاركة فيما يفيد مجتمعه من مبادرات وندوات وأعمال تطوعية، أو إصلاح القضايا الاجتماعيّة، أو نشر الثقافة الصحيّة، وكل ما يؤدي إلى إفادة أبناء الوطن وتثقيفهم ودرء الجهل عنهم، لكي ينتج جيل واعٍ متعلّم، يأبى الهوان والظلمة والفساد الذي ينتج بسبب انتشار الجهل.

تعريف الحب لغة: قال ابن فارس " الحاء والباء أصول ثلاثة:

أحدهما: اللزوم والثبات.

والآخر: الحبة من الشيء ذي الحب.

والثالث: وصف القِصر .[19]

قال ابن منظور:" الحب نقيض البغض والحب الوداد والمحبة وكذلك الحب بالكسر،... وأحبه فهو محب وهو محبوب على غير قياس هذا الأكثر وقد قيل محب على القياس" [20]. المحبة هي الرغبة في الاقتراب من شيء محبب. ويقول الشيخ محمد الألباني: " حب الوطن أمر غريزي، مثل حب الحياة، ومثل كراهية الموت" .[21]واصطلاحا: حب الوطن هو الميل إلى البلد الذي ينسب إليه الإنسان ويعيش فيه – سواء ولد فيه أم لم يولد فيه -، بحيث ينتج الدفاع عنه، والعمل لرقيه وتطوره وفق ضوابط الشريعة أولا: الميل إلى ما تراه أو تظنه خيرا، وهي على ثلاثة أوجه: محبة لذة كمحبة الرجل للمرأة، ومحبة لنفع كمحبة شيء ينتفع به، ومنه قوله تعالى: وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشرى للمؤمنين. يآ أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين " .[22]

الإنسان يبدأ حبه لبيته وأهل بيته منذ طفولته، حيث يشعر بالحاجة إليهم ويعرف أن بقاؤه يعتمد على وجودهم. البيت لا يكون وطنا صغيرا، وعندما ينضم إلى ميدان الحياة ويتعرف على من يشاركهم ماضيه وحاضره ويرى فيهم صورة لذاته وأخلاقه، ينمو في قلبه حبه نحوهم بنفس الحامس الذي كان يشعر به نحو أهل بيته في طفولته. هؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم تتجسد كوطنية عارفة. إذا مهدت له العلم الصحيح، يجد نفسه يحب كل من يحمل صفات الإنسانية في قلوبهم، وتصبح الأرض بأكملها وطنا له، وهذا هو وطنه الأكبر، فالإنسان لا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من خلال معرفته وحبه للوطن الصغير.

---

[19]هو الإمام العلامة اللغوي المحدث أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي المالكي.

[20] ابن منظور، معجم لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، / مادة (حب) 281/1.

[21]سلسلة الهدى والنور، مقطع من الشريط الصوتي للشيخ الألباني، رقم 527، https://www. al-albany. com. 10/12/2022

[22]سورة الصف، آية: 13-14

حب الوطن في القرآن الكريم:

إن حب الوطن من الأمور الفطرية التي جُبل الإنسان عليها، فليس غريباً أبداً أن يُحب الإنسان وطنه الذي نشأ على أرضه، وشبَّ على ثراه، وترعرع بين جنباته. كما أنه ليس غريباً أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه عندما يُغادره إلى مكانٍ آخر، فما ذلك إلا دليلٌ على قوة الارتباط وصدق الانتماء وحتى يتحقق حب الوطن عند الإنسان لا بُد من تحقق صدق الانتماء إلى الدين أولاً، ثم الوطن ثانياً؛ إذ إن تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف تحُث الإنسان على حب الوطن.

اقترن حب الوطن في القرآن مع محبة النفس، كما اقترن حب الديار بحب الدين لأن كلا منها أمر متأصل في النفوس عزيز عليها، بل حكى الله عن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام الدعاء بالأمن والرزق لموطنه، والذي يؤكد ما يفيض به قلب إبراهيم عليه السلام من حبه المستقر لعبادته وموطن أهله، إذ الدعاء علامة من علامات الحب وتعبير عنه. لم ترد كلمة وطن بصيغتها الثلاثية في القرآن الكريم بل إن مدلولها أو مفهومها الأساسي أو الجوهري ورد فيه مع تنوع في الصيغ التعبيرية أو اللفظية فقد ورد مفهوم الوطن في القرآن الكريم بصيغة المواطن بقوله تعالى:(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) .[23]

قال الشوكاني المواطن جمع موطن ومواطن الحرب مقاماتها. وذكر النسفي أنها كانت ثمانين موطنا من مواطن الحرب. وقال ابن الجوزي مواطن أي أماكن. وقد وردت كلمة الدار أو الديار بمعنى الوطن في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة منها قوله سبحانه: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ) [24] ورد مفهوم الوطن في القرآن، في (صيغة الأرض المخصوصة) ومن ذلك قول الله جل ثناؤه - إِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا "[25]... والأرض المخصوصة المقصودة -هنا- هي مكة-: وطن النبي الأول: ميلاداً، نشأة، شبابا، زواجاً، بعثة وبلاغا. ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ

[23] سورة التوبة، آية 25.

[24] سورة الحشر، آية 9.

[25] سورة الإسراء، آية 76

وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ"[26]، والأرض المخصوصة المقصودة في هذا النص هي: (الوطن) الذي مكن الله فيه لقوم آمنوا به، وتعاونوا على تطبيق منهجه شعائر وشرائع. ومعنى (التمكين في الأرض) -أي الوطن- في هذه الآية المكية، مبسوط ومشروح في الآية المدنية: " ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾.

دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا[27]، هنا مفهومان متعاضدان: مفهوم: (الاستخلاف في الأرض).. ومفهوم (التمكين للدين) وهما مفهومان لا يتصوران -لا عقلا ولا واقعا- إلا في أرض مخصوصة وهي التراب أو المكان، أو (الوطن) الذي يتحقق فيه الاستخلاف والتمكين. حكى الله عن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام الدعاء بالأمن والرزق لموطنه، والذي يؤكد ما يفيض به قلب إبراهيم عليه السلام من حبه المستقر لعبادته وموطن أهله، إذ الدعاء علامة من علامات الحب وتعبير عنه.

يقول تعالى " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ "[28]. ، ويقول سبحانه " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام.[29]"ويرى في هتين الآيتين يدعو إبراهيم عليه السلام الله أن يجعل وطنه أمنا وسلاما.

يقول معالي الشيخ أ. د. سليمان بن عبد الله أبو الخيل: "لو تأملنا النصوص الواردة في هذه النظرة الشرعية تجاه حب الوطن لوقفنا على عدد كبير من النصوص التي تدعم، وتؤكد محبة الوطن، ولكنها يجب ألا تتعارض مع محاب الله ورسوله صل الله عليه وسلم"[30] ، ومنها قول الله تعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ

[26] سورة الحج، آية 41 .

[27] سورة النور، آية 55.

[28] سورة البقرة، آية: 126

[29] سورة إبراهيم، آية 35

[30] أبو الخيل، سليمان بن عبد الله بن حمود، مقومات حب الوطن في ضوء تعاليم الإسلام دراسة شرعية علمية تطبيقية على المملكة العربية السعودية، ص14.

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"[31]. وفي هذه الأية ذكر الله المساكن التي هي موطن السكن، ومحل البقاء والنشاط على أنها من المحاب التي يشعر المرء بالارتباط بها ومحبتها، لكنه سبحانه أوجب ألا تطغى على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه. "وعلى هذا، فالوطن الإسلامي الذي يحوي مقدسات المسلمين، ويأمن فيه الناس على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم محقق لما يحبه الله ورسوله" [32]. هذه الآية هي دلالة على مشروعية حب الوطن. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾"[33]. نفهم أن هذه الآية الكريمة تدل أن الله جعل من العقوبات التي تترتب على بعض الجرائم والجنايات النفي من الوطن، وهو كذلك من التعزيرات، فإنها كما تكون بالضرب والحبس والقتل... تكون بالنفي عن الوطن.

قال الله تعالى:" للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون "[34]. "وفي هذه الآية أن الله أثنى على المهاجرين، لأنهم صبروا على ترك أوطانهم وهجر محبوباتهم"[35]. فدلت هذه الآية على مشروعية حب الوطن، لأن الله جعل الفيء للمهاجرين الذين تركوا أوطانهم لمرضاة الله ورسوله ومواساة لهم.

---

[31] سورة التوبة، آية: 24

[32] أبو الخيل، سليمان بن عبد الله بن حمود، مقومات حب الوطن في ضوء تعاليم الإسلام دراسة شرعية علمية تطبيقية على المملكة العربية السعودية، ص 14-15 .

[33] سورة المائدة، آية: 33

[34] سورة الحشر، آية: 8.

[35] أبا الخيل، سليمان بن عبد الله بن حمود، مقومات حب الوطن في ضوء تعاليم الإسلام دراسة شرعية علمية تطبيقية على المملكة العربية السعودية، ص 16.

صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أَشَدُّ النّاسِ بَلاءً الأَنْبِياءُ ...))[36]، ولا عجب فهم صفوة الله في خلقه، وقدوة الصالحين، وحملة لواء الإصلاح في الدنيا، ومنارات الهدى، وقد وقع عليهم من البلاء الكبير مثل النفي من أوطانهم والإبعاد والهجرة ولكنهم عليهم السلام صبروا واحتسبوا.

حب الوطن في السنة:

يُعد حديث *حب الوطن من الإيمان* حديثا من الأحاديث التي اشتهرت على ألسنة الكثير من الناس، إلّا أن هذا الحديث ضعيف، ولكن هذا لا يمنع أنه على كل مسلم أن يحب وطنه ويكون وفيًا في حبه لبلاده ويدافع عنها بكل نفيس وغالي، وأنه على الفرد تقديم مصلحة الوطن على مصلحته الفردية، وأن يلتزم بأحسن الأخلاق وأكرمها التي بها يسمو المجتمع.

وقد أشار علماء الدين الإسلامي، إلى أنّ حب الوطن هي شعب من الإيمان، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثالاً على مدى حب الأنبياء الكرام لأوطانهم، مما يدل على قيمة الوطن العظيمة، وأهمية الوطن في حياة الرسل. يوضح بأحاديث رسول الله صل الله عليه والسلم مدى حب النبي الكريم لوطنه وحزنه الشديد حين هاجر من مكة إلى المدينة، كما وضع لكم بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على مدى حب النبي لوطنه.

يقول الغزالي "والبشر يألفون أرضهم على ما بها ولو كانت قفرا مستوحشا،و حب الوطن غريزة متأصلة في النفوس تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه، ويحن إليه إذا غاب عنه ويدافع عنه إذا هوجم ويغضب له إذا انتقص"[37]، هذا الحب للوطن عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في بداية بعثته وحين هجرته، ففي بداية نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بغار حراء ذهبَ مع زوجتِه خديجة رضي الله عنها إلى ورقة

[36] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، دار الفكر - بيروت / لبنان ط 1، ٢٠٠٣م، ص 176.

[37] غزالي، محدم، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص 86، ط 3، نهضة مصر للطباعة النشر، 2005م.

بن نوفل، وقصَّ عليه ما حدث معه من أمر نزول جبريل عليه، وورقة يفسر له ذلك حتى قال: ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله .صلى الله عليه وسلم أَو مُخْرِجِيّ هم ؟!، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[38].

قوله صلى الله عليه وسلم .أو مخرجي هم؟ " استفهام إنكاري على شكل الحزن والألم، كأنه استبعد صلى الله عليه وسلم أن يخرجوه من مكة وجوار بيت الله، وبلدة أبيه إسماعيل عليه السلام بلا سبب، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن منه فيما مضى ولا فيما سيأتي سبب مما يتطلب عزله وإخراجه، بل كانت منه فضائل وتكريمات المقتضية إكرامه ووضعه في أعلى الدرجات.

ورد لفظ "الوطن" في سنة النبوية في عدد من الأحاديث، لن يستطيع أن يذكر كل منها، وهذه الأحاديث التي تضمن فيها المحبة والحنين والعشق لوطن المحبوب لنبي ﷺ. ويناقش الباحث بعضا من تلك الأحاديث عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما خرج رسول الله صل الله عليه وسلم من مكة، قال:"أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت"[39].

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر حزنه الشديد على فراق خير الأوطان وأحبها إلى الله تعالى وإلى نفسه صل الله عليه والسلم، بيد أن الله تعالى ذكره–عوضه البلد المبارك بالبلد الأمين، فيا الله تعالى ما أوسع رحمته وأكبر عطائه سبحانه وتعالى[40]. وقال صلى الله عليه وسلم "من قتل دون ماله فهو شهيد [41]. المال هنا هو الأرض، ويراد أيضا به كل ما هو مال، وأرض المسلمين هي مال للمسلمين ملك لجميع المسلمين. وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد. ويعني بهذا الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يحبب لهم

[38] السندي ، أبو الحسن نور الدين محمد بن عبد الهادي. حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ط1، 2008، ج 14، ص 388.

[39] الإمام محمد بن عيسى، صحيح سنن الترمذي، باب في فضل مكة، رقم الحديث (3925)، مكتبة المعارف، مملكة السعودية، ص 590.

[40]الدكتور عبد الرحمن قصاص، مفهوم الوطنية في ضوء الكتاب المبين والسنة النبوية، المكتبة الشاملة الذهبية، ص 12.

[41] الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم الحديث 2480، ص 877.

المدينة كحبهم بمكة، لأنها محبوبة للنبي حبا شرعيا، فدل على مشروعية حب الوطن. وفي حديث آخر قال النبي صلى الله عليه وسلم: والمدينة خير لو كانوا يعلمون"[42]، هنا فضّل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة التي يحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الدكتور عبد السلام البرجس – رحمه الله -: "إن العلماء رحمهم الله تعالى ذكروا أن المسافر يستحب له إذا قضى نهمته من سفره أن يعجل بالرجوع إلى أهله، في أي سفر كان، أي سواء كان سفر طاعة وقربة، أو سفر نزهة سفر مباح، ومما يؤيد هذا الفهم قول البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في آخر كتاب العمرة: باب السفر قطعة من العذاب ثم ذكر حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله" [43]، المراد بالأهل هنا البلد سواء كان للإنسان فيه أهل.. زوجة... أبوان.. إخوان، نحو ذلك أو لم يكن له أهل، وهذا ذكره العلماء رحمهم الله تعالى – فإذا كان هذا في السفر أنه يمنع الإنسان من الإتيان بالطاعات على وجه الكمال أو ينقض من طاعته ونحو ذلك، فكيف بما إذ أخرج الإنسان من وطنه قهرا وغصبا كيف سيكون حاله أيضا ؟ إذا كان البلد هرجا ونهبا وسلبا كيف سيكون حاله؟ !.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه لما قدم من خيبر حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد فقال: " هذا جبل يحبنا ونحبه " [44]. قال ابن حجر رحمه الله –: "قيل: هو على الحقيقة، ولا مانع من وقوع مثل ذلك، بأن يخلق الله المحبة في بعض الجمادات–أي محبة الرسول صل الله عليه والسلم، وقيل هو على المجاز، والمراد أهل أحد. قلت فيه دليل على حب الوطن، ومشروعيته، ويمكن أن تستنتج من نصوص الوحيين السابقة قاعدة فيقال: كل ما ورد من قصص إخراج الأنبياء من أوطانهم وشوقهم لها دليل على حب الوطن. ولقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف مكة من "أصيل" فجرى دمعه حنينا إليها، وقال: "يا

[42] الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، رقم الحديث (1776) ص 663.

[43] نفس المصدر، ص 347.

[44] نفس المصدر ص. 539

أصيل دع القلوب تقر أرأيت كيف عبر النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عن حبه وهيامه وحنينه إلى وطنه بقوله: "يا أصيل دع القلوب تقر"، فإن ذكر بلده الحبيب -الذي ولد فيه، ونشأ تحت سمائه وفوق أرضه، وبلغ أشده وأكرمه بالنبوة في رحاب [45].

وهكذا يوجد كثير من الأحاديث التي تتضمن حب الوطن من معنى الحديث وقد اهتمت السنة النبوية بالوطن فهو مأوى الإنسان ومنزل الرحمات ودائرة العمران. لما كان الوطن هو المجال الذي يمارس فيه المسلم شعائر دينه، والنطاق الذي يعيش فيه أيام حياته، كان لابد من تقوية ارتباطه به، وتعزيز انتمائه إليه ليكون حريصا على حفظ أمنه واستقراره.

ولقد كانت السنة النبوية أنموذجا رائدا في رسم معالم منهج تعزيز انتماء المسلم إلى وطنه، وذلك من خلال ما اشتملت عليه السنة والسيرة النبوية من مواقف وقيم تزيد المسلم اعتزازا وحرصا على خدمة وطنه والتعلق به.

[45] إبراهيم الهلالي، الوطنية مفهومها ومظاهرها، 22/05/2021، https://khutabaa. com.

الفصل الثالث: القومية والوطنية

القومية و الوطنية تكون غالبا مرتبكين ويتم الخلط بينهما، الوطنية هي الشعور بالفخر والواجب المدني داخل البلاد، في حين أن القومية هي رفع هوية موحدة حول المفهوم المشترك للأمة، أي أن القومية تحدد من ينتمي للوطن.

مفهوم القومية:

القومية لغة اشتقاق لغوي من جذر كلمة (قوم) وهي تعني جماعة من الناس، حيث ورد في لسان العرب: (القوم الجماعة من الرجال والنساء جميعا، وقيل هو للرجال خاصة دون النساء) [46]، وجاء في المنجد الوسيط (قوم جمعها أقوام " جماعة من الناس تربط بعضهم ببعض وحدة اللغة والثقافة والمصالح المشتركة [47]). و القومية بمفهومها البسيط تعني: (شعورا مشتركا بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم، ويؤلف بينهم ليكون أمة واحدة متميزة على سائر الأمم " .[48]

يمكن من هذه التعريفات اللغوية أن القومية حبل اجتماعي الذي يربط بين جماعة من الناس يشتركون في الوطن واللغة والتاريخ، وهي تكريس هوية مشتركة تميزهم عن غيرهم من الشعوب وهذا ما يؤكد هنري فيرتشايلد في قاموس علم الاجتماع حيث يعرّف القومية " القومية بأنها جماعة من الناس تربطهم روابط واضحة من الثقافة المتجانسة، والقومية الصحيحة تستمد حيويتها من شعور أفرادها بوحدة نوعها ومن التشابه الأساسي بين تقاليدهم وطباعهم، واصطلاح القومية يمكن أن يدل على المجموعة البشرية نفسها كما يمكن أن يدل على المركب الثقافي الذي يوحد بينها " .[49]

---

[46] ابن منظور: لسان العرب، تح عامر أحمد الحيدري، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، مجلد 7، ط 1، ، 2005 م، ص 263-264.

[47] حموي، صبحي: المنجد الوسيط في العربية المعاصرة، ص 1197.

[48] الدقاق، عمر: الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، مكتبة الشرق، لبنان، ص 195.

[49] سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، دار الفكر العربي، مصر، ص 102.

يفهم من هذه تعريفات أن القومية رابط اجتماعي وعاطفي ينشأ من مشاركة مجموعة من الناس في الوطن وهم يتشاركون في اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والثقافة والمصير والفوائد، كما يتضامنون مع بعضهم بعضا، وتعاونهم يقودهم إلى الوحدة مثل القومية العربية، حيث أن هناك العديد من العناصر التي توحد بين العرب كوحدة الدم واللغة والتاريخ والدين والثقافة والمصير المشترك.

مفهوم الوطنية:

يشتق مصطلح كلمة " الوطنية " من كلمة وطن التي يعرّفها لسان العرب لابن منظور على أنه المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، اختلفت تعريفات الوطنية عند الباحثين باختلاف المناهج الفكرية لديهم فمنهم من جعلها عقيدة يوالي عليها ويعادي، ومنهم من جعلها تعبيرا عاطفيا وجدانيا يندرج داخل إطار العقيدة الإسلامية ويتفاعل معها، والبعض يقول الوطنية هي تقديس الوطن بحيث يصير الحب فيه والبغض لأجله، والقتال في سبيله حتى يطغى على الدين وحتى تحل الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية، والعاطفة التي تعبر عن ولاء الإنسان لوطنه، وينتمي الإنسان إلى وطنه معينة يحمل حنينه، ويدين بالولاء لها ، ومن المفاهيم العامة للوطن المفهوم العاطفي (حب الوطن) الذي قال عنه الأصمعي سمعت أعرابيا يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكاؤه على ما مضى من زمانه.

ليست الوطنية ترديد شعارات أو احتفال باليوم الوطني وإنما هو شعور بالانتماء لهذه الأرض، وهذا المجتمع الذي نعيش فيه، وبذل كل ما هو غالي ونفيس للدفاع عن أراضيه وتقديم كل ما هو مفيد لديني ووطني، الوطنية تكون بتربية الأبناء تربية صالحة حتى تكونوا أفرادا نافعين لدينهم ووطنهم تكون عن طريق المعلم الذي يقف بين تلاميذه يغرس فيه حب هذا الوطن والاعتزاز به وبتاريخه.

يعبر مفهوم الوطنية الإحساس بالارتباط والالتزام لأمة معينة، أو دولة، أو مجتمع سياسي، وغالبا ما يعتبر مفهوم القومية الذي يعبّر عن الولاء للأمة مرادفا لمفهوم الوطنية الذي يعني لغة حب الوطن، إلا مفهوم

الوطنية قد نشأ قبل ظهور مفهوم القومية بألفين عاما ؛ حيث ظهرت القومية في القرن التاسع عشر" [50]، يتضمن في الوطنية الشعور والحنين الخالص إلى وطنه ومنها الرغبة في التضحية لغاية تعزيز مصلحة الوطن، قلقا خاصا حول صلاح وخير الوطن، الشعور تطابقا شخصيا بين الشخص ووطنه، و تعلقا خاصا بالوطن.

يؤمن عديد من الإنسان أن حب الوطن يعني الوطنية هو شعور مناسب وطبيعي ناتج عن تعلق الإنسان بالوطن الذي ولد وعاش فيه، وشكل من أشكال الشكر على الفوائد التي جلبها له هذا الوطن، مثل العيش على أرضه، واتباع قوانين الوطن وأوامره الخاصة، وهذه بالإضافة إلى اعتبار الوطنية جزءا مهما من الشخصية.

المبحث الأول: الفرق بين القومية والوطنية

الأساس في القومية والوطنية هو علاقة الفرد تجاه وطنه وأمته ومجتمعه، غالبا ما يتم الخلط بين القومية والوطنية، وقد يعتقد البعض أن الوطنية والقومية أنهما تعنيان نفس الشيء، ولكن هناك فرق بارز بين القومية والوطنية، " تعني القومية أننا نولي أهمية أكبر للوحدة بين عناصر الأمة عن طريق الخلفية الثقافية والتاريخ المشترك، بما في ذلك اللغة والتراث، وترتبط الوطنية بحب الوطن والإخلاص له، مع التركيز بشكل أكبر على القيم والمعتقدات عند الحديث عن القومية والوطنية، يمكن أن نتذكر الاقتباس الشهير جورج أورويل، الذي قال إن القومية هي " أسوأ عدو للسلام، وطبقا لما قاله أورويل، فإن القومية هي ذلك الشعور بأن وطن المرء متفوق على الآخر من جميع النواحي، في حين أن الوطنية هي مجرد شعور بالإعجاب بأسلوب حياة، تظهر هذه المفاهيم أن الوطنية مسالمة بطبيعتها، وبينما القومية يمكن أن تكون عدوانية بعض الشيء " .[51]

[50] هبة زايد، ماهي القومية، 14/10/2021 .https://mawdoo3. com

[51] مقارنة بين القومية والوطنية، 14/10/2021، .https://arabprf. com

تكون الوطنية من الحب والمودة الخالصة تجاه الوطن، وهذه المودة والحب من طبيعة الإنسان وفطرته، وبينما تكون القومية من التنافس والكراهية، ولذا يمكن أن نقول إن القومية هي ذات طبيعة نضالية والوطنية بالعكس وهي تقوم على أساس السلام والحب.

يرى عدة اختلافات بين القومية والوطنية، كذلك يفترض معظم القوميين أن وطنهم أفضل وأعظم من أي بلاد أخرى، وبينما يعتقد الوطنيون أن وطنهم هو واحد من الدول الأفضل وأنه يمكن تحسينه بعدة سبل، يميل الوطنيون إلى الإيمان بالعلاقات الودية مع الدول الأخرى، في حين أن بعض القوميين لا يعتقدون بذلك، في الوطنية يعتبر الناس في جميع أنحاء العالم متساوين، ولكن في القومية تعني أن الأشخاص الذين ينتمون إلى وطنهم فقط هم من يجب اعتبارهم متساوين. يستعد الوطنيون لتسليم النقد والمجادلة ويمكن أن يفهم علوم جيد من النقد والجدل، ولكن لن يستعد القوميون لتسليم النقد والجدل ولا يتحمل أي نقد وجدل ويعتبرونه إهانة وذلة. القوميون يفكرون في فضائل الوطن فقط وليس يفكرون في نواقص الوطن وعيوبه، يمكن للقومية أيضا احتقار فضائل الأمم الأخرى، وبينما ترتبط الوطنية بالمسؤوليات القيمية بدلا من مجرد تقييم الولاء تجاه الوطن، القومية تجعل الشخص يحاول إيجاد مبرر للأخطاء التي ارتكبت في الماضي، في حين أن الوطنية تمكن الناس من إدراك أوجه العيوب والأخطاء والقصور والتحسينات التي تم إجراؤها.

بدأ الحس القومي والنضالي في الوطن العربي نتيجة الحروب والثورات التي شهدها العالم العربي في العصر الحديث، ونتيجة الاضطهاد والمعاناة التي مرت بها الشعوب العربية، إذ ظهرت حركة قومية عربية " في أواخر القرن 19، وأوائل القرن 20 متمثلة في حركة سرية تؤلف من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية تتخذها مظاهر جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها ثم

حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة 1912 م "[52]. كانت هذه الحركة القومية العربية تسعى لطرد الأتراك من الأقطار العربية، وإقامة دولة عربية موحدة مستقلة عمادها الدين والعروبة، وقد انعكس هذا الأمر على الأدب، ذلك أن الأدباء العرب قد واكبوا هذه الحركات وحاولوا إثبات الهوية العربية التي تقوم على دعامة الدين واللغة العربية والتاريخ، وألفوا الأدب الذي يحس فيه نوع من الحس القومية التي تنبع من إيمانهم العميق بالعروبة والإسلام وحبه للعرب وبلادهم، فهم يعبرون عن البلاد العربية كتلة واحدة ووطنا واحدا ولا يعترفون بتجزئتها ولا بحدودها.

فالأدب هو الوسيلة الفضلى للتعبير عن الحس والشعور الفردي والجماعي وهو لا ينفصل بحال من الأحوال عن أوضاع الأمة كأن يكون معزولا عن الوضع الفكري أو الثقافي للأمة، لذلك كان الأدب وصفا لنبض الأمة، وهذا نابع من رسالة الأدب ووظيفته تجاه المجتمع ويؤكد دوره الخطير والكبير في بناء المجتمع، وإيقاظ الوجدان العربي، وتحقيق النهضة العربية.

المبحث الثاني: الهوية الوطنية الفلسطينية

تشكلت الهوية الوطنية الفلسطينية نتيجة الظروف التاريخية التي مرت بها القضية الفلسطينية ، منذ أن بدأ الوعي والنضال الوطني الفلسطيني يأخذ دوره في الحياة السياسية والاجتماعية لفلسطين، وذلك منذ بدأ المثقفون الفلسطينيون يلاحظون الخطر الصهيوني، وإقامة وطن لليهود في فلسطين منذ الحكم العثماني. الهوية الوطنية هي مجموعة السمات والخصائص المشتركة التي تميز أمة أو مجتمعا أو وطنا معينا عن غيره، يعتز بها وتشكل جوهر وجوده وشخصيته المتميزة،

إن كل مجموعة إنسانية يوجد بين أفرادها صفات مشتركة تميزهم عن غيرهم من المجتمعات وتشكل لديهم هويتها وشخصيتها الخاصة، وبالنسبة لأفراد الشعب الفلسطيني فإنهم ينتمون إلى الأمة العربية ويشتركون

[52] محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار حمامي، الأردن،، ط2، 1988م، ص 98.

معهم بالدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، وأن الصفة الوحيدة التي جمعت بينهم ويميزهم عن غيرهم من العرب كانت جغرافية جاءت من كونهم سكنوا المنطقة الجغرافية التي وضعت حدودها من قبل الحلفاء عند نهاية الحرب العالمية الأولى، كما وضعت حدود الأقطار العربية الأخرى، وتعتبر هذه الصفة الجغرافية المشتركة هي أول حدود الهوية الفلسطينية "[53]، على هذا الأساس يمكن الحديث عن خصوصية تبلور الوعي بالهوية الوطنية الفلسطينية المتعلقة بخصوصية ما تعرض له الشعب الفلسطيني من صدمة تدمير نسيجه الاجتماعي ودفعهم للفرار من أرضه بسبب المذابح التي تعرض لها بهدف القضاء عليها، وهو الوعي والإدراك الذي تبلور من جهة أخرى على شكل فعل مقاومة هو الذي يصد فعل النفي تعرض للمشروع الصهيوني ولا يزال كذلك.

تنبع خصوصية الهوية الفلسطينية من كونها تبلورت نتيجة استهداف الاحتلال الإسرائيلي الذي استهدف الوجود الفلسطيني في جميع النواحي الحضارية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فقد تشكلت الهوية في خضم كفاح مرير حارب الشعب الفلسطيني لإثبات وجوده وتحقيق حقوقه الوطنية، جاءت الهوية الفلسطينية نقيضا للهوية الصهيونية القائمة على الاحتلال والتهجير والدمار، وتبلورت في شكل مقاومة لإثبات الوجود في وجه إرادة الاقتلاع والنفي،

مما جعلها هوية نضالية في جوهرها، التي تصبح مهددة بالفناء إذا تخلت عن جوهر الصراع، ولقد صاغ محمود درويش وثيقة الاستقلال، مؤكدا على خصائص وخصوصية الهوية الوطنية الفلسطينية في الابداع الفكري: " بالثبات الملحمي في المكان والزمان، صاغ شعب فلسطين هويته الوطنية وارتقى بصموده في الدفاع عنها إلى مستوى المعجزة... إن ديمومة التصاق الشعب بالأرض هي التي منحت الأرض هويتها، ونفحت في الشعب روح الوطن... فواصل الشعب العربي الفلسطيني عبر التاريخ، تطوير ذاته في التوحد

[53] عبيد داود المراغي، تأثير الاحتلال الإسرائيلي على هوية الوطنية الفلسطينية، جامعة شرق الأوساط للدراسة العليا، 2013 م، ص 52.

الكلي بين الأرض والإنسان "[54]. لقد تعرضت الهوية الوطنية الفلسطينية إلى سياسة النفي وجاء ذلك منذ بداية المشروع الصهيوني، الذي أنكر وجود الفلسطينيين كليا وقال إن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ووصل الأمر إلى حد نفي وجود سكان أصليين ذوي ثقافة خاصة، من خلال ما جاء به وعد بلفور سنة 1917، الذي أعطى الحق لمن لا يملك " والذي عرف الأكثرية من سكان فلسطين وهم أصحاب البلاد من العرب الفلسطينيين على أنهم " الأقليات غير اليهودية " .[55]

إن جميع الاعتداءات اليهودية ابتداء من الاستيلاء على الأرض الفلسطينية والاستيطان فيها وطرد سكانها وتهجيرهم وتدمير منازلهم واعتقالات وقتل ومجازر وحصار وإقامة جدار الفصل العنصري، وقطع الأشجار، وعزل المناطق عن بعضها البعض، وتهويد مدينة القدس وعزلها، وإقامة حواجز العسكرية، وتنفيذ سياسة العقاب الجماعي، وتلوث البيئة، والاستيلاء على الموارد المائية، والإهمال الصحي، وسياسة التجهيل كلها تأتي في إطار سياسة تجزئة وتدمير ومحو الهوية الوطنية الفلسطينية.

[54] المصدر نفسه، ص 53.

[55] المصدر نفسه، ص 64.

الفصل الرابع: مفهوم المنفى

مفهوم المنفى ذو طبيعة معقدة، إنه مفروض ومرغوب، يجري السعي وتفضل الإقامة فيها وكذلك ذمة بوصفه حالة من الإبعاد والاغتراب الذي يدفع المرء إليه أو يجبر على احتضانه. وفي القرآن الكريم اقترن مفهوم المنفى بالعقوبة والخروج عنوة من مكان اعتاد عليه الإنسان إلى مكان آخر، قال الله تعالى: " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم"[56]، فالنفي هنا جزاء فعل مقترن تعدى صاحبه الحدود الشرعية وتجاوزها، وهو فعل يتعلق بالفساد الأخلاقي والاجتماعي.

المبحث الأول: مفهوم المنفى في اللغة

النفي في اللغة: هو عدم وجود شيء، ومن معانيه التي وردت في المعجم العربي: الجحد والطرد. والإثارة والدفع: فيقال " نفي شيء " أي ما تبقى منه بعده تتقيه، واختيار الجيد منه، ويقال هو من نفايات القوم ونفاتهم أي أرذلهم.

نفى الرجل عن الأرض ونفيته عنها طردته فانتفى، ونفي الزاني الذي لم يحصن أن ينفى من بلده الذي هو به إلى بلد آخر سنة وهو التغريب يعني الإبعاد عن البلد يقال نفيته أنفيه نفيا إذا أخرجته من البلد وطردته.. [57]، ويساوي القرآن الكريم كلمتي الخروج عنوة والقتل للمنفى : " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم "[58]، وفي سورة البقرة ورد النفي بمعناه وليس بلفظه وهو الخروج عنوة، قال الله تعالى على لسان بني إسرائيل: " وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا " .[59]

---

[56] سورة المائدة، آية 33.

[57] ابن منظور، لسان العرب، باب نفي، دار الكتب العلمية، ، بيروت، لبنان، ج15، ط2، 2003 م ،ص 337.

[58] سورة النساء، آية 66.

[59] سورة البقرة، آية 246.

ولابد لنا من خلال ذلك أن ندرك الفرق بين الهجرة والمنفى، والهجرة تكون بدافع داخلي يختاره الشخص لأي سبب كان، أما المنفى فهو انتزاع قسري وبدافع خارجي يضطر بسببه الإنسان إلى مغادرة وطنه، وهو ما حدث لأبناء الشعب الفلسطيني الذي انتزع من أرضه قسرا وتوزع في المنافي العربية والأجنبية، ومن تبقى داخل الوطن فقد بعثروه لاجئا في بلاده.

المبحث الثاني: مفهوم المنفى في الاصطلاح

يُعرّف المنفى بأنه المكانُ الذي يذهب إليه شخصٌ ما بعد إجباره على الخروج من وطنه، ويظلّ فيهِ فترة زمنية طويلة، وقد تستمر إلى مدى الحياة، وقد يختار الشخص أن يغادر وطنه دون أن يتم إجباره على ذلك، ويصنف هذا ضمن مفهوم المنفى الاختياريّ، والذي يعتمد على وجود مجموعة من الأسباب التي تدفع الإنسان للمغادرة، مثل: اندلاع حربٍ في وطنه .[60]

قضية المنفى من أهم مضايقات الإنسان وقضاياه المقلقة في العصر الحديث، لأنه على الرغم من تحول العالم إلى قرية صغيرة بفضل التقدم التكنولوجي المتطورة ، فإن الفرد فيه لا يزال يواجه صعوبات في التنقل الحر في المناطق الجغرافية الممكنة ، خاصة مع تفاقم الهوة بين الشمال والجنوب، وسيادة الفكر المتطرف، وانتشار الحروب والصراعات الطائفية التي دفعت الناس إلى الهجرة والبحث عن ملجأ في دول أخرى، بحثًا عن الأمان، السلام والعيش الكريم، الأمر الذي أدى أيضًا إلى نمو الشعور المفرط بالعبثية في ظل هيمنة المادية الفاحشة، وإقامة مشكلة الهوية مع الوعي بالمفارقات.

إن المنفى شيء صعب للإنسان العادي ولا يمكن تحمله. في المعنى الأصلي للكلمة " المنفى " هو تجربة قديمة، من المرجح أنها نتجت عن تأكيد بعض القوى لحلولها في منطقة معينة أو احتلالهم لها وسيطرتهم

[60] مجدخضر، خصائص شعر المنفى، 14/10/2021 .https://mawdoo3. com

عليها، ثم إبعاد عن المنطقة، المنطقة أو خارجها من لا يرحب به فيها لسبب ما، مثل عدم ارتباطه بالمحتلين، أو عدم موافقته على المعايير التي وضعها، أو الاعتراض على معاييرهم الخاصة.

لقد اكتسبت كلمة المنفى في الأدب الحديث دلالات أخرى بالإضافة إلى دلالاتها المعجمية الأصلية، فتعددت تعريفاتها لتعدد تلك الدلالات، وإن دارت جميعها حول محور واحد، إذ اتفق الأدباء على أن المنفى يحمل في طياته ملامح الشعور بالغربة والحنين والذكريات والعودة إلى الوطن والاقتلاع الناجم عن الهجرة والنفي، فالمنفى ابتعاد وانفصال عن الوطن الأم، انتقال قسري إلى أصقاع الأرض المختلفة غربا وشرقا، ولا يستطيع المنفي أن يعود إلى وطنه حتى لو رغب في ذلك، وإن استطاع فإنه لا يعامل المعاملة التي يأملها في وطنه، فتحبس حريته وتقيد حركاته.

ويصف إدوارد سعيد المنفى بأنه عدم القدرة على التكيف مع البيئة الجديدة، وعدم التمتع بالإقامة الطويلة واللهجة المحلية فيقول: " حين تشعر بعدم قدرتك على التمتع الأكيد برفاهية الإقامة الطويلة والبيئة المعتادة واللهجة المحلية ويكون عليك أن تعوض بصورة ما عن مثل هذه الأشياء فإن ما تكتبه سيحمل بالضرورة شحنة مزيدة من القلق والعناية بالتفاصيل بل ربما المبالغة" .[61]

ويرى بول تابوري أن المنفي هو: " شخص مكره على المغادرة أو البقاء خارج بلده الأصلي تحسبا منعزل عن وطنه واجتماعه وخوفا من الاضطهاد لأسباب عرقية، دينية، قومية، وسياسي، وهو الشخص الذي يعد منفاه مؤقتا.. مؤملا أن يعود إلى وطنه حينما تسنح الظروف، لكنه غير قادر أو غير راغب ما دامت العوامل التي جعلت منه منفيا "[62]، وهذا التعريف لا يختلف عن التعريفات السابقة عن أسباب النفي وهي

[61] عز الدين المناصرة، إدوارد سعيد والنقد الثقافي المقارن و قراءة طباقيه، مجلة فصول، العدد 64 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2004 م، ص 130 .

[62] هاتف جنابي، مقدمة في المنفى والمهجر، مؤسسة جذور الثقافية. https://www. ahewar. Org 14/12/2021.

الخوف من الاضطهاد السياسي والديني هي السبب في رحيلهم عن بلدانهم ولجوئهم إلى بلدان يشعرون فيها بالأمان والحرية الفكرية ليجدوا في المنفى مكانا أوسع وأكثر رحابة.

يقول إدوارد سعيد في معرض حديثه عن بواعث النفي على من يخوض تجربته: " المنفى هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة. وفي أزمنة ما قبل العصر الحديث كان الإبعاد عقابا مرعبا بصفة خاصة. لأنه لم يكن يعني فقط أعواما يعيشها الإنسان تائها بدون هدف، بعيدا عن الأسرة وعن الأماكن المألوفة، بل يعني أيضا أن يكون أشبه بمنبوذ دائم، لا يشعر أبدا كأنه بين أهله وخلانه، لا يتفق البتة مع محيطه، لا يتعزى عن الماضي، لا يذيقه الحاضر والمستقبل إلا طعم المرار. والمنفي يعيش حالة وسيطة، ويتجرب أحوال المنفى المختلفة مثل المنفى المكاني، الجسدي، الروحي، الاجتماعي، الثقافي والحضاري، لا ينسجم تماما مع المحيط الجديد ولا يتخلص كليا من عبء البيئة الماضية، تضايقه أنصاف التداخلات وأنصاف الانفصالات، وهو نوستالجي وعاطفي من ناحية، ومقلد حاذق أو منبوذ لا يعلم به أحد من ناحية أخرى.[63]

والمهاجر ذلك الشخص الذي يختار العيش في بلد آخر غيره بلده الأصلي، لكن المنفي الذي ترك بلده مرغما يتحول إلى مهاجر عند زوال أسباب المغادرة، قد يتحول المهاجر إلى منفي بمجرد أن يرفض العودة ويتحول إلى معارض سياسي أو ساخط على النظام الاجتماعي أو سلطة الدينية، فهو يرى بعبارة اخرى " أن طبيعة المهاجر أو المنفي تتحول حسب العلاقة بالوطن الأم والنظام السياسي فيها "[64]، فهو يتفق مع غيره من الأدباء أو الباحثين الذين يرون أن المنفي أو المهاجر هو ذلك الإنسان الذي دفعته أسباب خارجية إلى مغادرة وطنه، لكن المهاجر هو ذلك الشخص الذي اختار عدم العودة أو المغادرة بدوافع نفسية أو رغبة داخلية. إذن المنفى حالة اقتلاع قسرية مدمرة للفرد وللجماعة، عملية انفصال مادي قسري عن المكان الأول بكل دلالاته و مورثاته، وما تحمله هذه العملية من قلق وضياع فيه، وفقدان الارتكاز إلى

[63] إدوار سعيد صور المثقف: محاضرات ريث سنة 1993م، نقله إلى العربية: غسان غصن، راجعته منى أنيس، دار النهار، بيروت، ط3، 1997م، ص:57-59.

[64] هاتف جنابي، مقدمة في المنفى والمهجر، مؤسسة جذور الثقافية،. 22/05/2022 ، https://www. ahewar. org.

المكان، إنه زلزال مدمر يهز الأعماق ويقتلع الجزور، وربما مع طول الوقت يلغي هذه الجذور تماما يجعل ارتباطها بالوطن الأم ضئيل وهامشي ربما ليس للشخص المنفي ولكن لأبنائه وأحفاده من بعده حيث سيخرجون من هذا اللقب إلى لقب آخر ربما يكون لقب مواطن ولكن سيبقى ينظر إليه كغريب ووافد.

أما المنفى لدى محمود درويش الذي عاش تجربة النفي والمنفى هو حالة من القدرة على التكيف، حيث نراه يجعل من تجربته المريرة انفتاحا على واقع جديد وتجربة جديدة، وثقافة جديدة، هذا من ناحية التكيف فهو يتكيف مع معطيات هذه الحياة الجديدة ويستغلها في إبراز ذاته ونضجه الإنساني وتقبل الآخرين له، وينفتح انفتاحا ثقافيا وحضاريا، إلى جانب القلق والألم الذي يحدثه المنفى.

يقول محمود درويش عن المنفى "المنفى تجربة حياتية عميقة غنية لن يبرأ منها، فالمنفى معلم و مهذب ومثقف، والمنفى أصبح مصطلحا واسعا ووجودها يعلم التسامح وقبول الآخرين والانفتاح على الفضاءات الأخرى، وعلى إغناء هوية الذات بهوية إنسانية، وأنا من الذين لديهم الجرأة على الاعتراف بالجميل للمنفى، ففيه اقتربت فيه من النضج الإنساني والإبداعي، وفيه اكتشفت أن سيرة التاريخ الإنسانية هي سيرة علاقات منفيين وحوار منفيين وسؤال منفيين المشترك عن جوهر وجودهم الإنساني ".[65]

محمود درويش ذلك الشاعر الفلسطيني الذي عاش تجربة المنفى قبل أن يغادر أرضه، حين اقتلع اليهود أصحابها، وبقى في أرضه يعاني الاغتراب الذاتي، وتصادر حقوقه كمواطن فلسطيني كالهوية واللغة والبيئة المحيطة والمؤسسات التعليمية لتفرض عليه الهوية الزرقاء التي تجعله مواطنا إسرائيليا محاربا في كل ما يخص كيانه الخاص وجنسيته، فيشعر بالنفي قبل أن ينفى، ثم يعيش في المنفى، بكل أبعاد المادية والحضارية، وبالرغم من كل ما عاناه، فإنه يرفض الاستسلام والانهزام، بل يظل للمنفى جوانبه الكريمة التي أخرجته من دائرة الهموم الخاصة إلى الهم الإنساني العام والمشترك الذي يعيشه كل مغترب ومبعد، ونلمح في طيات حديثه عن المنفى أن المنفى لديه ليس مكانا فحسب، وليس مصطلحا خاصا بالفلسطيني،

[65] عبد الكريم سلمان أبو خشان، ابن عوليس بين الاغتراب والمنفى الثقافي، الشعراء، المركز الثقافي الفلسطيني، عدد 5-4، رام الله، فلسطين، 1999م، ص 128 .129-

وإنما هو حالة قد يعيشها الإنسان في كل زمان ومكان، ولكن المهم في هذا البحث الدرجة الأولى المنفى الفلسطيني، وبالرغم مما سبق واعتراف درويش بالمنفى، إلا أنه لم ينسلخ عن هم وطنه بالدرجة الأولى.

ومما يوافق هذا تعريف الدكتور يوسف رزقه للمنفى: " المنفى ليس مكانا فحسب، بل هو زمن وإحساس وأحوال يتغلغل في الروح والنفس ومعاناة تتجاوز الجسد إلى ما بعده، وتتجاوز الفرد إلى المجموع، و الحاضر إلى الغائب التاريخي والتراثي وتتخطى الحاضر المشهود إلى المستقبل، المنفى يشف إلى جانب ما تقدم عن حالة من القهر واستيلاء المعتدي على ممتلكات المنفي المادية، وحرمانه من حقوقه في المكان والمواطنة والحرية "[66]

أما نصار إبراهيم فهو يرى أن المنفى إعادة تشكيل وصياغة جديدة لذات الإنسان فهو: " عملية تفاعل مركب من ثلاثية الزمان والمكان والجماعة، بين ما كان وما هو كائن، وما سيكون، مما يضجع التجربة الإبداعية أمام الأسئلة القلقة: القلق الواقع، المستقبل الغامض في الإطار سوسيولوجيا، الجماع المنفية التي تضطر للبحث عن التوازن المفقود عبر إحباطات ومقومات لا تتوقف... المكان يبتعد، والوطن يبتعد كواقع وتفاصيل كأحداث وعلاقات اجتماعية وذاكرة وبنية ليحل محله أو يتجاوز معه واقع ناشئ مرتبك وحائر، لكنه يصر على الاستمرار، على البقاء كأولوية عزيزة الخصوصية، ولكي تبقى وتستمر عليها أن تعيد إنتاج ذاتها كبنية لم تكن أصيلة في البداية، ضمن عملية تكيف موضوعية لتحمي استمرارها ووعيها وثقافتها "[67]، فالمنفي إذن يواجه حالة من الضياع والتمزق في بداية تجربته، ثم يبدأ بالتكيف واستيعاب محنته إلى أن يعيد تشكيل ذاته من جديد، فهي حالة من صراع البقاء وإثبات الذات، وإن ظل صاحبها يعاني الاغتراب، ويرى هنا أن أدباء وشعراء من المنفيين قد اتفقت وجهة نظرهم تجاه المنفى وإن امتاز كل واحد ببعض ما يميز تجربته عن غيره. وإذا كان المنفى لدى محمود درويش تجربة حياتية لا يمكن أن يبرأ منها فإن آثار

[66] يوسف رزقة، المنفى وتجلياته في الشعر الفلسطيني، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، 2003م، ص2.
[67] نصار إبراهيم، مفهوم الوطن والمكان، .http://yafanews. net. 14/12/2021

المنفى ورواسبه في النفس لا تزول ولا تحمى من ذاكرة إدوارد سعيد حيث يقول: " للمنفى شجن دفين لا يمكن التغلب عليه البتة، فهو ينبع من الواقع الأساسي للمنفى من الانفصال والشرخ الذي لا براء منه بين شخص ما ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي الذي لا رجعة فيه، لا معنويا ولا واقعيا، ومهما كانت إنجازات المنفى فيضع ضعها دائما الإحساس بفقدان شيء ما تركه الشخص وراءه إلى الأبد، لكل منفى خصوصيته إلى حد يجعل كلمة منفى نفسها تبدو كأنها محاطة بعدم اكتراث صفيق عندما توضع على رأس قائمة للظروف العديدة التي تجعل من كل شخص منفي شخصا تائما ووحيدا" .[68]

الأثر النفسي ناجم لديه عن حالة الانفصال والقلق التي تعرض لها المنفي حين اقتلع من أرضه، فتبقى حالة الانفصال تلك جرحا غائزا في النفس لا يمكن أن تبرأ منها، مهما تجاوزها المنفي وأحدث التغييرات الإيجابية التي تفرزها تجربة المنفى، حيث يظل دائما في حالة قلق وبحث عن شيء مفقود ضاع منه، ويأمل في العثور عليه، وجعل لكل منفى خصوصيته حسب طبيعة البلد الذي تاهت فيه شخصية المنفي.

"فالمنفى سفر قد يقصر أو يطول، وهو مؤقب لا يدوم، وينتهي بانتهاء الدوافع والأسباب، أو على الأقل يظل المنفي في حالة من عدم الاستقرار والتكيف وطول الانتظار، على أمل عودة تراها نفسه قريبة، والمنفى مكان موحش ليس لأنه كذلك في الأصل أو الواقع وإنما لأنه مكان غريب ولأنه الوافد الجديد " المنفي " غير قادر على التكيف معه خاصة وأنه يعد إقامة فيه مؤقته كما يعده أصحاب البلد النازح إليه زائدا ثقيلا مشاركا إياهم في خيرات هذا البلد، لذلك يظل المنفى غير مفهوم" .[69]

ويشترك المنفي مع المهاجر في خصائص عدة منها: الغربة، الانتماء، الذكريات، شعور العودة والحنين للوطن الأصلي، والقلق والخوف من الواقع الجديد في الغربة ومواجهة مشاكل مماثلة على صعيد الغربة إلا أن المهاجر لا يواجه مشكلة التواصل مع ذويه في مواطنهم الأصلية، ولا يتعرض للملاحقة والاغتيال من

[68] إدوارد سعيد، تأملات في المنفى، الكرمل، معهد دراسات الشرق الأوسط، مجلد 6، عدد 12، مجموعة 1، حيفا، فلسطين، 1984 م، ص 76.

[69] المصدر نفسه، ص 77.

قبل السلطات الحاكمة في بلده الأصلي حيث كانت هجرته بمحض إرادته، ولا يستطيع المنفي أن يبني حياة جديدة على أساس الديمومة والاستقرار مهما طالت فترة اغترابه، لكن الهجرة يجد صاحبها فيها بعض المرونة والاختيار التي لا يتضمنها المنفى" .[70]

ويفهم من هذا أن المنفى يلازمه شعور القهر والتمرد بسبب شعوره الدائم بالإجبار، فالإنسان لا يحب دائما ما يكره عليه من عمل مهما كان بسيطا، وبهذا يختلف عن المهاجر بملأ إرادته، فيبقى المنفي في حالة من الحلم والانتظار وقلق العودة، والذكريات في الماضي فيحدث في تلك النفس الهائمة جرح غائر لا يهدأ ولا يلتئم.

ومن الأسئلة الملحة في المنفى التي في خلد هذا المنفي:"من نحن ؟من أين جئنا ؟من أين جئنا، ما نحن، والإجابة على تلك الأسئلة صعبة المنال في المنفى"[71]، فالمنفى يدخل في دائرة الإنكار والرفض والأسئلة الكثيرة التي لا يجد لها إجابة، ولو أنه خرج عن هذه المشاعر واستسلم لمنفاه واتخذ بلدا بديلا ولم يبال لما ينظر إليه الغير على أنه وافد لعاش حياة مريحة ولكن لا يمكن للإنسان أن يتخلى عن بلد ولد فيه أجداده، وله فيه إخوته وأقاربه وجيرانه، فيظل المنفي منفى حتى لو كانت حسناته أكثر من حسنات الوطن.

ويعترف أيضا عبد الله إبراهيم المنفي بأنه: " هو من أبعد قسرا عن بلده، وهو أيضا من انبتت صلته بعالم ترعرع فيه وعجز عن الانتماء إلى عالم أصبح فيه، وهذه القيمة الإنسانية قيمة الحنين والعذاب والألم والاشتياق، والرغبة الحارقة والعجز، هي المحفز وراء اصطناع المنفيين لأوطانهم التي فارقوها"[72]. الحنين هي الظاهرة الأقوى عدّ شعراء المنفى والكتاب فالحنين هو افتقاد الشيء عاشه الإنسان في يوم ما،

[70] هاتف جنابي، مقدمة في المنفى والمهجر. 22/05/2022، https://www. ahewar. org.

[71] إدوارد سعيد والعيش في هوبتين فضاء المنفى ومفارقة الهوية، 26/09/2023 ، http:/www. hatemalsagr. net.

[72] تماضر إبراهيم، عبد الله إبراهيم أدب المنفى يوتوبيا مفقودة، 26/09/2023 . http://thawra. alwehdagoosy .

وكان الوطن أكبر مما يحتمل فقدانه، وما كان الحديث عن المنفى في الأصل إلا رغبة مكبوتة في استدعاء الوطن" .[73]

أما المنفيون فيعرفهم عبد الله إبراهيم بأنهم: " هم الذين فارقوا أوطانهم ومكثوا طويلا مبعدين عنها فاقتلعوا من جذورهم الأصلية، أخفقوا في مد جذورهم في الأمكنة البديلة فخيم عليهم الحس التراجيدي لمصائرهم الشخصية إذ عطبت أعماقهم فدفعهم الحنين إلى المكان الأول رغبة عارمة في استدعاء الذكريات الممزوجة بالتخيلات، والمنفي هو الإنسان المنشطر بين حال من الحنين الهوسي إلى المكان الأول وعدم القدرة على اتخاذ القرارات بالعودة إليه، مما ينتج عنه إحساس بالشقاء لا يدركه إلا المنفيون"[74]. وبالطبع لا يستطيع المنفي اتخاذ القرار بالعودة لأنه منفي، ونلاحظ أن تعريفات الأدباء للمنفى قد دارت في نفس الدائرة واشتركت في خصائص المنفى، وتميز البعض بخصائص معينة نجمت من شعوره تجاه المنفى والنفي.

يلخص من ذلك الحديث كله إلى أن المنفى مكان بديل ومؤقت وقد يصبح دائما وأبدا، يلجأ إليه المنفي مضطرا ومدفوعا من قبل قوة خارجة عن إرادته ورغبته، ويظل ذلك المنفي في حالة من التمزق والتفتت في كيانه وذاته إلى حين تنتهي تلك الظروف التي دفعته إلى ترك موطنه الأصلي، وحتى من عاد إلى موطنه فإن تلك الفترة من العمر التي قضاها في منفاه مطرودا تظل جرحا غائرا في وجدانه لا يفتأ يتحسسه ويثير آلامه.

المبحث الثالث: أقسام المنفى

يمكن النظر إلى المنفى عبر تصنيفه إلى نوعين رئيسين: منفى داخلي، منفى خارجي، وما يهمنا هو المنفى الخارجي. " فمنه المنفى الإجباري وهو منفى ذو طبيعة مباشرة، يتم من قبل جهة رسمية أو شبه رسمية، بحق مواطن غير مرغوب فيه بسبب نشاطاته الثقافية أو السياسية، لأسباب مختلفة، ومنه المنفى

[73] المصدر نفسه.

[74] تماضر إبراهيم، عبد الله إبراهيم، أدب المنفى، يوتيوبيا مفقودة. 26/09/2023، .http://thawra. alwehdagoosy .

الاختياري الطوعي: كأن يقوم به موطن أو مجموعة مواطنين هربا من وقوع ما هو أسوأ، كالملاحقة والاضطهاد"[75]. على هذه الدلالات النفي فعل يشتمل على العقاب والانتقام وليس الرحمة، والذل والإكراه وليس الاحترام. ويعرف محمود درويش: المنفى الداخلي هو غربة المرء عن مجتمعه وثقافته، وتأمل عميق في الذات، بسبب اختلاف منظوره عن العالم وعن معنى وجوده عن منظور الآخرين، لذلك يشعر بأنه مختلف وغريب ، والمنفى الخارجي : " هو انفصال المرء عن فضاء مرجعي، عن مكانه الأول وعن جغرافيته العاطفية.... هنا يحمل المنفى كل عناصر تكوينه: الطفولة، والمشاهد الطبيعية، الذاكرة، الذكريات، مرجعيات اللغة، دفاعا عن خصوصيته وهويته، ويأخذ التعبير عن حنينه إلى الوطن شكل الصلاة للمقدس، هنا يطور المنفي اختلافه عن الآخرين لأنه يخشى الاندماج والنسيان، ويعيش على الهامش الواسع بين هنا وهناك، يرى أرضه البعيدة هي الصلبة، وأن أرض الآخرين غربية ورخوة " .[76]

إن المنفى الخارجي الذي هو الحقيقي تأثيرها بالإنسان كثيرة عن المنفى الداخلي، لا يرى الإنسان أية قيمة للذين يطردون في أوطانهم كما قال الشاعر محمود درويش في قصيدته " رسالة من المنفى ":

"ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

ما قيمة الإنسان

ما قيمة الإنسان

[75] هاتف جاني، مقدمة في المنفى والمهجر، مؤسسة جذور الثقافية..22/05/2022 ، https://www. ahewar. org.

[76] محمود درويش، عن المنفى، . www. tunisia-cafe`. com 26/09/2023

بلا وطن

بلا علم

ودونما عنوان

ما قيمة الإنسان "

تكررت جملة (ما قيمة الإنسان) أربع مرات، وربط بين الإنسان والوطن ورمزه (العلم) ليصور من خلال التساؤل المتكرر) الذي حمل معنى النفي، أنه لا إنسان بلا وطن، وتداخل الإنسان في الوطن، لأنه إن ضاع الوطن ضاع الإنسان، والعكس الصحيح. [77]

المنفى ليس هو المكان الجغرافي، المنفى هو الأشخاص، والعلاقات والنظام الاجتماعي والثقافي. يمكن لأحدنا أن يعيش في بلد ولد فيه، لكنه يشعر فيه بالغربة، وعدم التآلف والانسجام، لهذا يمكنه الكتابة عن المنفى من داخل الوطن، والعكس صحيح أيضا، يمكنك الكتابة عن الوطن، من داخل المنفى، حيث الذاكرة هي الوطن المنفى، والذي لا يمكن لأحدنا مغادرته بمغادرة الجغرافيا" [78]. وللمنفى أنواع منها المنفى المكاني والسياسي والاجتماعي والذاتي والجسدي ،كل هذه الأنواع يتخصص بنوعها ويختلف حسب شعور المنفيين ،يوافق هذه الأنواع بخصوصية عامة هي الغربة ، المنفى الذاتي هو:"فقد الإنسان لسمة أو أكثر من سمات ذاته وهي التفرد والعقل والحب والنشاط والأخلاق"[79]،والمنفى الاجتماعي هو رحلة الفرد بعيدا عن مجتمعه، تاركا خلفه قيمه وعادته ومعاييره ، فتلك تجربة تلمس الإنسان في عمق ذاته وتحفز تفكريه الشخصي. ويقول بشرى مبارك : أنه عجز الفرد أن يتواصل اجتماعيا مع عادات وتقاليد الثقافية التي يعيشها، فيصبح ميالا للعزلة عن الآخرين، فاقدا للقدرة على إدراك أحداث الحياة بصورة موضوعية شاعرا

[77] محمد السيد السلام، النسيج الفني للمأساة في الشعر الفلسطيني المعاصر قصيدة " رسالة من المنفى "للشاعر محمود درويش أنموذحا، مجلة كلية العربية بذقاقيق، العدد السادس والثلاثون،201 6م، ص 98.

[78] إبراهيم الحجري، الرواية المجهرية والهويات العربية المتصدعة، مجلة الذوات، العدد 25، 2019 م،. ص 10.

79حمادة حسن محمد، الاغتراب عند إيرك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، ج1، 1995م، ، ص .70

بعدم جدوى الحياة"[80]. ومن أنواع المنفى المنفى السياسي هو مفهوم يشير إلى حالة انعزال أو انفصال الأفراد أو الجماعات عن النظام السياسي الحاكم في وطنهم، يكون ذلك عادة نتيجة عدم الرضا على القيادة السياسية، ويمكن أن يكون ناتجا عن أزمات سياسية، انتهاكات لحقوق الإنسان، قمع سياسي أو غيرها من العوامل التي تدفع الأفراد أو الجماعات إلى البحث عن منفى سياسي في بلد آخر، يمكن أن المنفى السياسي نوعا من التعبير عن المعارضة السياسية والسعي على الحرية وحقوق الإنسان، " وهو الانفصال الفرد عن المجتمع، وقيمه وعاداته ومعايره وأحاسيسه بالعزلة، فهي مشكلة تحدث بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان ومجتمعه"[81]. ومنها المنفى الثقافي والحضاري وهو يعبر عن رحلة إنسانية في عالم متنوع، حيث يختار الفرد أحيانا استكشاف ثقافات وحضارات جديدة، وفي أحيان أخرى يجبر على الانفصال عن تراثه الثقافي الأصيل نتيجة لأسباب متنوعة مثل التهميش والأزمات السياسية، تلك التجربة المعقدة تعكس رحلة تطور الهوية والانتماء في عالم متصل ومتعدد الأوجه، حيث يتم التفاعل والتبادل الثقافي لتجارب جديدة تثري الفرد والمجتمع على حد سواء ، الثقافة هي جزء من الحضارة، الثقافة تشكل الإطار الحضاري الذي يشمل نواحي النشاط الإنساني، المنفى الثقافي والحضاري هو "ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، وثقافة المجتمع تتألف من العادات والتقاليد والقيم السائدة في ذلك المجتمع، ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفراده ، حيث نجد الفرد يرفض هذه العناصر ونفر منها ولا يلتزم بها، بل ويفضل كل ما هو غريب وأجنبي عنها"[82] ، ومنها المنفى المكاني هو يستخدم لوصف حالة الأشخاص أو مجموعات منهم الذين تم نفيهم أو طردهم من مناطق معينة، ويمكن أن يحدث هذا النفي نتيجة لأسباب متعددة مثل النزاعات السياسية، أو الدينية، أو الاقتصادية، يتعرض الأفراد المتضررين لفقدان منازلهم وممتلكاتهم ،ويجدون أنفسهم في حاجة ماسة إلى البحث عن مأوى وسبل للبقاء على قيد الحياة في أماكن جديدة.

[80] بشرى عناد مبارك، الاغتراب الاجتماعي وعلاقته بالحاجة، مجلة عالم الفكر، مجلد 10، العدد 1، الكويت، 1979م، ص 32.

[81] أحمد فكري الهنساوي، الاغتراب السياسي وعلاقته بجودة الحياة، مجلة كلية التربية، جامعة بني سويف، 2015م، ص 8.

[82] عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكلوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة، ج1، 2003م، ص 57.

المنفى في المفهوم الفلسطيني:

ونخرج من كل هذا الحديث إلى ما يهمنا منه وهو التعريف لمنفى الفلسطيني الخاص. وفي هذا السياق نفسه يجد الفلسطينيون أنفسهم بعد دفعهم للهجرة من بلادهم بعد اغتصاب فلسطين، وشن حرب صهيونية لإفراغ الوطن الفلسطيني من سكانه العرب، فقد دفع الفلسطينيون إلى الإقامة في مجتمعات الشتات، سواء داخل الوطن العربي أو خارجه، داخل الوطن الفلسطيني بوصفهم " منفيين في داخل " أو كجزء من كيانات دول أخرى أصبحوا بمرور الوقت يقيمون على هامش سكانها الأصليين. يستذكر إدوارد سعيد في كتابه " بعد السماء الأخيرة " مكانته كمنفي بالمعنيين السياسي والثقافي، ويشرح هذا كيف أصبح هو وعائلته منفيين من الوطن:" لقد تبخر من حياتي وحياة الفلسطينيين جميعا ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض، وحتى لو لم يقم أحدهم بإيقافنا على الحدود أو سوقنا إلى مخيمات جديدة أو منعنا من الدخول أو الإقامة أو السفر من مكان إلى آخر، فإن أراضينا يجري احتلالها، ويتدخل الآخرون في حياة كل منا بصورة اعتباطية وتمنع أصواتنا من الوصول إلى بعضنا بعضا، إن هويتنا تقيد وتحبس وتحاصر في جزر صغيرة خائفة ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة الخالصة .[83]

اكتسبت كلمة المنفى في المفهوم الفلسطيني دلالات أعمق وأشمل من الدلالات المعجمية، حيث تتسع دلالات الكلمة وتصبح أكثر خصوصية فهو مفهوم ذا نكهة خاصة موجعة وطعم مر المذاق، فقد تجاوز المنفى الفلسطيني دائرة الزمان والمكان، حيث تجاوز زمنه أكثر من ستين عاما، من التشرد والبعثرة والضياع، وامتدت دائرته المكانية لتتجاوز حدود الوطن العربي، ثم تجاوزت دائرة الحياة البشرية بأكملها

[83] فخري صالح، معنى المنفى من منظور إدوارد سعيد،.14/12/2021 ، https://www. mominoun. com.

فكم من منفي مات وهو يحلم بالعودة ودفن غربيا حزينا منفيا في أرض غير أرضه، وكم من حالم في العودة إلى أرضه قتلت حلمه قنابل الاغتيال والتصفية في منفاه ؟!.

لقد تشكل منفى الفلسطيني إثر نكبة 1948، ولم يكن الفلسطيني يظن عندما رحل عن بلدته الأصلية أنه سيظل يعاني من عذاب الرحيل، كان يظن غيبة لن تطول، حربا وعودة، ولكن على إثر هذه الحرب تم التهجير والنفي الكامل لبلدات بكاملها، رحلت إلى أرجاء الوطن العربي، ثم تجاوزت الوطن العربي لكل أرجاء العالم وأصبح الفلسطيني لاجئا مشردا ثم منفيا.

إن المنفى الفلسطيني هو منفى قسري وإجباري وهو حالة جماعية أكره عليها الفلسطينيون إما أنهم شردوا ولم يستطيعوا العودة منذ بداية الحرب والنكبة، وإما إنهم هربوا من بلادهم بسبب القسوة التي واجهوها من قبل المحتل وبحثوا عن بلاد أرحب فكريا.

المبحث الرابع: أدب المنفى

يذهب أدب المنفى عادة إلى مناطق وفضاءات أصبحت شبه واضحة ومعروفة للقارئ وهي مناطق ومجالات يشغل الأدب فيها بمعالجة موضوعات الغربة والاغتراب ومفهوماتها، ومقاربة أوجاعها وانفجارها في الوجدان الإنساني متنا وجمالا كليهما معا.

قد وجد مضمون أدب المنفى منذ نشأة تاريخ الأدب العربي وكان معاني المنفى متفاوتة في حين، من ذلك ما ازدحم به الشعر الجاهلي من الوقوف على الأطلال في التعبير عن مرارة الغربة وألم البعد. وأدب المنفى قديم في الآداب الإنسانية ويظهر في مفردات الاستبعاد والخروج والهجرة القسرية، وتبدأ تسمية المنفى بهذا الاسم منذ اللحظة التي يبدأ فيها النفي، حيث تكون علامة فاصلة بين حياته الأولى في بلاده حياته الجديدة في بلاد الغير ما يسمى لدينا باسم المنفى، فيبدأ ظهور هذه المفردات في أدب المنفى وتكون دلالة واضحة عليه.

قد كثرت تأثير المنفى على الآداب العالمية المعاصرة، تعجب من كثرة عمليات النقل والهجرة والنزوح والارتحال، الطوعي أو القسري إلى مختلف أجزاء الأرض من الغرب والشرق، والشمال والجنوب من قبل أفراد أو جماعات الثقافية أو عرقية، أو شعوب بأكملها. وقد حدثت هذه الهجرات الجماعية لأسباب سياسية في البعض، واقتصادية في البعض الآخر وكل هذه المحادثات تجري نتيجة من الحملات الاستعمارية في البلاد. قد انتقلت الجيوش المستعمرة إلى البلاد التي غزتها وقمعوا الأموال والأثمار وكل ما لديهم من الشعوب وبذلك قد اضطرت هذه الشعوب المحتلة للهروب من اضطهاد القوى الاستعمارية بحثا عن الرزق والسلامة والمعيشة.

"ولعل الأدب الفلسطيني من بين أكثر الآداب العالمية التي تكونت وتطورت داخله وعلى حوافه بوتقة المنفى فلا يمكن النظر إلى الأدب الفلسطيني إلا بوصفه أدب المنفى والاغتراب ومحاولة للحفاظ على الهوية المهددة" .[84]

إنه صعبة تحديد معنى مناسب لأدب المنفى، يتكون أدب المنفى من الظروف المختلفة والمعقدة التي يتضمن فيها عمليات النزوح والتهجير والشتات والاغتراب والاقتلاع والنفي والمغادرة الطوعي أو الهجرة التي يرغب فيها الحرية وأن تجعل لخير المعيشة، فبينما كانت الهجرة والمغادرة والارتحال فردية في العصور الماضية، أو كانت تضم مجموعات صغيرة هناك نرى عدة من المجتمعات في أنحاء العالم تبتعد طوعا وكرها عن أوطانها الأصلية، "أجبرت بعض المجتمعات ليس مغادرة أوطانهم فقط، ولكن يجبر على التخلي عن لغتهم الأم وثقافتهم الأصلية لتصبح جزءا من الجزء المزاح من المجتمعات والثقافات الجديدة مثل الأفارقة الذين يعيشون في فرنسا، والهند والباكستان الذين يعيشون في بريطانيا. وهؤلاء ينتجون آدابا

[84]فخري صالح، أدب المنفى، مجلة الكلمة الإلكترونية، العدد 10، أكتوبر 2007، لندن، ص 7.

مهجنة لكنهم يتخذون من الفرنسية والإنجليزية لغة يعبرون بها عن أنفسهم، بما يتضمنه ذلك من مصاعب في التعبير عن الذات وانشقاقات في الهوية .[85]

اتصف القرن العشرين بقرن المنفيين بامتياز... لأسباب سياسية، اقتصادية يضطر الأديب الى اللجوء لبلاد أخرى، تسمى منفى، أو بلد مهجر وهجرة، أو دولة لجوء أو شتات، أو عالم مغترب في غربة واغتراب... ليشكل تاليا فقدان مكان ثابت اعتاد عليه مع اختلاف وتباين التجارب... ويكون المنفى بذلك ظاهرة عالمية، تتحول فيه التجربة إلى وعي... ولا ريب أن المنفى يختلف عن مفهوم الهجرة الطوعية. تميز بعض النقاد بين المنفى والاغتراب، حيث لا يمكن للمنفي العودة إلى وطنه حتى لو رغب في ذلك، والثاني هو الاختيار الذي نشأ نتيجة رغبة الإنسان في مغادرة وطنه لأي سبب. إن وجود المنفى والاغتراب في أوجه تشابه تجعل من الصعب التمييز بين المنفي والمهاجر. وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى التجربة الفلسطينية التي تضمنت أنواعا عديدة من الاغتراب القسري والنفي العنيف والترحيل وأحيانا الاغتراب عن الوطن لأن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية دفعت الفلسطينيين إلى خارج الوطن.

إن أدب المنفى – بالمعنى الذي يقدمه الباحث هنا – هو أدب كتبه كتاب منفيون عن " وضعية " المنفى والمنفيين. ومن ثم فإن أدب المنفى ينبغي النظر إليه من خلال عدد من المحددات، من بينها: اللغة المكتوب بها، والتيمة المهيمنة وطرق تمثيلها، والنوع (أو الجنس) الأدبي وجماليته.

وحين يتحدث عن أدب المنفى فيقصد به المنفى الخارجي فقط، حيث يخرج من البحث ما يكتبه المنفي في داخل وطنه، سواء كان المنفى بسبب نفيه من قبل سلطة ظالمة أو بسبب ممارسة هذه السلطة القمع لهؤلاء الفئة مما يضطرهم للهروب منها إلى فضاء أوسع وأرحب يتقبلهم ويتقبل كتاباتهم أو لا يعارضها على الأقل.

[85] المصدر نفسه، ص 2.

والأديب حين ينفي عن بلاده لا ينفصل عن وطنه الأم أو عن جذوره الغارقة في تاريخ وحضارة ومعتقدات ذلك البلد، فمهما طالت غربة المنفي حتى وإن كانت إلى آخر أيام حياته فإنه لا يستطيع تكوين جذور عميقة له في تلك البلاد، إذ يكون الأمر أشبه بنقل نبتة من موطنها الأصلي ومحاولة خلق مناخ جديد تعيش فيه هذه النبتة، وهذا ما يحدث مع منفيينا حيث يحاولون إخضاع المكان ويبدأون في خلق أدب يتناسب مع نفسياتهم الغارقة في الاغتراب، " ولا يعني انفصال الأديب أو المنفي عن بلاده مكانا وزمانا انفصالا عن موطنه الأصلي أو عن جذوره الواقعة في بلاده، الأديب أو المثقف لا يتمكن من تكوين جذور جديدة في تربة المنفى تماثل جذوره المنفية الأصلية الأولى الفارق هو المكان، ولا يفصل هنا الكاتب بين الاغتراب المكاني والاغتراب النفسي فكلاهما عنده سيان، أما من ناحية الوجدان فليس هناك كبير فرق بين اغتراب الأديب والمثقف داخل بلده أو خارجه إذا قسنا هذا بمقياس مستوى الحرية المتوفر وأدوات التعبير الممكنة "[86]. ويصف الأدباء المنفى على أنه أدب معاناة بالدرجة الأولى، فهو نتاج الغربة والحنين للوطن وموقع المنفي بين عالمين القديم وهو الوطن والجديد وهو المنفى وهو بالطبع عالم مرغم على العيش فيه غريب عنه وعن عاداته ولكنه مجبر على التكيف معه.

فيصف عبد الله إبراهيم أدب المنفى بأنه: " مزيج من الاغتراب والنفور المركب، كونه نتاج الانتماء المزدوج إلى هويتين، أو أكثر ثم في الوقت نفسه عدم الانتماء إلى أي من ذلك بل إنه يستند في رؤيته الكلية إلى فكرة تخريب الهوية الواحدة والمطلقة، وبصفته تلك فهو أدب عابر للحدود الثقافية، والجغرافية، والتاريخية.... "[87]. يبقى الأديب أدبا مغتربا، لذا لا يمكن الحديث عن المنفى دون الحديث عن الوطن بل إن الوطن يمكن في طيات المنفى، وهو من أسباب كتاباته، فالمنفى يذكر لاستدعاء الوطن، ولولا إحساس الأديب أو الشاعر بوجود مشكلة لما تمت الكتابة، فالحديث عن المنفى يستدعي أن نتحدث عن الوطن،

[86] علي عبد العال، أدب الخارج ثقافة عراقية أم ثقافة أجنبية، وطني، مراجعات علي عبد العال: 13/12/2021 ، www. watanee. com/defaul. .

[87] تماضر إبراهيم، عبد الله إبراهيم أدب المنفى، يوتوبيا مفقودة 26/09/2023..http://thawra. alwehdagoosy .

لأن الوطن هو المطلوب والمراد وليس المنفى، ويظهر فيه كما سبق القول مفردات الاغتراب والمعاناة والحنين والتشرد.

وينقسم محمود درويش أدباء المنفى لثلاثة أقسام، الأول: " هناك أدباء اختاروا المنفى لتكون المسافة بينهم ماضيهم مرآة لرؤية أوضح لأنفسهم و أمكنتهم "[88]. ويبدو من هذا التعريف أن هؤلاء أشبه بالفلاسفة والمفكرين في تفكيرهم حيث استغلوا هذا النفي للتفكر في أنفسهم و أمكنتهم، وبالتالي التعامل مع مستقبلهم على حسب رؤيتهم لأنفسهم في وضعها ومكانها الجديد.

الثاني: " وهناك أدباء اختاروا المنفى اللغوي بحثا عن حضور أكبر في ثقافات اللغات الأكثر انتشارا أو للانتقام من السيد بلغته السائدة "[89]. والمنفى اللغوي هو أن يتخذ الأديب لغة المنفى لغة لكتاباته بدلا من لغته الأم وهذا ما يجعل كتاباته أكثر انتشارا في العالم مما لو كتب بلغته الأصلية، عن طريق اللغة الأخرى يستطيع أن يوصل قضية بلده إلى مدى بعيد، حيث تتجاوز اللغات وتتجاوز الثقافات الأخرى، وإما أن يكون عالما بلغة السيد وهو السلطة التي كانت السبب في ظلمه ونفيه فيستغل هذه اللغة في الانتقام منه وكشفه. والنوع الثالث من الأدباء:" أدباء لم يجدوا مكانا أفضل من المنفى للدمج بين غربتهم الذاتية وغربة الإنسان المعاصر، فاخترعوا المنفى للتعبير عن الضياع البشري، واقنعونا أيضا بأن أدب المنفى عابر للحدود الثقافية "[90]. ولكن ليس كل المنفيين أدباء، فلا يمكن أن ننسى البؤس والكوارث التي يتعرض لها جميع المنفيين واللاجئين والمهاجرين والمشردين والذين حرموا من حق العودة لبلادهم وحرموا من حق المواطنة في البلاد الأخرى، فهم على الهامش يخفيهم المستقبل بينما يبتعد عنهم الماضي فيعيشون فقط الحاضر بما يقدمه لهم.

[88] محمود درويش، عن المنفى، تونيزيا كافيه .www. tunisia-cafe. com. 14/12/2021

[89] المصدر نفسه.

[90]، المصدر نفسه.

الباب الثاني: تطور الرواية الفلسطينية: دراسة عامة

الفصل الأول: الرواية العربية الفلسطينية

الفصل الثاني: دور ربعي المدهون في تطوير الرواية الفلسطينية

الفصل الثالث: أشهر الروائيين الفلسطينيين

الباب الثاني: تطور الرواية الفلسطينية: دراسة عامة

الفصل الأول: الرواية العربية الفلسطينية:

الرواية العربية الفلسطينية تمثل جزءا هاما من التراث الأدبي العربي والأدب العالمي، تأتي هذه الرواية من قلب الفلسطين وتعبر عن تجارب ومشاعر الشعب الفلسطيني وتاريخه الطويل والمعقد، تنعكس هذه الرواية مختلف جوانب الحياة في فلسطين، بدءا من الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وصولا إلى القضايا الثقافية والفنية والإنسانية. تاريخ الرواية الفلسطينية يعود إلى العصور القديمة، ولكنها ازدادت أهمية وتأثيرا في القرن العشرين، خاصة بعد نكبة عام 1948م وتشريد الفلسطينيين، بدأ الكتاب الفلسطينيون في استخدام الرواية كوسيلة للتعبير عن معاناتهم وذاكرتهم ومطالبهم.

يجب علينا أولا أن نتعرف على مفهوم الرواية وتعريفها قبل أن نفهم نشأة الرواية العربية الفلسطينية وتطورها، حيث أن كلمة " الروية " مشتقة من كلمة " ري " والتي تدل على إشباع الظمأ ورب الأرض لترتوي وتحقيق الخير ونمو الجيد فيما بعد، يمكن أن نربط هذا المفهوم بعلم الحديث النبوي الشريف، حيث كان الحديث عن طريق السرد شائعا وكان يستخدم لنقل قصص وأحداث من حياة رسول الله ﷺ وكان هؤلاء الرواة يخبرون بهذه الروايات للآخرين، ثم تطور مفهوم اطار كلمة " الرواية "حينما بدأ الأدباء في استخدامها كمصطلح أدبي، وكانت تستخدم ككلمة مرادفة للقصة من وجهة نظرهم، وتشير عادة إلى القصص الطويلة التي تتضمن تفاصيل معقدة، الرواية أصبحت فنا جديدا الذي في الأدب العربي ودخلت إلى ثقافته من خلال تأثير الأدب الغربي، يشير تاريخ الرواية العربية بوضوح إلى أن هذا الفن هو فن مستحدث في الثقافة العربية، وكانت إدخالها إلى الأدب العربي من خلال عمليات الترجمة.

" وقد ترجمت المقامات في بداية القرن الثامن عشر في أوروبا في باريس ولندن وهذا يدل على أن الرواية الأوروبية قد تأثرت بطريقة أو بأخرى بالموروث الأدبي العربي، وما كان للرواية العربية أن تحقق ذلك لولا

أنها استطاعت التخلص من هيمنة الأشكال القصصية القديمة التي كانت شائعة في الثقافة العربية قبل الاتصال بالغرب" [91]. وكان للمقامات تأثير واضح في الروايات المترجمة والمؤلفة، من الناحيتين الشكلية والأسلوبية، فخضعت لغة الرواية للسجع، و كثرة المترادفات، والمفردات الصعبة، وكان لألف ليلة وليلة تأثير واضح في المضمون، فظهرت ملامح بطل القصص في نص الرواية.

"لقد تأخر ظهور الفن الروائي في فلسطين بسبب الاضطرابات التي حلت بها منذ وقوعها تحت الانتداب البريطاني، وعدم اهتمام النقاد بالجهود الروائية التي ظهرت، وعلى الرغم من تأخر ظهور الفن الروائي والأسباب التي أدت إلى تخلفه فإن نهضة أدبية حدثت في فلسطين وخصوصا في مجال الشعر والترجمة" [92] إنّ الرواية العربية الفلسطينية قد نالت قبولا حسنا في مجال أدب العربي، انتشرت شهرتها في أنحاء العالم، وحققت حضورا عالميا حيث ترجمت روايات كثيرة إلى عدة لغات الأجنبية، لا شك في أن الرواية الفلسطينية تتميز عن باقي الروايات العربية في العالم العربي من حيث مواضيعها وأساليبها وسردياتها ومعالجتها عن تاريخ الفلسطينية.

وتعد البداية الحقيقية للرواية العربية الفلسطينية بعد النكبة، بعد أن استفاد بعض الكتاب من التجارب الغربية والعربية السابقة، وتمثلها، واستطاعوا صياغة الواقع فنيا، إذ " أصبح الهم الوطني يحتل مساحات الصفحات كلها التي تطمح إلى التعبير عن تجربة الاقتلاع والنفي.. إلا أن مجمل الإنتاج الأدبي الذي أفرزته تلك المرحلة، ظل موسوما بالحدة الانفعالية التي تجللها حالة من الحزن، ويطفو عليه إيقاع الحنين الرومانسي إلى مكان المفقود، والإصرار المباشر الشعاري، على العودة إلى الأرض "[93].

لم تكن الطباعة في الوطن العربي فعلا ثوريا يكسر احتكار الثقافة التي كانت وقفا على أبناء الفئات الميسورة فحسب، بل كان في الوقت نفسه إيذانا بظهور فن تثقيفي جديد لم يعرفه العرب من قبل، أي:

---

[91] محمد وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002 م، ص 11-12.

[92] أيوب محمد، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة وقطاع غزة، اتحاد الكتاب الفلسطيني، 1997م، ص 13.

[93] وادي فاروق: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، الأسوار للطباعة والنشر، 1985 م، ص 34.

إنّ الصحافة لعبت دورا مهما على المستويين السياسي والثقافي خلال أشد مراحل التاريخ العربي الحديث اضطرابا، فعلى المستوى السياسي بنت جسرا معرفيا بين العربي وواقع أمته السياسي، وعلى المستوى الثقافي تمكنت أن تعرفه بالفنون الأدبية الجديدة.

وقد بدأت الرواية الفلسطينية، منذ بداية الستينيات، تنحو منحى واقعيا واضحا، إذ أدت عوامل كثيرة متضافرة إلى تبلور هذا الاتجاه لدى الكثير من الكتاب، ونذكر من تلك العوامل، سيادة بعض الأفكار والمفاهيم الجديدة، ونمو حركات التحرر في العالم الثالث، وانطلاقة حركة الفلسطيني عام 1965، مما أدى إلى سيادة الاتجاه الواقعي على مجمل النتاج الروائي .[94]

لقد بدأت الرواية زحفها لتحتل مكانة عالية في الأدبي الفلسطيني منذ بداية ستينيات، حتى صارت هذا الفن من النوع الأدبي الأبرز مع نهاية القرن العشرين، وقد احتضنت الصحافة العربية، الصادرة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، البذور الأولى لفن القصة القصيرة والرواية، الذين تعرف القارئ العربي إليهما عن طريق الترجمة من آثار الغرب الأدبية، ومع أن تلك الترجمات كانت تعاني، ولا سيما في المرحلة الأولى منها، مجموعة من العيوب والأخطاء، إلا أنها سرعان ما لقيت قبولا وانتشارا واسعين بين جماهير القراء. نشئت الرواية العربية الفلسطينية في أقطار الوطن العربي الأخرى، في أحضان الصحافة، وعبر الترجمة التي كانت مزدهرة إلى حد كبير في ذلك الجزء من الجغرافية العربية، وكان الغزو الأجنبي على سكان فلسطين وتشريدهم ومقاومتهم موضوعا مهما الذي عولج في رواية الفلسطينية.

وقد حظيت الحياة الثقافية في فلسطين بمجموعة من الأعمال الروائية المتقدمة مثل خليل بيدس في روايته " الوارث " وكلها موضوعة مؤلفة، وهذا يدل على أن مرحلة الترجمة السابقة مهدت الطريق لبداية

[94] المصدر نفسه، ص 34.

الوضع والتأليف في هذا الفن، وقد شغلت السياسة حيزا واضحا داخل بنية الرواية فظهر الصراع على الأرض ولكنه لم يأخذ المساحة الفنية التي تساوي أهميته وحجمه على أرض الواقع .[95]

وعلى الرغم من أن ترجمات خليل بيدس، الذي يعد من أوائل الرواد في هذا المجال، لم تكن وفية للنصوص الروائية كما هي في الأصل، فإنها نهضت بمهمة الكشف المبّكرعن الدور الذي يؤدّيه فنّ الرواية في الحياة والمجتمع، وتجدر الإشارة هنا إلى جهود: أحمد شاكر الكرمي، وجميل البحري، ونجاتي صدقي، التي اتسمت جميعا كترجمات بيدس، بتصرّف أصحابها"النصوص المترجمة على هواهم، بالزيادة والنقصان، والحذف والتغيير، وأحيانا إدخال الأبيات الشعرية[96]، وبحفاوتهم الواضحة برواية المغامرات العاطفية والبوليسية خاصة.

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مؤرخ الأدب الفلسطيني الحديث حول أول رواية عربية فلسطينية موضوعة، أي أنّ رواية يوحنا دكرت:"(ظلم الوالدين:) (1920) هي " أول رواية عربية فلسطينية " [97]، أو أن رواية خليل بيدس:" الوارث " (1920) هي " أول رواية فلسطينية أيّا كان الخلاف حول مستواها الفنّي [98]، فإنّ هاتين الروايتين لم تكون الوحيدتين اللتين صدرتا سنة 1920، بل ثمّة رواية ثالثة اسكندر الخوري بعنوان:"الحياة بعد الموت"، وتلك الروايات الثلاث لم يتيسّر لأحد من الدارسين الاطلاع عليها سوى ما علق بذاكرة قرّائها الأوائل، ولا خوف من أن الذاكرة وحدها لا تكفي لتأكيد أفضلية إحداها على الأخرى، مستوى من الناحية الزمنية والفنية.

وعامة، فإنّ المحاولات الروائية التي صدرت بين عامي 1920م و 1943م، التي لم تلق خطتها من الدرس النقدي، بسبب عدم توفرها في المكتبة العربية من جهة، وبسبب عدم وجود كتابات نقية عنها في مرحلة

---

[95] أيوب محمد، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة وقطاع غزة، اتحاد الكتاب الفلسطيني، 1997م، ص 15.

[96]أبو مطر، د. أحمد. " الرواية في الأدب الفلسطيني "، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م، ص 27.

[97]ياغي، عبد الرحمن، " في الأدب الفلسطيني الحديث قبل النكبة وبعدها "، شركة كاظمة، الكويت، ط1 ، 1983 م، ص 63،

[98] أبو مطر، أحمد " الرواية في الأدب الفلسطيني "، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م، ص 49.

صدورها أو ما بعدها من جهة ثانية وباستثناء رواية محمد عزة دروزة:"الملاك والسمسار"الصادرة سنة 1934م، "تصف وسائل الصهيونية لإغراء الفلاّحين الفلسطينيين، الملاّك منهم، لبيع أراضيهم للمنظمات الصهيونية [99]"، فإنّ الدراسات التي تناولت بواكير النتاج الروائي الفلسطيني اكتفت بالإشارة إلى عناوين تلك المحاولات، وإلى أسماء مؤلفيها، وسنيّ صدورها من غير أن تتعرض لموضوعاتها، أو لمستواها الفني.

وتشكل "مذكرات دجاجة" (1943)، للدكتور إسحق موسى الحسيني، منعطفا مهما في تاريخ الرواية الفلسطينية، حسب فاروق وادي، بوصفها " النص الروائي الوحيد، من أعمال تلك المرحلة، الذي حقق رواجا استثنائيا وقت صدوره " [100]، ولعل من أبرز سمات هذه الرواية هي معالجتها، بطريقة رمزية، للواقع الفلسطيني في المرحلة التي شهدت فيها البلاد تدفق الهجرات الصهيونية، فهي تسرد يوميات دجاجة تتعرض، مع أترابها، بعد موت مالكها الجديد لمتاعب كثيرة، تبدأ الرواية برؤية وجه غريب يقترب من الملجأ الذي يعيشون فيه، ثم يختفي بعد أن تلحق به الدجاجة التي تروي المذكرات، وهي تردد: " لا أطيق أن أرى غريبا في هذه الديار "، وتشتد المتاعب أكثر صبيحة اليوم التالي، عندما يقتحم المأوى كائن عملاق في وجهه شر مروع، ثم تفجأ الدجاجة و أترابها بحركة غير مألوفة فإذا بمخلوقات غريبة تحتل مجالسهن في المأوى: " ففزعت وصحت: من هنا ؟ فردت علي أنثى قائلة: لا تجزعي أيتها الأخت، نحن مخلوقات مثلكم حملنا إلى هذا المأوى "، وأمام ذلك الخطر الداهم تجتمع الدجاجة بأترابها فيتخذ الجميع قرارا بمقاومة الدخلاء، باستثناء الدجاجة العاقلة جدا، كما وصفها طه حسين في مقدمة الرواية، التي ترفض قرار المقاومة بدعوى أنه " لا يحل الخلاف ولا يلتئم مع المثل العليا ".

[99] المصدر نفسه، ص 51.

[100] وادي فاروق، " ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية "،: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، الأسوار للطباعة والنشر، 1985 م، ص 55.

ومهما يكن صحيحا أن الحسيني " لجأ.. إلى هذا الأسلوب لعدم تمكنه من إيضاح الحقائق التي يعيشها وطنه " [101]، والأصح أن تصريحات دجاجه لم تكن تمثل أي تنظيم أو جماعة أو فئة، في الأربعينات التي كانت تشهد في مقاومة الصهيونية في أرض فلسطين.

على نحو يجعلها، في مجملها، مجموعة نظريات تظهر من خلالها الدجاجة «فلسفية، تدرس الشؤون الاجتماعية بعمق كبير وتتأمل الآراء»، من دون أن تنجح في إدارة الأخطار التي تواجهها ورفاقها. تمثل المذكرات وعيا واسع النطاق بالمرحلة التاريخية التي ترصدها، بالإضافة إلى ذلك، فإنها تعاني من التراخي في بنائها، ليس بسبب افتقارها إلى بنية ترفع المذكرات عن مجال السرد إلى مجال الفن، ولكن أيضا بسبب إصرارهم على جوانب النظرية الروحية للحياة الإنسان. بعد رواية الحسيني، شهدت السنوات التي ما قبل النكبة صدور ثلاث روايات فلسطينية، وفي عام 1964م، نشر محمد العدناني رواية بعنوان "في السرير"، عرض فيها لمسيرة المرض الذي لازم صدره لمدة عشر سنوات، ولعل من أهم ما يميز هذه الرواية أنها امتلأت بالمصادفات والمفردات الغربية واخترعت أبيات شعرية تناسب الحدث، ثم غلبت المعلومات التي كانت تشغل الكاتب عن الاهتمام بالبناء الفنّي لعمله، الذي يمكن وصفه بأنّه مذكّرات شخصيّة أكثر منه رواية.

وفي سنة 1947 أصدر اسكندر الخوري رواية بعنوان: "في الصميم"، عالج فيها موضوعا أثيرا لدى جماهير القرّاء في تلك المرحلة، وقد اتّسمت تلك الرواية بعدم تمكّن كاتبها من تحرير نصّه من الإطار التقليديّ الذي تناول تلك الموضوعات، بالإضافة إلى استرساله في الحديث عن عاطفة الحبّ، ليس بين الشابّ والفتاة فحسب، بل بين عدد من الشخصيات التاريخيّة المعروفة أيضا، وفي استرساله في النقّل عن كتب

[101] أبو مطر، أحمد. " الرواية في الأدب الفلسطين ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م، ص 43.

علم الاجتماع، وفي الاتّكاء على أقوال عدد من المشاهير، دون أيّ مسوّغ فنّي، ولذلك كلّه بدا عمله " بحثا له ملامح روائية، وليس رواية فنيّة خالصة " [102]

وفي سنة نفسها صدر للمؤرّخ عارف العارف رواية بعنوان: " مرقص العميان " عرض فيها لسيرة شابّ كفيف استطاع على الرّغم مما كان يضطرم في حياته من شدائد ومشاق أن يحقق عددا كبيرا من النجاحات، وأن يتغلب على عاهته الخلقية، وعلى الرغم من أن الرواية حملت بعضا من خصائص التجارب التي سبقتها، فإنها أنجزت " تقدما نسبيا في مجال تحقيق بلورة واضحة للبناء الفني في الرواية "، إذ استطاع الروائي تحرير محكيها من النوافل السردية من جهة، كما تمكن من تشديد بناء روائي له خصائصه المميزة من جهة ثانية.

وبتوضيح الروايات السابقة، وغيرها التي صدرت قبل النكبة، يمكن القول إن المشهد الروائي الفلسطيني حتى عام 1947م، لم يكن سوى محاولات سردية متناثرة لم تتمكن من تشكيل إرث وجذر تنطلق منه الرواية الفلسطينية، بسبب عدم قدرة كتابها على الإمساك بأدوات الكتابة الروائية، وبسبب قضايا وطنهم ومحاولة اليهود لإبعاد الفلسطينيين عن أرضهم وتدمير حقائق وجودهم التاريخي على هذه الأرض.

في التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة 1947، و بضغط من الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية، أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارا بتقسيم فلسطين إلى دولتين:عربية ويهودية، ولم تمض ستة أشهر على ذلك القرار حتى تم الإعلان عن قيام دولة " إسرائيل" على أرض فلسطين، وعلى الرغم من فورة جيوش الإنقاذ العربية والحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك، فإن الشعب الفلسطيني وجد نفسه في مواجهة قرارين: التقسيم وإعلان الدولة، تمكنا لمنظمات الصهيونية من متابعة ابتلاعها للأرض الفلسطينية، وغطيا في الوقت نفسه جرائمها الوحشية التي كانت تمارسها ضد سكان هذه الأرض.

[102] المصدر نفسه، ص 42.

أما على المستوى الثقافي فقد " أدت ظروف النكبة وما أعقبها من تشتت الشعب العربي الفلسطيني وكتابه خارج أرض وطنهم... إلى ضياع المكتبة الفلسطينية بشقيها العامّ والخاصّ "[103]، إذ تعرّضت المكتبات العامّة لعبث المستوطنين الصهاينة الذين قاموا بسرقة الثمين من تلك المكتبات، وأتلفت سلطات الاحتلال ما رأت أنّه يتضادّ لإدّعاءاتها"التاريخية"في أرض فلسطين، ونهبت المكتبات الخاصّة للفلسطينيين الذين نزحوا عن بيوتهم إثر النكبة.

وعلى الرغم من صواب ما انتهى غسّان كنفاني إليه من أنّ البنية الاجتماعية للعرب الفلسطينيين الذين لم يغادروا أرضهم رغم ظروف الاحتلال مارست دورا في تحول الحركة الثقافية الفلسطينية في المرحلة التي تلت النكبة، لأنّ أكثر "من ثلاثة أرباع من مئتين ألف عربي الذين بقوا يومذاك.. كانوا من سكّان القرى[104] "، فإنّ ذلك لم يكن وحده ما يعلّل حال العطالة التي اتسمت بها تلك الحركة آنذاك، ومن أبرز العوامل المؤثرة في هذا المجال:مواجهات الفلسطينيين الدائمة مع العصابات الصهيونية التي كانت تحاول سلب أراضيهم بالقوّة أحيانا، وبالإغراء والدّهاء أحيانا أخرى، ثمّ قسوة الواقع التي عاناها المثقّف الفلسطيني، داخل الأرض المحتلّة وخارجها، والتي أتت، أو كادت تأتي، على أيّ رغبة لديه في الإنتاج الثقافي.

رواية جبرا إبراهيم جبرا الأولى "صراخ في ليل طويل" (1955)، تعتبر منعطفا واضحا في تاريخ الأدب العربي، إذ يمكن تصنيفها كأول رواية فلسطينية بسبب استيفائها لشروط الفن الروائي وإتقانها لموضوعها بعناية فائقة. تميزت هذه الرواية بمقاربة فنية متقدمة، وليس من الصحيح أن تندرج ضمن الاتجاه السائد في روايات الروائيين العربيين الفلسطينيين، فهي تنقل قصتها بأسلوب يعبر عن ذوات خاصة مشغولة بمسائل ذاتية، لا يمكن لأي عمل فني أن يبقى صامتا تجاه البيئية التاريخية والسياسية التي نشأ فيها. وفيما تعلق بالموضوع الفلسطيني، يجب أن يكون النص مكملا للحاضر والماضي معا، وبهذا، وهو ما يؤكد أن الماضي

[103] أبو مطر، أحمد. " الرواية في الأدب الفلسطين " . المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م، ص 48.

[104] غسآن كنفاني. " أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966"، دار منشورات رومال، 2015م، ص 9.

الذي تقف ضده شخصيات الرواية المتمردة هو ماضي فلسطين، مقنعا بماضي هذه الشخصيات التي يشيرون إليها في علاقتها بهذا الماضي نفسه". أن هذه الرواية هي أول رواية عربية فلسطينية تتوافر لها شروط الجنس الروائي بالمعنى الذي أسسه التقاليد الغربية للكتابة الروائية، وتميز هذه الرواية بسمات تحريرها وسردياتها، وقد تجاوزت هذه الرواية هذه السمات إلى بنية سردية تعبر عن المفهوم غير الخطي للزمن، واستفادت بشكل متقن من ضمير المتكلم الذي يعبر عن وعي الروائي بالشخصيات وأعماقها النفسية، هذا الضمير يتيح للروائي التعبير بشكل يسمح بأن يكون محتوى الرواية ليس خاصا بالبطل فقط بل يمكن أن يكون ذلك ذات أهمية للآخرين أيضا.

وفيما بين رواية جبرا السابقة وبداية الكفاح المسلح شهدت الحركة الثقافية الفلسطينية تحولا واضحا في النتاج الروائي على المستوى الكمي، وكان من أبرز سمات ذلك النتاج أن عددا غير قليل منه كتبه روائيون يقيمون داخل الأرض المحتلة، لكنه ظل أسير للحصار المفروض على الكتاب من قبل سلطات الاحتلال على الكتاب العربي، ولذلك لم يتيسر لأحد، خارج فلسطين، الوصول إليه، ورغم وجود دراسات كتبت حوله، فإنها هي الأخرى لم تستطع القفز فوق الحواجز لتمكن الباحث من الوقوف على موضوعاته، أو مستواه الفني.

وظهرت على الساحة الأدبية، بعض الأعمال الروائية ذات الصبغة الواقعية، التي تناولت القضية المصيرية بعمق ورؤية واعية متأنية، وبتقنية فنية متطورة، كما هو الأمر في روايات غسان كنفاني، وباستثناء رواية غسان كنفاني الأولى"رجال في الشمس"(1963)فإن النتاج الروائي الفلسطيني الذي كتبه فلسطينيون يقيمون في الشتات لم يكن يعكس تطور أدوات الرواية الفلسطينية السّابقة لانطلاقة الكفاح المسلّح، ويشير في الوقت نفسه إلى تخلّف الكثير منه عن قضية الصّراع مع مغتصبي الأرض، وإلى حفاوته بقضايا اجتماعيّة منبتة الصلة بالواقع الفلسطيني ومثيراته السياسيّة والاقتصادية، ثمّ إلى غلبة الاتجاه الرّومانسي عليه. ورواية عوني مصطفى:"شقاء إلى الأبد"(1962)، على سبيل المثال، تتحدّث عن رجل فقير

يتعلّق بامرأة لعوب، تدفعه إلى طلاق زوجته والارتباط بها اتّقاء للفضيحة و طمعا بالمال الذي تملكه، ثمّ يتزوّجها من جديد ليعقد صفقة غير أخلاقية مع مدير الشركة التي يعمل فيها، إلى أن ينتهي الأمر بالكثير من هذه الشخصيات إلى الانتحار، دون أن يكون ثمة بناء فنيّ يحاول تحرير تلك الحكاية من كونها حكاية إلى كونها أدبا يوفّر لنفسه أبسط عناصر الفنّ الروائي. تستأثر الرواية العربية الفلسطينية، الصادرة بعد النكبة التي وقعت عام 1948 م خاصة، بموقع مميّز بين مجمل النتاج الروائي العربي، ليس بسبب توجه أكثرها إلى قضية الصراع مع مغتصبي الأرض الفلسطينية فحسب، بل بسبب كفاءتها أيضا في إعادة إنتاج هذا الصراع بأدوات فنية متقدمة جماليا، وقلما تبدو حاضرة في الرواية العربية المعنية بالصراع نفسه، على تعدد أقطار الأخيرة، اختلاف اتجاهاتها الفنية، وتنوع رؤاها.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن الادعاء بأن هذه الرواية تشكل جغرافية إبداعية مستقلة بنفسها عن فضاء الرواية العربية، إلا أن هناك خصائص تميزها من مكونات هذا الفضاء. ومن أبرز تلك الخصائص إصرار مبدعيها على قضية محددة من قضايا الصراع، أي "الوطن"، وإلى حد تكاد تبدو معه سجلا تاما ودقيقا للمراحل المختلفة التي مر بها نضال الفلسطيني من أجل تمسك بأرضه قبل النكبة، ومن أجل استعادة هذه الأرض بعدها.

الفصل الثاني: دور ربعي المدهون في تطوير الرواية الفلسطينية

ربعي المدهون معجون بحب الوطن ومشروب مرارة المنفى ومنعزل عن أهله ووطنه، استخدم مهارته وأفكاره وتأليفه لتنمية وتطور شعب الفلسطيني ولعب دورا مهما في تطوير رواية الفلسطينية، ويظهر دور ربعي المدهون الفعلي في تطوير رواية الفلسطينية فيما يأتي:

اهتمام بأدب العودة:

أدب العودة هو مصطلح يستخدم لوصف التيار الأدبي الذي يتناول موضوع العودة إلى وطن الشخص بعد فترة من الغربة أو التشرد، يمكن أن يشمل هذا المصطلح مجموعة متنوعة من الأعمال الأدبية التي تتناول تجارب العودة والانتماء والهوية بشكل عام، أدب العودة الفلسطينية هو تيار أدبي ينعكس تجربة اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة إلى وطنهم الأصلي، يتعامل هذا الأدب مع الحنين إلى فلسطين والذاكرة الوطنية والتراث الثقافي، تأسست أدب العودة الفلسطينية على وجه الخصوص بعد نكبة عام 1948م، عندما تم تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين من منازلهم وأراضيهم، يحمل هذا الأدب رسالة قوية حول حق اللاجئين في العودة إلى فلسطين واستعادة ممتلكاتهم وهويتهم.

اهتم ربعي المدهون في كل ما كتب لمعالجة الموضوع عن أدب العودة أو أدب العائدين، من الذين رجعوا بعد أوسلو في تسعينات القرن الماضي، وبدايات هذا القرن، وكان ربعي المدهون من المنفيين وذاق مرارة المنفى منذ طفولته من داخل الوطن والخارج، واضطر للهجرة من وطنه إلى بلاد مختلفة، وهذه التجربة الحقيقة التي تجرب من حياته قد انعكست في مؤلفاته، ولذا أنه اهتم بقضية العائدين الذين رجعوا من المنفى ورغبوا الإقامة في وطنهم.

سرديات النكبة ومقارنة التاريخ:

بعد ضياع فلسطين باحتلال الصهيونية، وإعلان قيام دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية عام 1948م بمساعدة القوى الغربية ، تعرض السكان الأصليون لسلسلة من عمليات الإبادة الجماعية وعمليات الإخلاء والطرد والتهجير القسري، ولم تكتف الحكومة الصهيونية "الإرهابية "بطرد الفلسطينيين بل قاموا أيضا بقتلهم وسلب أراضيهم بشكل منظم ؛ راحوا بكل قوة وإصرار لتنفيذ خطة الاستيطان و استبدال شعب بشعب آخر ، فدمروا القرى وأحرقوا المنازل وجرفوا البساتين والحقول في محاولة لمحو واستئصال تاريخ شعب بشكل كامل، وتطهيره من بصمات الوجود الفلسطيني.

استطاع ربعي المدهون إعادة قراءة المشهد الفلسطيني اليوم في ظل التحولات والتطورات البنيوية والفكرية والاجتماعية والسياسية، التي انبثقت من الصراع العربي /الإسرائيلي منذ أكثر من ستين عاما خلت، يعود ربعي المدهون إلى تاريخ النكبة 1948م، ويناقش السرديات العربية واليهودية المتناقضة في ما بينها، ويطرح الأسئلة المحرجة التي لم تطرح للنقاش من قبل، رابطا بين تاريخ النكبة وتاريخ الهولوكوست، وبين مصائر الفلسطينيين ومصائر اليهود كشرط ضروري لفهم تاريخ الصراع بين الشعبين، وخطوة أولية لبناء هوية هجينة بديلة تترجم صور التقارب والتفاهم والتضايف، وإقامة دولة ديمقراطية حقيقية يسودها الأمن والسلام والتعايش، وتحكمها الروح الإنسانية النبيلة، والاعتراف بالحق الراسخ لمطلب عودة اللاجئين.

قضية الفلسطين:

القضية الفلسطينية: " هي أعادت تعريف نفسها تحت وهج النار والمعاناة والاستعداد لتحمل كلفة المواجهة بالعودة إلى الجذور، أصول الصراع العربي -الإسرائيلي، فلا هي قضية لاجئين كما نظر إليها إثر النكبة مباشرة، ولا هي قضية الفلسطينيين وحدهم، فهي قضية عربية بالأساس وقضية إنسانية في

المضمون، ثم أنها في أول الأمر وآخره قضية تحرر وطني لشعب يتعرض لأبشع صور التمييز العنصري أي تنكر جديد لتعريف القضية الفلسطينية إجهاض حقيقي للتضحيات الهائلة التي تبذل الآن في ميادين المواجهة "[105]

يناقش ربعي المدهون في أعماله عن قضية الفلسطينية والمشكلات التي يواجهها الفلسطينيون من قبل اليهود وأسباب قضية الفلسطينية، لجلب نظر العالم إلى أحوال الفلسطينيين وتحليل مشاكلهم واستقلال وطنهم من قيود الاحتلال اليهود وتحقيق أحلامهم ، وكانت الهجرة اليهود إلى فلسطين والاستيطان فيها سببا لبداية قضية الفلسطينية، واستوحى ربعي المدهون من هذه القضية وتصور صورة القضية المؤلمة للشعب الفلسطيني في رواياته، و تتنوع الخطابات في رواياته لتطرح قضية الفلسطينيين، وهذه القضية استرجاع الهوية والعودة إلى الوطن.

الرواية التجريبية:

"التجريب أحد مظاهر الحداثة، وهو مظهر يتجاوز الكاتب فيه الأشكال السائدة ويتجه نحو اختراع أشكال جديدة، أو التوليف بين أشكال قديمة وأخرى مستحدثة، ولم يتفق النقاد على وضع تحديدات نهائية لمفهوم التجريب الروائي، حيث تعددت مفردات ومصطلحاته، فنجدها تتمحور حول: المحاولة، التجريد، التجاوز، كسر المألوف، قامت الرواية التجريبية على استغلال تقنيات الشعور واللاشعور، و انثيال الوعي، وإلغاء عنصري الزمان والمكان " .[106]

بدأ التجريب في الرواية خلال القرن العشرين، حيث ظهرت أعمال روائية لروائيين من بلدان مختلفة غربية وعربية، بحثا عن تقنيات جديدة لإنتاج رواية مختلفة للرواية التقليدية، لذلك خرجوا عن المألوف، وتجاوز المحظور، وابتكروا في أعمالهم، وقد نجحوا في تأكيد على القارئ من خلال جعله يفكر بالطريقة

[105] عبد الله السناوي، إعادة تعريف القضية الفلسطينية، 25/06/2022 .https://www. shorouknews. com

[106] سوسن رجب، الرواية التجريبية، 12/11/2021، https://pulpit. alwatanvoice. com.

التي كتبت بها قبل فهمها، وقد كان للروائيين الفلسطينيين جهد في هذا التطور الحاصل للرواية، بتجاربهم المختلفة التي تهدف إلى تعلق الرواية الفلسطينية بالرواية العالمية، نحدد بالذكر الروائي ربعي المدهون الذي تجسد في رواياته بعض تقنيات وملامح الرواية التجريبية.

التعبيرعن الثقافة والهوية:

الروايات تنعكس الثقافة والهوية الوطنية والشخصية للكتاب، يمكن أن تساعد في نقل تجارب مجتمعات مختلفة وتعزيز التفاهم الثقافي بين الأفراد. التعبير عن الثقافة والهوية هو عملية أو وسيلة تسمح للأفراد والمجتمعات بالتعبير عن مكوناتهم الثقافية وهويتهم الفريدة. وكان ربعي المدهون من المثقفين الذين استخدموا جهودهم لتنمية شعب فلسطين واضطروا للهجرة من وطنهم، وأصبحوا غير مواطنين في وطنهم، ولذلك، حاول ربعي المدهون لتعظيم ثقافة الفلسطين وتجسيد هويتها من خلال رواياته ، نجده يعظم العادات والتقاليد والفنون واللغة والقيم والمعتقدات التي تعبر عن مجتمع الفلسطيني، ويفتخر ربعي المدهون بهويته، وإن كان يحمل الجنسية البريطانية وقد ذكر هذا في روايته "السيدة من تل أبيب" تعيد السؤال إلي مداعية، فأعطيها إجابة تقريرية: " أنا فلسطيني أحمل الجنسية البريطانية .[107]

"يعد ربعي المدهون أحد مؤسسي الرواية الجديدة في فلسطين التي لا تستقر على شكل واحد، بل تبحث دائما عن سبلها التعبيرية في العمل الجاد على اللغة"[108]، إن الزمن في الرواية التقليدية يحافظ على خطيته كما هو في الواقع فيحدث التناغم بين زمن القصة وزمن الحكاية، فإن الرواية الجديدة قد خلقت سبلا لكسر تلك الخطية وذلك التوالي في الصيرورة الزمنية فاندمج الحاضر في الماضي والماضي في الحاضر كما اندمج ربعي المدهون في رواياته.

[107] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ص 93.

[108] وردة دغفل، التجريب الروائي في رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة لربعي المدهون، جامعة محمد بوضياف، ط1، 2019م، ص 77.

الفصل الثالث: أشهر الروائيين الفلسطينيين

تكاد جميع المصادر تتفق على أن الرواية العربية الفلسطينية وصلت إلى مرحلة النضج بفضل جهود كتاب مشهورين مثل يد جبرا إبراهيم جبرا (1920م - 1994م)، وإميل حبيبي(1921م - 1996م)، وغسان كنفاني (1936م - 1972م)، وهؤلاء الثلاثة كانوا مرتبطين عضويا ببعضهم البعض، وقد لعبوا دورا مهما في دعم وترسيخ أسس الرواية العربية الفلسطينية، وقد اتبع أثرهم الروائيون الذين جاءوا بعدهم ومن أهمهم مريد البرغوثي وسحر الخليفة، وقد قدم كل منهم مساهمات مهمة لتطور رواية الفلسطينية، وكانت أعمالهم تتناول قضايا الهوية الفلسطينية مثل التهجير والمنفى وحق العودة والتشتت والحرمان من الطفولة والوطن، وترجمت أعمالهم إلى عدة لغات. هنا يبحث الباحث نظرة عامة عن الروائيين المشهورين الذين ذكروا أعلاه.

غسان كنفاني:

هو واحد من أبرز الأدباء والكتاب الفلسطينيين وأحد الشخصيات الأدبية الهامة في العالم العربي والشرق الأوسط، كتب غسان كنفاني بشكل رئيسي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وكان له تأثير كبير على الأدب العربي والحركة الوطنية الفلسطينية، يعتبر مؤلفاته جزءا لا يتجزأ من تراث الأدب الفلسطيني والعربي.

وهو رائد في أدب المقاومة الفلسطينية، وكان يتحلى بمكانة عالية بمهارته الفائقة وقدرته العالية على التعبير، رغم إنتاجه المحدود ووفاته المبكرة، حرص على التعبير عن نضال الشعب الفلسطيني و مقاومته للمحتل، مما أدى إلى اغتياله على يد عملاء الموساد في بيروت. اشتهر غسان كنفاني في مجال متنوع؛ كالروائي والقاص والمسرحي والصحافي والسياسي، وهو صاحب مشروع فكري وفلسفي يضع فكرة حق عودة الفلسطينيين ويبنى مشروعه حسب هذه الفكرة ؛الإنسان، قضية الوطن، المنفى والمقاومة.

ذاق غسان كنفاني طعم تجربة النكبة التي وقعت 1948م والنكسة التي وقعت 1967م، وتجرب النكبة بكل معاناتها وعذابها منذ التهجير القسري، حيث كان طفلا، وانتقل من بلد إلى بلد آخر لطلب الملجأ والمعيشة، وهذه الكارثة التي شهد غسان كنفاني انعكست في رواياته وكتبه ولد غسان كنفاني في مدينة عكا عام 1936 م، وعاش في مدينة يافا، ولكن لم يمدد حياته في يافا بسبب الاحتلال من جهة الصهيوني، كان ذلك في سنة 1948م، ولذا أجبر للخروج من فلسطين إلى الملجأ الآخر، ثم يقيم مع عائلته في جنوب لبنان، ومن ثم انتقلت عائلته إلى دمشق، وكانت الحياة هناك مليئة بالصعوبات والمشكلات، إذ كان والده يعمل في مهنة المحاماة، وقد اختار أن في قضايا كان معظمها وطنية التي تتعلق بالثورات التي كانت تجري في ذلك الوقت، وقد اعتقل عدة بسبب معاملاته السياسية والاجتماعية. درس غسان كنفاني العلوم الابتدائي من روضة السيد وديع الواقعة في مدينة يافا، وتعلم منها الفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى اللغة العربية، ثم انتقل إلى مدرسة الفرير، وقد مكث فيها حتى سنة 1948م، وبعدها أكمل المرحلة الإعدادية من تعليمه في مدرسة بدمشق تعرف بالكلية العلمية الوطنية، ثم انتقل منها مباشرة لمدرسة ثانوية الوطنية، وبعدها التحق بكلية الآداب في الجامعة السورية عام 1954م.

عمل غسان كنفاني في مجال النضال الوطني منذ شبابه، عمل مدرسا للتربية الفنية في مدارس وكالة الغوث للاجئين الفلسطينيين في دمشق، ثم ذهب بعدها إلى الكويت عام 1965م، حيث كان معلما في قسم الرياضة والرسم في مدارس الكويت الرسمية، خلال هذه الفترة عمل أيضا في مجال الصحافة، وفي هذه الفترة بدأ إنتاجه الأدبي وإبداعه، ثم انتقل إلى مدينة بيروت عام 1960م، حيث عمل محررا أدبيا في جريدة الحرية الأسبوعية، ثم أصبح رئيس تحرير في هذه الجريدة عام 1963م، وعمل أيضا في جريدة " الحوادث، والأنوار"، حتى عام 1969م، أسس بعدها صحيفة باسم " الهدف "، وكان رئيس تحريرها لمدة قليلة.

كان غسان كنفاني نموذجا مثاليا في مجال الأدبية، وقد اشتهر في مجال مختلفة من الأدب الروائي والقاص والناقد والكاتب، فقد كان مبدعا معروفا في كتاباته، كما كان مبدعا في نضاله وحياته، إن غسان كنفاني

كان رائدا وسبّاقا في الرواية الفلسطينية في رسم صورة الفلسطيني الباقي في وطنه، صحيح أن "عائد إلى حيفا" من بدايات الكتابة الكنفانية، وهي لا تمثل إبداعات كنفاني الروائية التي أحدثت نقلة فنية مميزة في هندسة الرواية العربية عامة، وفي كتابة رواية ناضجة فكريا بخصوصية فلسطينية، لكنها حملت جرأة كنفاني في تسليط الضوء على إسقاطات النكبة على الفلسطيني الباقي في وطنه ووضعه في خريطة الرواية العربية عامة ".[109]

وقد حصل على جائزة بعنوان أصدقاء الكتاب في لبنان عام 1966م لروايته "ما تبقى لكم"، والتي اعتبرت من أفضل رواياته في ذلك الوقت، كما نال جائزة منظمة الصحافيين العالمية عام 1974م، وحصل على جائزة اللوتس في عام 1975م، والتي منحه اتحاد كتاب أفريقيا وآسيا. وفي عام 1972م انتقل إلى رحمة الله كشهيد من سبب انفجار عبوة ناسفة في سيارته وضعتها جهة معينة بهدف اغتياله.

ومن أهم أعمال غسان كنفاني:

عائد إلى حيفا (1970)، رجال في الشمس(1963) ، أرض البرتقال الحزين(1963) ، أم سعيد (1969)، عن الرجال والبنادق، القميص المسروق، العاشق، ما تبقى لكم ، عالم ليس لنا، الشيء الأخر.

جبرا إبراهيم جبرا :

وهو من أحد أبرز الروائيين من فلسطين، وهو رسام وناقد أيضا، فلسطيني من أصل السريان الأرثوذكس ولد في بيت لحم في عهد الانتداب البريطاني عام 1919م وتوفي سنة عام 1994م ودفن في بغداد، يوسف وعيسى من الإخوة وسوسن من الأخت ،. تزوج من السيدة لمياء جعفر العسكري، وله ولدان: صدر وياسر، نشأ جبرا في بيت لحم وانتقل مع عائلته إلى القدس،

[109] سمير حاج، باق في حيفا أو متروك فيها.. مقاربة بين إميل حبيبي وغسان كنفاني،02/09/2022، https://www. alquds. co. uk.

نال جبرا إبراهيم جبرا شهرة واسعة في العالم العربي، وترجمت أعماله إلى عدة لغات، فقد عرف بمعرفته الواسعة بالثقافات الغربية، فقام بالدمج بينها وبين ثقافته الشرقية في رواياته، لقد تمكن من دراسة الأدب الإنجليزي منذ سن مبكرة، واستخدم التقنيات والأساليب الغربية الحديثة في كتاباته، درس اللغة الإنجليزية في أحسن الجامعات الإنجليزية التي وصلها بفضل تميزه ونجاحه في مدرسته، أوفد في بعثة تعليمية هناك 1939م، ونال شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي، وتمكن له هذه الدراسة قدرة ومهارة لترجمة الكتب من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية وكتابة باللغة الإنجليزية أيضا، وكتب روايتين باللغة الإنجليزية:"صراخ في ليل طويل 1946م"التي أعاد كتابتها باللغة العربية سنة 1955م، ورواية "صيادون في شارع ضيق" 1960م. "عمد جبرا إلى توظيف تقنيات رواية تيار الوعي، والتناص، والإحالات إلى الكتب المقدسة، وخاصة الإنجيل، فضلا عن توظيف الأساطير والموسيقي مستفيدا من ثقافته التي اكتسبها من الغرب مباشرة، وابتعد عن أسلوب الخطابة الذي كان متبعا سواء في الشعر أو في القصة والرواية، حتى بات في عين بعض الباحثين من رواد الحداثة في القصة والرواية العربية عامة.

يرى الباحث فيصل دراج: "أن الرواية لم تظهر في شكلها الحديث إلا مع صدور رواية "صراخ في ليل طويل " التي كتبها في القدس سنة 1946م، ويضيف أن هذا العمل أعطى جبرا الشاب عملا متميزا، بالمعايير الفنية جميعها، لا يزال يحتفظ بتميزه إلى اليوم ويعتبر الباحث الشكري عزيز الماضي جبرا، بفضل هذه الرواية "رائد الرواية الحديثة في فلسطين والأردن " .[110]

تنوع إنتاجه الأدبي بين الروايات والشعر والقصص والنقد وترجمة بعض المسرحيات إلى اللغة العربية. كتب وترجم ما يزيد عن سبعين رواية وكتابا، وكما ترجمت أعماله أكثر من اثنتي عشرة لغة، درس في القدس وانكلترا وأمريكا، ثم قام بالتدريس في جامعات العراقية قي قسم الأدب الإنجليزي، وهناك كان على اتصال وثيق بالمثقفين والأدباء وأقام علاقات قوية مع شخصيات أدبية بارزة مثل بدر شاكر السياب وعبد

[110] رياض كامل، الرواية الفلسطينية - مرحلة النضوج، https://www. diwanalarab. com. 15/08/2021

الرحمن بياتي، يعتبر جبرا من أكثر الأدباء العرب إنتاجا وتنوعا، حيث تناول الرواية والشعر والنقد والترجمة كما خدم كمدير في مؤسسات النشر، وعرف في بعض الأوساط الفلسطينية بلقب "أبي سدير"الذي استخدمه في كثير من مقالاته.

عرّف جبرا إبراهيم جبرا للقارئ العربي عن الأدباء المشهورين في الغرب كما عرّف نظرياتهم الحديثة، ولعل ترجماته لوليم شكسبير من أهم الترجمات العربية، كما تعد ترجماته لعيون الأدب الغربي، مثل نقله لرواية "الصخب والعنف"للمؤلفة الأمريكي التي نال عنها وليم فوكنر جائزة نوبل للآداب. يمكن لأعمال جبرا إبراهيم جبرا الروائية أن تقدم صورة قوية ومحوية للتعبير عن عمق وجه مأساة شعبه، وهو يقدم بطريقته التي لا ترى أي عيب أو نقص رؤية تأتي من عيون الإنسان، وهو واعي وقادر على فهم روح شعبه كما يمكن أن يفهم عن أحوال العالم.

قد تعرض مناقشة مختلفة عن مؤلفات جبرا إبراهيم جبرا، واتهم بعض من النقاد أن الشخصيات في مؤلفات جبرا تتباعد عن القضية المركزية واعتمد جبرا على توظيف شخصيات مثقفة في أعماله، في حين أن معظم الشعب الفلسطيني من العمال والفلاحين، وبينما دافع آخرون عن موقف جبرا، موضحين وجهة نظرهم، بأن أبطال حبرا المثقفين قد ضحوا بحياتهم في سبيل مجتمعهم، ولكن من المؤكد أن جبرا كان على علم بهذه الحقائق وكان يصر على توظيف الشخصيات المثقفة، معتقدا أن الثقافة لا تقل أهمية عن دور المحارب بالسلاح، إن لم يكن أكثر أهمية، مهما قيل عن روايات جبرا إبراهيم جبرا إلا أن الحقيقة التي تقبل الجدل فيها أنه كان من أوائل كتاب الرواية في عصر الحديث، ومن أحد أهم الأدباء في تاريخ الأدب الفلسطيني الحديث، وأنه شغل المتعلمين والباحثين بالبحث والاجتهاد والاستكشاف، وذلك بفضل كثرة عطائه وتنوعه.

ومن أهم أعمال جبرا إبراهيم جبرا:

البحث عن وليد مسعود(1985م):رواية تتحدث عن واقع الفرد الفلسطيني الذي تدور برأسه الكثير من الأسئلة حول الوطن، البئر الأولى (1987م): وفيها يناقش الكاتب عن سيرته بشكل قصصي، صيادون في شارع ضيق(1960م):ويعالج فيها عن قضية الإنسان في المجتمع وعلاقاته مع الفرد، السفينة (1970م):يناقش الكاتب عن موضوع مختلفة مثل الموت والمرض والخيبة.

إميل حبيبي:

وهو من أحد أبرز روائيين من فلسطين، وقد اشتهر في مجال الكتابة والصحافة والسياسة، ولد في حيفا عام 1921م، وذهب طلبا للمعيشة في الناصرة عام 1956 م، وبقي فيها حتى وفاته عام 1996م، وكان قد ترك وصية قبل وفاته، طالبا فيها بأن يدفن في حيفا، وأن تكتب على قبره هذه الكلمات "باق في حيفا "، درس إميل حبيبي في مدرسة المعارف في حيفا، ثم في مدرسة الثانوية بعكا، حيث حصل على الشهادة الرسمية بالمراسلة مع المعهد البريطاني في الهندسة البترولية، وأكمل دراسته بالمطالعة، ثم اتجه لدراسة الماركسية. وقد كان فاضلا ومحبا لوطنه ومواطنيه كما يحب حيفا التي كانت مسقط رأسه، وكانت بلدية حيفا وافقت تسمية الدوار تتقاطع فيها أربعة شوارع في حيفا باسم إميل حبيبي، وقد جاهد على حفظ تراث الثقافة العربية في داخل الوطن وساهم في صيانة اللغة العربية السليمة، وكافح عن تفوق وسلطنة اللغة العبرية.

قدم جبرا رصيدا هائلا في مجالات الأدب المختلفة من خلال اغترابه في العراق، بينما بقي إميل حبيبي بعد النكبة في الوطن يكافح من داخل الوطن، حارب لليهود بكتابته وفكرته، واجه التحولات والمشكلات والقضايا الوطنية التي وقعت في فلسطين، قام في وطن الآباء والأجداد، وتجرب إثر تهجير غالبية سكان البلاد العرب الأصليين، من أكثرية مطلقة إلى أقلية داخل دولة تتبني الفكر الصهيوني، هو منعزل عن شعبه

وعن أهله المهجرين خارج الوطن، ويعيش تحت قوانين مجحفة وصادمة لا تسمح له بزيارة الأهل والأقرباء والأصدقاء، حتى في داخل الوطن، إلا بإذن من الحاكم العسكري، وقد صودرت أرضه مصدر عيشه الأهم، وبدأ جوله عن طلب الرزق والمعيشة في المستوطنات التي أقيمت حديثا، أو تلك التي أقيمت على أراضي القرى العربية، هذه الحادثة المؤلمة تأثرت في نفس إميل حبيبي وعبر عنها من خلال سردياته المتنوعة بدءا من قصة قصيرة بعنوان "بوابة مندلبوم"(1954 م)، وهي مستوحاة من قصة حقيقية ثم تابع إميل حبيبي رحلته الأدبية التي كانت "ستة أيام "(1968م)، ثم روايته الشهيرة "الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل "، (1974م)التي اعتمد فيها على الأسلوب من السخرية والمفارقة لتصوير هذه الحادثة المؤلمة وكشف حالة الضياع التي يعيشها العربي في ظل دولة تسلب حق الفلسطيني في العيش بكرامة وتزييف هويته وتراثه وشعره وأدبه، هذ الرواية الفلسطينية مبنية من الواقع الحقيق، " تحمل هذه الرواية بالذات رؤية الكاتب إميل حبيبي المستمدة من واقع مأساوي عبر عنه بطل الرواية عبر مفارقة ساخرة سوداوية ترى أن بقاءه فوق أرضه هو بحد ذاته معجزة، وتزداد مأساة الإنسان العربي الباقي هنا قتامة وهويرى ذاته المصادرة فلا يملك حق التقرير في أي أمر، فقدت الشوارع والحارات أسماءها، وزالت قرى كاملة عن وجه الأرض، ونبتت بدلها مستوطنات أخرى غريبة في شكلها وفي مواصفتها وفي أسمائها، وكان على حبيبي أن يتصدى، في كل ما كتب، لهذا الواقع الهجين بأسلوب فني هجين ولغة ساخرة " .[111]

انظم إميل حبيبي إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني عام 1940م، وكان أحد مؤسسي "عصبة التحرر الوطني الفلسطيني "عام 1943م، كما كان رئيس لنادي الشعب المثقفين السياسيين في حيفا، وقد خالف في بعض النظريات للحزب الشيوعي، ولذلك استقال من جميع المناصب الحزبية التي شغلها، ولكن بقي عضوا في الحزب الشيوعي، حتى عام 1991م، وكان قد انضم إليه وهو في الرابعة عشر من عمره ، أصدر مجلة أدبية

[111] رياض كامل، الرواية الفلسطينية - مرحلة النضوج، 23/09/ 2022، https://www. diwanalarab. com.

شهرية بالاسم "مشارف" من رام الله وحيفا في العام الأخير من حياته، وتعد مجلة "مشارف" من أبرز المجلات في الثقافة العربية، وأنشأ أيضا دار "عربسك "للنشر في حيفا.

عمل إميل حبيبي مذيعا في القسم العربي لمحطة الإذاعة الفلسطينية في القدس عام (1942م- م1943)، ومحررا في أسبوعية "مهماز عام (1946م) وعمل رئيس التحرير في جريدة الاتحاد الناطقة بلسان الحزب الشيوعي عام (1972م - 1989م)، وكان يكتب فيها باسم مستعار بلقب "جهينه"، حاز إميل حبيبي على جوائز متعددة، روايته المشهور هي "المتشائل"التي ضمنت من أفضل مائة رواية عربية، وقد ترجمت إلى خمسة عشر لغة، ونشرت مقالاته على صفحات عديدة من الصحف العربية مثل الشرق الأوسط، الأهالي المصرية، اليوم، السابع، القدس العربي، وشارك شتى من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية، ووصفه عام1991م ب"الكاتب الأهم في العالم العربي " من قبل مجلة "المجلة "التي تصدر من لندن.

ومن أهم أعماله ومؤلفاته:

صدر له كثير من القصص القصيرة والروايات والكتب منها:بوابمندلبوم (قصة قصيرة، 1954م)، وقدر الدنيا(قصة قصيرة، 1962)، والنورية(قصة قصيرة، 1963م)، ومرثية السلطعون(قصة قصيرة 1967م)، وسداسية الأيام الستة (رواية، 1969م)، والوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل(رواية مشهورة، 1974م)، وكفرقاسم -المجزرة والسياسة (1976م)، ولكع بن لكع (مسرحية، 1980م)، وثلاث جلسات أمام صندوق العجب (1980م)، وإخطية(رواية، 1985م)، و خرافية سرايا بنت الغول (1991م)، وأم الروبابيكيا(1992م)ونحو عالم بلا أقفاص رسالة ومقالات سياسية(1993م)، وسراج الغولة(رواية، 2006م)، ونشرت مجموعة أعماله الأدبية في سبعة أجزاء عن دار عرسبك للنشر في حيفا، وترجمت أعماله إلى لغات عدة مثل الروسية والإنكليزية والألمانية والفرنسية والعبرية، كما كتبت العديد من الدراسات والأبحاث عن إنتاجه الأدبي.

سحر خليفة:

" تعد سحر خليفة واحدة من أهم الأصوات النسائية الفلسطينية التي استطاعت أن تعبر عن القضية ، وتصور بأدق التفاصيل الكثير من تاريخ القضية الفلسطينية وتغيراتها، بدأت ذلك منذ روايتها الأولى "لم نعد جواري لكم " عام 1974م، ورواية "صورة وأيقونة وعهد قديم "التي قدمت فيها تاريخا روائيا لمدينة القدس القديمة ومعالمها الإسلامية والمسيحية قبل أن تطمس على أيدي قوات الاحتلال الصهيوني قبل هزيمة يونيو 1967م " [112]. ولد سحر خليفة في الخامس عشر من كانون الثاني عام 1941م، وكان ترتيبها البنت الرابعة من ثماني بنات، غير أن الأب كان يحس نفسه أبتر لأنه لم ينجب ذكرا يحمل اسمه، في حين تشعر الأم بالحزن والخيبة لأنها لم تلد له ولدا يحمل اسم العائلة ويرث الممتلكات، وبعد هذه المعاناة يولد أخيرا ذكرا يخرجهم من الحزن إلى الجو الفرح والحفاوة والتكريم، وهنا تشعر " سحر خليفة" بالتميز الحاد بين الإناث والذكور، لتظهر بشكل نمطي وتبرز في كل رواياتها تسلط الرجل على المرأة. أما عائلة "سحر خليفة" فكانت مقيمة في مدينة نابلس بفلسطين من عائلة غنية، أبوها رجل ثري يمتلك مكانة متميزة بين الناس، يعيش في قصر جميل في حي بليبوس في الجبل الشمالي من مدينة نابلس.

وقد عرفت سحر خليفة بأنها فتاة متمردة في العائلة، ذات صوت جميل فكانت ترقص وتغني في مجتمع ينظر إلى هذا النوع من الفتيات بنوع من الحساسية، فأثرت القلق في العائلة كما كانت تنعت بالوقحة، فوضعت في مدرسة داخلية في القدس، تحت إشراف راهبات لكنهن فشلن في إصلاحها، ثم عندما تكبر وتصبح فتاة " تدخل سحر في حب مراهق مع ابن الجيران وتكتشف بأن الحب ليس وقاحة كما ينعته الأهل والناس، فلم يجد الأهل حلا سوى الخلاص من هذه المصيبة، عن طريق تزويجها بعد أن أنهت دراستها الثانوية، غادرت مع زوجها إلى ليبيا وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياتها " .[113]

[112] إبراهيم عادل، القضية الفلسطينية،23/2/2022، https://www. ida2at. com.

[113] وائل علي فالح الصمادي، صورة المرأة في روايات سحر خليفة، عمان، 2010م، ص 20.

بعد زواج سحر خليفة اكتشفت أن زوجها سكير ومقامر، وكان يغار منها لدرجة أنه قطع كتبها وكان يمنعها من القرائة، وكانت تتعرض للضرب عندما يدخل في قمار خاسر، ومع كل تلك المعاناة من الزواج التعيس، إلا أنه لم يحبط كيانها فهي لم تستسلم للواقع التعيس الذي تعيشه، بل كانت تستغل وقتها في الرسم والتعلم وتعلمت الطباعة، وفي أثناء زواجها أنجبت بنتين أسمتها لينا ونوار، وعملت في إحدى الشركات وعندما ألمت مبلغا من المال رجعت إلى نابلس لتستقر هناك، ثم طلقت زوجها الذي دام ثلاث عشرة سنة معها لأنها العصمة كانت بيدها، وعند عودتها إلى نابلس، وفي هذه الأثناء نشرت روايتها الأولى "لم نعد جوري لكم "، بدار المعارف في مصر سنة 1974م، وقد قابلت العائلة طلاقها بالرفض التام لأنه يعد نوعا من العار في المجتمع الشرقي، ولكنها أصرت على موقفها وسكنت في قبور منزل والدها مع ابنتيها ثم وسعت عملها لتفتح روضة أطفال، فلم تحتج بذلك أي مساعدة، كما قالت في سيرتها:" بأن هناك ثلاث أحداث رئيسية غيرت نظرتها إلى الحياة، بحيث مكنتها تلك الأحداث من تفهم موقف أمها بشكل صحيح الأول: حادث السيارة الذي تعرض له أخوها الوحيد وهو في سن السادسة عشر، مما أدى إلى إصابته بالشلل التام، فأدى ذلك إلى إحباط الأم ويأسها من الحياة، والثاني: ترك الوالد المنزل وزواجه من فتاة شقراء صغيرة، والثالث: هزيمة حزيران عام 1967م، واحتلال إسرائيل لما تبقى من أرض فلسطين ."[114]

فكل تلك العوامل كان لها أثر كبير على حياة سحر خليفة، بحيث انخرطت في دوائر اليسار الفلسطيني، وقد عانت سحر خليفة من الاحتلال الصهيوني، فكانت تعيش هموم الآلاف من المشردين والمهاجرين من أراضيهم، كل ذلك أثر على نفسيتها وكان لها وقع شديد على مسار أعمالها.

[114] وائل علي فالح الصمادي، صورة المرأة في روايات سحر خليفة، عمان، 2010م، ص 21.

أعمالها البارزة:

لم نعد جواري لكم (1975)، الصبار (1978)، عباد الشمس (1980)، مذكرات امرأة غير واقعية (1988)، باب الساحة (1991)، الميراث (1998)صورة وأيقونة وعهد قديم (2002)، ربيع حار -رحلة الصبر والصبار(2004)، أصل وفصل(2009).

مريد البرغوثي:

وهو من أبرز الروائيين في فلسطين، وهو من أشهر المناضلين الفلسطينيين الذين اتخذوا من القلم سلاحا، أطلقوا بواسطته الشعر والنثر من أجل وطنهم المحتل وخدمة لأشعبه وقضيته، انعكست في أعماله شؤون الوطن والمنفى، وكافح ضد استعمار اليهود وأعداء الوطن في سبيل الكتابة، وكان هذا السبيل له تأثير عظيم، واشتهر مريد البرغوثي في الرواية والشعر والكتابة، ولد عام 1944م في قرية قرب رام الله، اسمها "دير غسانة" في الضفة الغربية في فلسطين، وبدأ الدراسة من مدارس رام الله حتى المرحلة الثانوية وامتلأت حياته بالمأساة والمشكلات التي كما يواجه غيره من شعب الفلسطينيين الذين اضطروا للهجرة من وطنهم وعاشوا في المنفى، وقد انعكست هذه التجربات بشكل كامل في أعماله الأدبية، وهاجر مريد البرغوثي من فلسطين إلى مصر، والتحق بالجامعة القاهرة عام 1963م، ودرس منها الأدب الإنجليزي وتخرج منها عام 1967، تزوج مريد البرغوثي رضوى عاشور التي كانت روائية وناقدة وراحلة مشهورة، وهي أستاذة في جامعة عين الشمس وتوفيت عام 2014م، وأنجبا ابنا واحدا هو تميم البرغوثي الذي من أحد أشهر الشعراء العرب، ورحل إلى عدة دول العالمية، ولم يتمكن من العودة إلى وطنه إلا بعد أكثر من 30 عام من التهجير، وأخيرا عاد إلى رام الله عام 1996م بعد أن عاش في المنفى لمدة طويلة، لكن كانت عائلته استمرت في العيش منفصلة، كان له حزن شديد لعزله مع العائلة، وكانت حياته في فلسطين غير مرضية وذكر هذا في روايته *رأيت رام الله* "الاحتلال الطويل خلق منا أجيالا علها أن تحب الحبيب المجهول، النائي، العسير،

المحاط بالحراسة، وبالأسوار، والرؤوس النووية، وبالرعب الأملس"[115] توفي مريد البرغوثي في فبراير من عام 2021م، كان عمره 76.

اشتهر مريد البرغوثي في مجال النثر كما اشتهر أيضا في مجال الشعر، روايته الأولى " رأيت رام الله "، وهذه الرواية كتبها عام 1997م، وهي رواية مشهورة في العالم ويعالج فيها عن سيرة ذاتية له، ويناقش محاولته للعودة إلى وطنه، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية وقد حازت الرواية على جائزة "نجيب محفوظ للإبداع الأدبي " عام 1997م، أما الرواية الثانية فهي تعتبر جزءا ثانيا من روايته الأولى، كتبه عام 2009م تحت عنوان "ولدت هنا، ولدت هنا"، يناقش الكاتب في هذه الرواية عن تجربته وأهله وعن اصطحابه له لرؤية وطنه الأم فلسطين، وترجمت الرواية إلى اللغة الإنجليزية ، ومن أكثر الأقوال المؤثرة التي ذكرها في هذه الرواية هو " أكثر ما يفزعني هو أن نعتاد على الموت، وكأنه حصة وحيدة أو نتيجة محتومة[116] "، لابد من أن يكون هناك قدر من ذكر السياسة في مؤلفات البرغوثي، ولكنه لن يقدمها على شكل التجريد أو دوافع الأيديولوجية، كل ما يقدم البرغوثي في كتبه استيحاء من السياسة الفلسطينية، وينعكس صورة حياة شعب الفلسطين من كتبه، واهتم في كتبه مشكلة هوية الفلسطينيين الذين يواجهون مشكلات متعددة وقيود تتعلق بالإقامة والمغادرة بالنسبة لأغلب شعوب الأرض الذين هو مواطنون يحملون جوازات سفر ويستطيعون السفر بحرية دون التفكير في هويتهم طوال الوقت، تعتبر مسألة السفر والإقامة أمرا مفروغا منه، في أنها مسألة محفوفة بتوتر كبير بالنسبة للفلسطينيين عديمي الجنسية، وهكذا، وعلى الرغم من البهجة ولحظات النشوة التي يحملها هذا النص، فإنه في جوهره يثير المنفى وليس العودة.

يقول إدوارد سعيد عن مريد البرغوثي وكتابه:"إن عظمة وقوة وطزاجة كتاب مريد البرغوثي تكمن في أنه يسجل بشكل دقيق موجع هذا المزيج العاطفي كملا، وفي قدرته على أن يمنح وضوحا وصفاء لدوامة من

[115] مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي بيروت، ط 4، 2011م،، ص 75.

[116] من هو مريد البرغوثي،https://www. arageek. com. 15/02/2022

الأحاسيس والأفكار التي تسيطر على المرء في مثل هذه الحالات...إن كتابة البرغوثي، وبشكل مدهش حقا، كتابة تخلو من المرارة فهو لا يلقي خطبا تحريضة رنانة ضد الإسرائيليين لما فعلوه، ولا يحط من شأن القيادة الفلسطينية جراء الترتيبات الفاصحة التي وافقت عليها وقبلتها على الأرض، إنه على حق طبعا عندما يلاحظ أكثر من مرة أن المستوطنات تلطخ وتشوه المشهد الطبيعي الفلسطيني ذا الانسياب اللطيف والجيلي في الغالب، لكن هذا هو كل ما يفعله، إضافة إلى ملاحظته لحقائق يزعج صانعي السلام المفترضين أن يتعاملوا معها ".[117]

أعماله المشهورة:

أعماله النثرية:

رأيت رام الله	(1997م)
ولدت هنا ولدت هنا	(2009م)

أعماله الشعرية:

منتصف الليل	(2005م)
فلسطيني في الشمس	(1974م)
الناس في ليلهم	(1999م)
ليلة مجنونة	(1996م)
الأرض تنتشر أسرارها	(1978م)

[117] إدوارد سعيد، من مقدمة رأيت رام الله لمريد البرغوثي، المركز الثقافي العربي بيروت، ط 4، 2011م، ص 1.

قصائد الرصيف	(1980م)
طال الشتات	(1987م)
زهر الرمان	(2000م)
منطق الكائنات	(1996م)
الطوفان وإعادة التكوين	(1972م)
استيقظ كي تحلم	(2018م)
رنة الإبرة	(1993م)

ونلخص من دراسة عامة عن أشهر روائيين من فلسطين، أن كتابات هؤلاء الكتاب الخمسة هي معظمها نتيجة من تجربة النكبة والنكسة التي وقعت في فلسطين، وقعت النكبة وهم في صغر سنهم، ولما كبر وقعت الصدمة الثانية أي النكسة، وهاتان الصدمتان تأثرتا في نفوسهم وانعكست تجربات الكارثة في رواياتهم ومؤلفاتهم، وكانت النكبة التي وقعت 1948م مصيبة خاصة للشعب الفلسطيني ولكن كانت النكسة التي وقعت 1967م مصيبة عامة في عالم العربي، وقد ظهرت إثر ذلك في مؤلفات الأدباء في عالم العربي، صدمة الهزيمة كانت بالنسبة للفلسطينيين محفزا لإعادة النظر فيما كان من قبل، وشهدت فترة ما بعد النكسة انتفاضة للشعب الفلسطيني، وأكدت على أهمية الدور الفلسطيني في حمل دور القيادة، كما ظهر ذلك في مؤلفات وأعمال هؤلاء الخمسة الذين ذكروا هنا، وكان بينهم أفكار متشابهة في معالجة موضوعهم وتصوير خيالهم وتعبير تجربتهم المؤلمة، كما كانوا متشاركون في طعم ذوق مرارة النكبة والنكسة. بالتأكيد هؤلاء الروائيون الفلسطينيون البارزون قد تركوا بصمة هامة في مسيرة تطور الرواية العربية الفلسطينية، وأثروا بشكل كبير في مشهد الأدب العربي والعالمي، وأعمالهم الأدبية كانت مصدر إلهام وتوجيه للعديد من الكتاب والأدباء الفلسطينيين وغيرهم، وساهموا في رفع مكانة الرواية الفلسطينية.

الباب الثالث: ربعي المدهون حياته وأعماله الأدبية

الفصل الأول:السيرة الذاتية

الفصل الثاني:أعماله الأدبية

المبحث الأول:خلاصة رواية"مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة"

المبحث الثاني:خلاصة رواية "السيدة من تل أبيب"

المبحث الثالث:خلاصة "طعم الفراق... ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة"(سيرة روائية)

الباب الثالث: ربعي المدهون :حياته وأعماله الأدبية

الفصل الأول: السيرة الذاتية

نبذة من حياة الكاتب:

ربعي المدهون هو كاتب فلسطيني بريطاني ذو خلفية أدبية غنية، يتميز بقلمه الرائع ورواياته العميقة التي تنعكس تجربته الشخصية كفلسطيني وبريطاني، تعد حياته وأعماله مصدر إلهام وتأمل للعديد من القراء والأدباء حول العالم، منذ نعومة أظفاره برزت مهاراته الأدبية و شغفه بالكتابة، وهو من المنفيين، تجرب تجربة المنفى من طفولته واضطر للهجرة عندما كان عمره الثالثة ولجأ في المخيم وتكرر الهجرة من بلد إلى بلد آخر، وضاع له الوطن والهوية والثقافة والعائلة، ومنع من العودة إلى وطنه، وهذا الأمر قد تأثر ليس في قلب ربعي المدهون فقط ولكن تأثر في مؤلفاته، و إحساسه بالانتماء إلى فلسطين له دور كبير في أعماله الأدبية، تظهر مهارته وهو في صغر سنه ولمع في مجال الكتابة والرواية، ويعتبر ربعي المدهون مثالا للتعبير الأدبي عن الثقافة والهوية، ويستمر في إثراء الأدب العالمي بأعماله المميزة.

الكاتب والروائي الفلسطيني ربعي المدهون، الذي يحمل الجنسية البريطانية، ولد في مدينة المجدل عسقلان في جنوب فلسطين، سنة 1945م، تلقى المدهون تعليمه حتى المرحلة الثانوية في مدرسة مدينة خان يونس في جنوب قطاع غزة، ودرس في الجامعة القاهرة والإسكندرية، ولكنه أبعد منها عام 1970م بسبب نشاطه السياسي، عاش ربعي المدهون بعد ذلك في عدة بلدان، منها عمان ودمشق وبغداد وموسكو وبيروت ونيقوسيا حتى أن استقر في لندن، حيث عاش هناك مع عائلته لمدة خمسة وعشرين عاما، ثم انتقل أخيرا للعيش في إسبانيا، عمل في العديد من الصحف والمجلات الاسبوعية العربية، ومن بين الأهم جريدتي "الحياة" و"الشرق الأوسط" الدوليتين في لندن، لكنه قدم استقالته من الأخيرة بصورة معلنة في

أكتوبر 2018م، احتجاجا على جريمة قتل الصحافي السعودي جمال خاشقجي، بعد 18 عاما من العمل في "الشرق الأوسط"، أمضى السنوات السبع الأخيرة منها محررا للشؤون الفلسطينية، وكان ربعي المدهون قد عمل في مركز الأبحاث الفلسطيني في قبرص بين سنوات 1986 – 1993 م.

وقد ذكر ربعي المدهون عن سيرته الذاتية في مؤلفاته باسم شخصيات الأخرى وهو يقول في رواية *السيدة من تل أبيب* "ولدت عام 1945 م قرية أسدود التي تسمونها الآن اشدود، هاجرت عائلتي خلال الحرب إلى قطاع غزة مع من هاجر من جنوب فلسطين، واستقرت هناك، عشت طفولتي وصباي في مخيمات اللاجئين في خان يونس ، وتلقيت تعليمي حتى نلت شهادة الثانوية العامة في مدارسها، تلقيت تلومي الجامعية في القاهرة ، وبعد تخرجي، طفت العالم كله لاجئا على قدمين من هجرة ورحيل لا ينتهيان " .[118]

[118] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 2010 م، ص 95.

الفصل الثاني : أعماله الأدبية

أعماله:

- أبله خان يونس: (مجموعة قصصية) نشرت 1977 م.
- الانتفاضة الفلسطينية الهيكل التنظيمي وأساليب العمل: (دراسة أكاديمية) (طبعتان) نشرت 1988 م.
- طعم الفراق... ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة (سيرة روائية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، (طبعتان) نشرت 2001 م - 2010م.
- السيدة من تل أبيب:(رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، (8 طبعات)، وصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية 2010 م.
- مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة: (رواية)، مكتبة الفكر الجديد (8 طبعات)، فازت هذه الرواية بالجائزة العالمية للرواية العربية المعروفة بالبوكر العربية عام 2016م.
- سوبر نميمة (سرديات) نشرت عام 2018م.

المبحث الأول: ملخص الرواية " مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة "

رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة لربعي المدهون من أشهر أعماله الأدبية التي قد كتبت بعد الرواية "السيدة من تل أبيب" التي قدمت مشهدا حقيقيا عن أحوال الفلسطينيين لاسيما عن سكان قطاع غزة ورواية "مصائر" هي رواية متسلسلة لرواية "السيدة من تل أبيب"، يرسّم ربعي المدهون فيها، عن صورة الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين بعد النكبة التي وقعت عام 1948 م، يقول ربعي المدهون " هذه الرواية عن فلسطينيين بقوا في وطنهم بعد حرب 1948 م وأصبحوا، بحكم واقع جديد نشأ، مواطنين في دولة إسرائيل ويحملون "جنسيتها"، في عملية ظلم تاريخية نتج عنها "إنتماء"مزدوج، غريب ومتناقض لا مثيل له " [119]، وهذه الرواية ليس هذا المضمون فقط ولكن يحتوي فيها موضوعات أخرى كما يناقش الكاتب عن المهاجرين الذين هاجروا من فلسطين بسبب النكبة وهم يودّون للعودة إلى وطنهم المحبوب.

يتناول الكاتب عن مضمون الرواية في بداية الرواية " قمت بتوليف النص في قالب الكونشرتو الموسيقي المكون من أربع حركات، تشغل كل منها حكاية تنهض على بطلين إثنين، يتحركان في فضائهما الخاص، قبل أن يتحولا إلى شخصيتين ثانويتين في الحركة التالية، حين يظهر بطلان رئيسان آخران لحكاية أخرى، هكذا نمضي مع الحركة الثالثة، وحين نصل إلى الحركة الرابعة والأخيرة، تبدأ الحكايات الأربعة في التكامل وتتوالف شخصياتها وأحداثها ومكوناتها الأخرى وتكون ثيمات العمل التي حكمت كل واحدة من الحكايات، قد التقت حول أسئلة الرواية حول النكبة، والهولوكوست، والعودة " .[120]

الشخصيات في هذه الرواية من بيئة واقعية حقيقية، وقد تشابه أسمائها مع أسماء حياة ربعي المدهون لأنه أطلق هذه الأسماء ليربط حياته بهذه الرواية.

[119] المدهون، ربعي: مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2015،، ص 7.
[120] المصدر نفسه، ص 7.

الحركة الأولى:

تحب إيفانا أرديكان (الأرمينية الفلسطينية) طبيبا بريطانيا في زمن الانتداب على فلسطين، ولكن أسرتها لن تستعد لقبول علاقة مع طبيب البريطانيا، ولذا تقرر الخروج من وطنها إلى بريطانيا، تهربت من عكا الفلسطينية مع طبيب البريطاني وتتزوجه وتنجبت بنتا منه، قد ذهبت معه إلى لندن عام 1948م، قبل وفاتها توصي إيفانا بحرق جثتها، وأخذ جزء من رمادها إلى مسقط رأسها في عكا القديمة أو إلى القدس.

الحركة الثانية:

تكتب جنين دهمان روايتها "فلسطين قيس" عن محمود دهمان الذي هاجر مع عائلته من مجدل عسقلان إلى غزة خلال نكبة 1948 م، تلاحقه المخابرات المصرية يترك عائلته ويعود سرا إلى المجدل، ترسم الحدود بين إسرائيل وغزة، لن يستطع لمحمود دهمان على إعادة عائلته الصغيرة إلى المجدل، يتزوج امرأة ثانية، ويعيش حياته الجديدة فلسطينيا في إسرائيل بينما ترافع جنين (فلسطين قيس) في بينها يروي الراوي قصتها هي أثناء دراستها في أمريكا، تحب جنين الفلسطينية الإسرائيلية من الضفة الغربية ينتقلان إلى يافا، يتزوجان ويقيمان في قلعتها القديمة يكافح الزوجان الشابان لإنقاذ زواجهما من قوانين إسرائيلية تجعل استمراره مستحيلا.

الحركة الثالثة:

يزور وليد دهمان وزوجته جولي (إبنة إيفانا) البلاد لتنفيذ وصية إيفانا، تنتهي رحلتهم إلى مدن عكا، ويافا، والقدس، و المجدل عسقلان إلى الوقوع في حب الوطن، يفكران في العودة وتغيير مسار حياتهما.

الحركة الرابعة:

يزور وليد متحف المحرقة (بدفيشم) في القدس يلتقي جولي جنين في يافا يتعرف على مصادر روايتهما (فلسطيني قيس) ومصائر أبطالها، وما انتهت إليه علاقتهما بباسم في الحقيقة وفي الرواية.

العتبات النصية في الرواية:

يسمي ربعي المدهون لهذه الرواية بعنوان الذي يتضمن فيه عن إشارة عن مضمون النص، ويثير عنوان الرواية تساؤلات فلسفية وابداعية تجعله غير منفصل عن بقية مكونات النص ومراتبه اللفظية، وهذا العنوان هو محور القصة أيضا، لما لها من حضور ووظيفة ضمن البنية السردية للنص، يمكن إبراز هذا الوجود بالوقوف على الشكل المركب للعنوان الذي يتكون من:

عنوان رئيسي:

يجد تعريفات عديدة عن شرح كلمة " مصائر "، جاء في معجم " المعاني الجامع " هذه الكلمة جمع للمصير، يعني حقّ الشعوب في أن تقرير بنفسها نظام الحكم في بلادها واتّجاه سياستها وربط علاقاتها مع سائر الدول دون الرجوع إلى سلطة خارجية[121]. تمثله مفردة مصائر وهي كلمة نكرة دالة على جمع التكثير، ويدل على الوضع الذي ينتهي إليه مسار أو وضعية أو حال، ولعل صيغة الجمع دالة على تعدد المصائر وتداخلها، تلك المصائر التي ولدتها تعليقات الهولوكوست والنكبة، فمن هذه المصائر ما يتعلق بشخصيات عاد بعضها في النهاية إلى الوطن ايقانا "[122]، وبعض المصائر تتعلق بالهوية والتاريخ الفلسطيني والعودة والمنفى، وتعرضت كل معالم للطمس والتهويد من قبل سلطة الاحتلال.

[121] القاموس الإلكتروني، Https://www. almaany. com 21/2/2021.

[122] المدهون، ربعي: مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م، ص 266.

عنوان فرعي يتكوّن من العناصر التالية:

الكونشرتو:

"هو حوار موسيقي لآلة موسيقية منفردة مع مجموعة آلات الأوركسترا، وأصل كلمة "كونشرتو" من اللاتينية (كونشرتوس) أي الترتيب والانضمام مع بعض "[123]. هي كلمة دخيلة على اللغة العربية كما يبيّن الروائي هي تدل على قالب موسيقي من أربع حركات، وهي اختيار إبداعي لتقديم المتن الروائي، في القالب الموسيقي صاحب طقوس نثر، رماد " إيفانا " في الهواء، إنه طقس جنائزي مهيب، طقس رافقه تأكيد السارد " توقيت هناك "، ما يشير بحنين دفين للعودة إلى الوطن، وفي معناها أيضا الكفاح الإيطالي.

الهولوكوست:

الهولوكوست يقصد به عملية الاضطهاد والقتل الممنهج الذي سلكته الدولة بغرض قتل ستة ملايين يهودي أوروبي من قبل النظام الألماني النازي وحلفائه والمتعاونين معه في الفترة بين 1933م حتى 1945م، بدأت حقبة الهولوكوست في يناير 1933م، عندما استولى أدولف هتلر والحزب النازي على السلطة في ألمانيا، وانتهت هذه الحقبة في مايو 1945م، وذلك عندما هزمت دول الحلفاء ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية، ويشار أحيانا إلى الهولوكوست باسم "المحرقة"، وهي كلمة عبرية تعني "الكارثة" .[124]

كما يصف الروائي باسم الهولوكوست لهذه الرواية بسبب تجرباته الشخصية التي حثت لتعطي هذا العنوان لهذه الرواية، فيقول بدي أشوف دير ياسين من هناك، بدي أشوف كيف الضحايا بيشوفو الضحايا[125] "، إن المتحف الذي أقامه الاحتلال لحفظ ذكرى المحرقة اليهودية، يصبح معلما لإدانة الاحتلال، فالمتحف يذكر بالمحارق الفلسطينيين قبل النكبة وبعدها، إنها مفارقة لمسائلة التاريخ الظالم

[123] الموسوعة العربية، https://arab-ency. com 25/10/2021

[124] الموسوعة الهولوكوست، https://encyclopedia. ushmm. org ،1/1/2022

[125] المدهون، ربعي: مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م، ص 182.

للقضية الفلسطينية، يقول السارد " لكي لا تكرر محرقة النازية لليهود يشعل الاسرائيليون باسم ضحايا ، محارق كثيرة في بلادنا قد تصبح في النهاية محرقة ."[126]

والنكبة:

واو العطف: وهي الواو التي تعطف جملة، يفيد مطلق الجمع والاشتراك، مصطلح يشير إلى مأساة الإنسان الفلسطيني عام 1948 م المرتبطة بتهجير عن وطنه وإقامة " دولة اليهود" وما رافق ذلك من أحداث ومجازر وفظائع، ارتكبها الإسرائيليون على حق الفلسطينيين، شهد هذا العام لطرد شعب الفلسطيني من وطنه وأرضه وفقد وطنهم لصالح قيام دولة يهودية إسرائيلية، وهي كارثة بشرية، لم يشهد لها مثيل في التاريخ، وأن يضيع شعب فلسطين وطنه ويصير بلا وطن و تشرد شعبا بين المخيمات، وتسرق وطنا من جذور الآباء ؛ ليصبح من كان بالأمس مواطنا، اليوم لاجئا، ومن كان عزيز قوم، اليوم ذليلا، بين المعاناة والمآسي، لقد توجع الفلسطينيون بما يعز عليهم من مال وحميم، وتركوا بيوتهم بالداخل، و هجروا من أراضيهم قصرا، هذه هي المأساة التي يتوارثها الأجيال، جيل بعد جيل، لم يورث لهم الأجداد، درهما، ولا دينارا، بل ورثوا لهم "النكبة".

بالنسبة لمفهوم مصطلح كلمة " النكبة "، فيعود إلى تاريخ في عهد الخليفة العباسي هارون رشيد، وقع في عهده الحادثة الشهيرة التي سببت لكارثة البرامكة على يد هارون الرشيد، البرامكة التي أسرة يعود أصلها إلى مدينة بلخ، ولهم درجة عظيمة عند الخليفة العباسي لا سيما عند هارون الرشيد وكانوا وزراء الدولة، وأصحاب الأمر والسلطان، حين قتل بهم، وسميت في التاريخ عن هذه الحادثة بـ"نكبة البرامكة ". النكبة هي مصيبة مؤلمة توجع الإنسان بما يعز عليه من مال وحميم.

[126] المصدر نفسه، 240.

وفي النص إشارات إلى هذه الفظائع، مذبحة دير ياسين، تهجير الفلسطينيين، ذكرت النكبة 17 مرة في الرواية لأنها أكبر جرح وهي مؤامرة وحشية من اليهود والمستعمرين من الغربية، "ومن أوائل من أطلقوا اسم النكبة في كتاباتهم هو الشاعر المصري أحمد محرم ؛ ففي عام 1933، أي قبل حدوث نكبة فلسطين بخمسة عشر عاما.

تشكيل بنية الرواية غير المتجانسة، كما نعرف جيدا ليس من اليسير كتابة رواية عن فلسطين في هذه الأيام وذلك لكون فلسطين موضوع شديد الاستهلاك في الأدب العربي. أكثر الروايات التي كتبت عن الفلسطين تضمن فيها على المواضيع مثل، الوطن، المنفى، الإغتراب، الهجرة، النكبة، الحرب، ولهذا السبب، فإن أي عمل جديد عن فلسطين، يتعرض إلى مقارنات ونقد وبحث بالعمق، بأن موضوع فلسطين مثل بحر لا نستطيع أن يصل إلى النهاية.

انقسم الروائي الرواية إلى اربعة أجزاء ؛ الجزء الأول الذي هو أهم الأجزاء وأطولها والثاني وهو لحن عاطفي هادئ الحركة يقترب من شكل الأغنية والثالث وهو بأسلوب اللحن السريع وفيه يبرز العازف المنفرد في الأدوار السريعة الإيقاع كمل قدراته الأدائية والأخير وفيه كل الأشخاص الذين في الأجزاء السابقة يجتمعون وتنتهي الرواية بصورة كمالية، الفكرة العامة التي تناول ربعي المدهون في هذه الرواية هي فلسطين وحق العودة للمنفيين.

الشخصيات في الرواية :

الشخصية هي التي تتشكل بتفاعلها ملامح الرواية، وتتكون بها الأحداث، لذا على الروائي أن ينتقي شخصيات روايته بحكمة بحيث يجعل الشخصية المناسبة في المكان المناسبة. تلعب الشخصيات دورا عظيما لتأثير قلوب القارئين، تمثل الشخصية الروائية عنصرا أساسيا من عناصر الرواية ، لأنها تصور الواقع من خلال حركاتها مع غيرها، ومن خلال نموها التدريجي، إذا تقدم حياة الناس بحيوية وفاعلية،

لذلك فإن هذه الشخصية لا بد أن تكون قادرة على الصمود أمام حركة الزمن المستمر، وكأنها تعيش في كل الأزمان على قدم المساواة ودون أن ينال منها الزمن[127]". ومن الشخصيات الشخصية المسطحة فهي الشخصية الجامدة التي لا تقوم بأي حركة وتطور ويعرفها عبد الملك مرتاض هي " تلك الشخصية البسيطة التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعامة "[128]، ومن الشخصيات الشخصية النامية التي تعرف بأنها تلك التي " لا تبدو للقارئ في الصفحات الأولى، بل تتكشف شيئا فشيئا، وتتطور القصة وأحداثها، بحيث يكون تطورها نتيجة تفاعلها المستمر مع هذه الحوادث" .[129]

أنواع الشخصيات:

تنقسم الشخصيات إلى قسمين: إما أن تكون صادقة يمثلها البشر أو كاذبة تتجسد في الحيوانات أو الجمادات، ويمكن تقسيم الشخصيات من حيث الدور الذي تقوم به إلى نوعين: شخصيات رئيسية وشخصيات ثانوية.

الشخصيات الروائية الرئيسية:

الشخصيات الرئيسية هي التي تتواجد في المتن الروائي بنسبة تفوق الخمسين بالمائة، وتبرز من مجموع الشخصيات الرئيسية شخصية مركزية تقود بطولة الرواية، " في كل عمل روائي شخصيات تقوم بعمل رئيسي إلى جانب شخصيات تقوم بأدوار ثانوية. فالشخصية الرئيسية هي التي تقوم الفعل وتدفعه إلى الأمام، وليس من الضروري أن تكون الشخصية بطلة العمل دائما، ولكنها هي الشخصية المحورية، وقد يكون لديهم خصم[130]"، بناء على هذا فإن ربعي المدهون قد اختار شخصيات رئيسية في رواياته.

---

[127] ادوين موير، ترجمة إبراهيم الصيرفي، بناء الرواية، الدار المصرية للتأليف والنشر القاهرة، مصر، ط 1، 1965 م،، ص 82.

[128] مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998 م، ص 89.

[129] سلام محمد زغلول:دراسات في القصة العربية الحديثة:أصولها، واتجاهاتها، أعلامها، دار المعارف، مصر، 1973م، ص 19.

[130] صبيحة عودة زعرب، جماليات السرد في الخطاب الروائي، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع, 2006 م، ص 131- 132.

إيفانا أردكيان:

الأرمنية العكاوية الفلسطينية، ابنة (مانويل وأليس)، الذين أعلنا تبرأهما منها بسبب هروبها مع الطبيب البريطاني (جون ليتل هوس)، وهي والدة أجولي التي هي بطلة في هذه الرواية، وهي من الشخصيات الرئيسية في الرواية حيث تشغل دورا مهما في تشكيل الشخصية وهي ليس أم أجولي فقط ولكن هي حماة وليد دهمان الذي بطل في الرواية، يصل أصلها إلى أصول أرمينية عكاوية فلسطينية بريطانية، أرملة جون، تحب إيفانا أرديكيان مع جون ليتل هاوس الذي الضابط الطبيب من البريطاني ولكن تفهم إيفانا لن تأذن أسرتها الحياة مع حبيبها البريطاني ولذا تقرر أن تهاجر مع جون ليتل هاوس إلى بريطانيا، وهذه الحادثة التي وقعت في حياة إيفانا تسبب لقطع علاقتها مع أسرتها، ولكن تحاول أن أن تصل صلة مع أسرتها بإرسال الرسالات متتابعة ومستمرة ولكن تفشل لبناء علاقة مع أسرتها، وهي تكون منفردة ومنفية ومتشردة.

وهي من الشخصيات التي لها علاقات اجتماعية متعددة، وقد ظهر ذلك خلال الحفلة الصغيرة التي دعت إليها أصدقائها، لكنها لا تزال تعاني من مرارة الماضي وقسوة المنفى وتود العودة إلى وطن المولود، ولكنها تعلم هذا مستحيل في حياتها، فقررت إعادة رمادها إلى البيت الذي كان يحمل ذكريات طفولتها وشبابها، وهذه الشخصية هي المحركة الرئيسية في أحداث الرواية، لكنها شخصية مسطحة، تختفي في الجزء الثالث من الحركة الأولى، وفي أواخر حياتها تود أن تدفن رمادها في وطنها وبذلك طلبت من ابنتها جولي وزوجها وليد تنفيذ وصيتها المتمثلة في وضع نصف رماد جسدها المحفوظ في داخل التمثال الخزفي في البيت الذي سيكون مثواها. "خذوا بعضي وكل روحي إلى عكا يعتذران لها حارة حارة، خذوا ما تبقى مني و شيعوني حيث ولدت، مثلما ستشيعني لندن حيث أموت، يا أصدقائي وأحبتي، يوما ما، ولا أظنه بعيدا، سأموت، أريد أن أدفن هنا وأن أدفن هناك[131]"، وهي تبقى وصيتها التي تشكل الدافع وراء الفعل لدى شخصيات الرواية حيث تحاول ابنتها جولي تنفيذها بالانتقال من لندن إلى فلسطين برفقة زوجها وليد.

[131] المصدر نفسه، ص 34.

جولي:

اسمها الكامل جولي ليتل هاوس التي إبنة إيفانا أرديكيان، مسيحية الديانة كوالدتها، المكلفة بتنفيذ وصية أمها، وهي شخصية رئيسية في الرواية، تلعب دورا مهما في الحركة الأولى، واستمر ظهورها إلى الحركة الأخيرة، كما أنها شخصية نامية ومتطورة، فقد جاءت إلى عكا مع زوجها وليد، ثم توالت الأحداث حتى أظهرت رغبتها بالبقاء في عكا.

وقد حملت إيفانا وأنجبت في موعدها طفلة جميلة تشبه والدها كما وصفتها أمها. "قالت إن أباها منح أن يلمها من ملامحها حتى بعد أن تجاوزت الستين والتفت إلى جولي [132]"، سمياها جولي في مارس 1948 م، وكانت هي الإبنة الوحيدة لهما، وقد تزوجت جولي من وليد دهمان بعد وفاة والدها، عرفت جولي من خلال شخصيتها بالرزانة والحنينة والتعاطف مع والدتها ومساندتها لها، ووقفت خلف إيفانا مباشرة احتضنت رأسها بين كفيها ثم انحنت إليه برفق وقبلته وقالت مازحة وهي ترفع رأسها بعيدا وتعود إلى مكانها، يكفيك أنك كنت أبي عاشقين كبيرين! [133]". لن تحب جولي لزيارة وطن أمها ولكن حين تعطى الوصية من قبل الأم تقرر جولي لزيارة وطن أمها أي فلسطين، من خلال زيارتها تدخل إلى قلبها المحبة، الحنين، العشق، الفخر، والرغبة تدريجيا وتحب أن تعيش في فلسطين أي وطن أمها باقي الحياة وتذكر لم تحصل لها أية فرصة لو لم تقل أمي لزيارة وطنها إلى تحقيق وصيتها.

كما أنها امرأة عاطفية، تظهر فرحتها وحبها لفلسطين التي تزورها لأول مرة، لكنها قادرة على التحكم بمشاعرها وعواطفها وتحافظ دائما على إظهار قوتها، فقد أخفت ما حدث معها عندما وصلت إلى منزل والديها سابقا ؛لتضع الوعاء الخزفي الذي وضعت فيه رماد والدتها.

[132] المصدر نفسه، ص 28-29.

[133]، المصدر نفسه، ص 31-32.

وليد دهمان:

لعبت هذه الشخصية دورا مهما في هذه الرواية، وهو منفي، ويعود جذره إلى فلسطين، "وقد ولد وليد دهمان عام 1948م، في قرية أسدود، التي تسمونها الآن اشدود، هاجرت عائلتي خلال الحرب إلى قطاع غزة مع من هاجر من جنوب فلسطين، واستقر هناك، عشت طفولتي وصباي في مخيمات اللاجئين في خان يونس، وتلقيت تعليمي حتى نلت شهادة الثانوية العامة في مدارسها، تلقيت علومي الجامعية في القاهرة، كما أنه يعمل صحافيا في جريدة أخبار العرب، وهي صحيفة عربية دولية تصدر من لندن "[134]

وهو من الشخصيات الرئيسية في هذه الرواية كما مثّل شخصية رئيسية في رواية "السيدة من تل أبيب"والتي يعتبرها الكاتب الجزء الأول من أعماله الروائية حيث يؤكد على ذلك في حواره له في روايته " مصائر"تمثل مرحلة أخرى في سياق مشروعي الثقافي " لهذا استدعيت وليد دهمان من "السيدة من تل أبيب"، وكذلك والدته، ليواصلا دورهما فيها، وإن ظروف أخرى، لم يحدث هذا مصادفة، بل خططت لأن يتابع وليد رحلته في طريقه إلى مرحلة ثالثة، لم تتشكل ملامحها، لهذا يخرج هو وزوجته في نهاية النص، بأسئلة كبيرة، تفتح على نص لم يكتب بعد" .[135]

ويمثل في رواية "مصائر" كشخصية رئيسية نامية متطورة، تظهر أمام القارئ مع تقدم في القصة، فقد يصاحب مع زوجته جولي في سفرها إلى فلسطين لتنفيذ وصية والدتها، ومن خلال رحلته ووقوفه على أماكن قديمة تخص عائلته، صور التراث العربي الذي سلبه العدو ونسبه لنفسه. وهو بطل في هذه الرواية ومن أهم الشخصيات الرئيسية، وليد دهمان زوج جولي، تميز بشخصية فكاهية، وانعكست علاقته بحماته بنوع من الاستلطاف والألفة، سكب وليد النبيذ في الكؤوس وقبل أن ترفع إيفنا كأسها عاليا معلنة انتهاء وصيتها الخاصة بالجنازة، وبدء الاحتفال الذي وعدت به، مازحها وليد، بينما كؤوس الجميع معلقة في الهواء

[134] المدهون، ربعي:السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط3، 2010م، ص 95-97.

[135] حبشي أسامة: ربعي المدهون:حيفا حاضنة ثقافية للفلسطينيين الباقين في وطنهم، 4/1/2022، http:www. alhayat. com.

" أتعرفين أن اليهود يعتقدون بأن من تدفن جثته في تلك البلاد، يكون أول من يبعث حيا، ويكون في مقدمة طابور المنتظرين على باب الجنة يوم القيامة ."[136]

كانت جولي لم تحب أن تسافر إلى وطن أمها بسبب كراهيتها مع اليهودي وتؤمن أن اليهود الذي احتل أرض الفلسطينيين، ولكن تحث زوجها وليد دهمان لزيارة فلسطين لتنفيذ وصية أمها، وهو يشارك معها في السفر ويحقق أحلام حماته وزوجته، كما أنه يمثل كرابط الذي يربط كل شخصيات في الرواية جميعا ، ففي بداية الرواية كان مع إيفانا وأصدقائها وزوجته جولي في لندن، ثم انتقل إلى فلسطين ليعرف جولي بأصدقائه، جميل، وسلمان، ولودا، وعايدة، وجنين الذين كانوا ينتظرون عودته، فكانت جنين تتواصل معه وترسل له ما تكتب بكونه صحفيا وكاتبا، وتعتبر هذه الشخصية من الشخصيات الأساسية النامية والمتطورة التي ساهمت بشكل كبير في تحريك الأحداث في الرواية.

جنين دهمان:

صحفية شابة، زوجة باسم، وهو فلسطيني من الضفة الغربية، الذي يكافح من أجل العثور على الإقامة والعمل في يافا، والدها محمود دهمان وهو ملهم روايتها " فلسطيني تيس"، تظهر هذه الشخصية الرئيسية في الحركة الثانية، وقد تعمد الكاتب الابتداء بالتصريح باسم هذه الشخصية، فاسمها جنين، أول ما يطالعنا في الحركة الثانية، فتبدأ الحركة بقوله " جلست جنين إلى مكتبها في غرفة البيت الوحيد المطلة على ميناء يافا القديم "[137]، يقدم الكاتب شخصية "جنين " كمعلن حق الفلسطينيين في أرضهم وتعزيز الوطنية والمواطنة المشتركة بين سكان البلاد.

تنعكس قصة زواج جنين مع باسم قصة الثبات والتحدي والصمود، ترفض الخضوع لقرارات وزارة الداخلية، كما ترفض التنازل عن الأرض والوطن حتى لو كان مع من تحب وتتزوج ، وتعد صمودها وصبرها

[136] المصدر نفسه، ص 35.

[137] المصدر نفسه، ص 71.

وثباتها امتداد لما بدأ به أهلها، فتقول في حوارها مع باسم عن الخروج من يافا: بخسر صبر ستين سنة من عمر أهلي اتحملوا بشر حتى ما يهاجروا ويتركوا البلد لليهود"[138]. وهذه الشخصية رمزا لمن رفض الهجرة ومثلا للمنفيين في داخل الوطن ومكافحة على من سلب حقهم ووطنهم.

باسم:

هو من الشخصية الرئيسية، من فلسطين، يحمل بجواز سفر أمريكي، يختنق بتفاصيل حياته اليومية، وليس له حق للعمل في إسرائيل، ولا يتمتع بالضمان الصحي أو الاجتماعي، ولا يمكن له أن يسافر مع زوجته، ولم يحصل بعد على موافقة "وزارة الداخلية الإسرائيلية "للإقامة الدائمة أو العمل، تعرف على جنين من خلال التواصل عبر الإنترنت، التقيا في واشنطن، ثم عادا منفصلين لطلب رؤية أهلهما في شأن زواجهما، هو إلى بيت لحم في الضفة الغربية، وهي إلى الرملة، ويتزوجا بعد إذن أهلهما، وبعد الزواج يواجه باسم مشكلات كثيرة من جهة حكام الإسرائيلي ولا يمكن أن يعمل في إسرائيل كما لا يحصل الجنسية الإسرائيلية، وينتهي هذا الزواج إلى الفش، فهذه سياسة إسرائيل التي لا تسمح بلم الشمل كما أخبرت الموظفة "إبالا" لجنين " تعرفين أن التعديلات الجديدة على قانون لم الشمل لا تسمح بمنح زوجك حق العمل، لكني سأجدد له إذن الإقامة[139]". يقرر باسم أن يترك إسرائيل وعقد الزواج بجنين "يترك جنين ويرحل عن البلاد عائدا إلى الولايات المتحدة، ترافقه زوجته إلى المطار لتمضي معه آخر لحظاته في البلاد "[140]، يقدم الكاتب صورة باسم كمن يفكر بالعودة إلى وطنه ويعيش مع أهله ولكن الحكومة الإسرائيلية ترفض حق عودتهم وتبحسهم في قيودهم.

[138] المصدر نفسه، ص 90.

[139] المصدر نفسه، ص 96.

[140] المصدر نفسه، ص 255.

محمود دهمان:

زعيم شيوعي، هاجر إلى غزة خلال نكبة 1948م مع عائلته إلى المجدل عسقلان، لكنه ترك عائلته وعاد سرا إلى المجدل هربا من المخابرات المصرية التي كانت تلاحقه، ثم رسمت الحدود بين إسرائيل وغزة، ولم يتمكن من استعادة عائلته الصغيرة، فتزوج من امرأة ثانية وعاش حياته الجديدة فلسطينيا في إسرائيل، وقد اتضحت لنا جوانب هذه الشخصية وأبعادها من خلال رواية جنين التي نقلت صورة والدها ومواقفه من خلال بطلها " باقي هناك" في روايتها "فلسطيني تيس "، إضافة إلى ما أضافه وليد من ذكريات جمعها ممن حوله حول هذه الشخصية، وقد نعت بعد عودته إلى البلاد "بالإسرائيلي"، وهذا ما سمعه وليد من عمته في قولها " خلص يا بنت عم.. محمود صار إسرائيلي "، ووصفته عائلته بالمجنون كما ورد على لسان والده الشيخ إبراهيم دهمان " ابني مجنون رسمي، ابني وأني عارفه، راح يعيش مع اليهود اللي ما حدن بتحملهم ". ولكن موقف والده تغير بعد مرارة العيش في المخيمات وتمنى لو بقي في البلاد، في الرملة أو اللد أو غيرها ولم يخرج، فاختلفت نظرة الآخرين من أبناء جلدته له، تارة رأوه المناضل ال"باقي هناك"، وتارة اعتبروه الخائن ال"باقي هناك"أيضا ليعيش"إسرائيليا "، لكنه بكلتا الحالتين كان "ال"باقي هناك "، وكأن هذه الشخصية "ترفع اللوم عن أبناء الشعب الفلسطيني في مناطق 48 التي يتلقونها من الإسرائيليين ومن الفلسطينيين في غزة والضفة والقدس "

وقد عكس صورة من يعيش في "إسرائيل "، فهو يعلم أن الحرب مستمرة معهم، لكن ذلك لم يخرجه عن إنسانيته التي تجلت عندما أحرقت جارتهم اليهودية حائط منزلهم " غفريت أفيفا وحيدة وغلبانة وما حدش بيعتب عليها، اللي شافته في حياتها ما شافه بشر، اللي شافته جممها وأفقدها أعصابها، شئلوهيم يعمود لتسيداه الله يساعدها ويكون في عونها "، كما أصبح يتردد على منزل "أفيفا" بعد زواج ولديها وهجرتهما وهجرة زوجها " شاؤل" أكثر "باقي هناك" من تردده على بيت أفيفا، وصار يمضي معها أوقاتا أطول من السابق "

ومن جهة أخرى يحاول غرس حب فلسطين في قلوب أبنائه، مختارا لهم أسماء لمدن فلسطينية، فالكبرى غزة التي تركها في غزة، ثم فلسطين ابنه الأكبر وبيسان وجنين، كما شكل بعد احتلال المجدل عسقلان لجنة لعمال النسيج للدفاع عن حقوقهم، وشجع العديد من سكان المدينة على البقاء، ومنع كثيرين من الهجرة "، أما وفاته فكانت صعبة وقاسية، فقد توفي وحيدا، لم يكن بجانبه إلا جنين، وبقية أبنائه موزعون في البلاد وخارجها.

لكن جنين التي استلهمت قصة والدها لتدور حولها روايتها، قد اختارت نهاية مختلفة، للرجل الذي رفض الهجرة من البلاد سنة 1948م، فصورت خروجه أثناء احتفال الحزب اليميني بفوزه، يحمل يافطتين ويغني النشيد الأممي في تحد أخرق لتجمع من المسعورين، ليصاب برصاصة تسقطه أرضا يغطي اليافطتين بدمه، لكنه ينهض من جديد ليحمل يافطتيه ويغادر الساحة مرددا النشيد الأممي "، فكان محمود الدهمان الشخصية التي تصور من تمسك بأرضه ورفض الخروج وهم قلة آنذاك.

يلعب محمود دهمان في الرواية دورا مهما ويكون مزدوجا بالشخصية، هو فلسطيني الأصل يحمل الجنسية الإسرائيلية، حين اندلعت النكبة عام 1948 م هاجر محمود دهمان مع عائلته من المجدل إلى غزة ولكنه زعم أنه لم يسكن في المخيم كمنفي وقرر للعودة، واضطر أن يترك عائلته في العودة ولن يستطع لمحمود دهمان أن يعيد عائلته إلى مكان موطنه بعد رسم الحدود بين إسرائيل وغزة، وهو يبقي هناك تاركا بعائلته، يصف الروائي محمود دهمان باسم " باقي هناك " في الرواية التي تكتب جنين، جنين هي من الشخصيات الثانوية في الرواية مصائر. يقول الشيخ إبراهيم الذي هو أبو محمود دهمان للهجرة إلى عائلته ولكن لم يتمكن للهجرة، إنه يرفض أن يعيش في خارج موطنه.

يصف الكاتب " لم يجد " باقي هناك " طليقته نادية، الشابة التي عبأت المجدل عسقلان صراخا وهي تحاول إقناعه بالصعود إلى شاحنة الراحلين، كما يقول الشيخ إبراهيم دهمان: " محمود يا حبيبي، اطلع معنا ياب بلاش نصير كل واحد في جهة، إن دشرنا بعضنا عمرنا ما بنتلاقي يا بني، بكرة اليهود إن استفردوا فيك

بطخوك اسمع مني ياب واخزي الشيطان واطلع معنا [141]" ، ولكن كل محاولات التي تحاول الشيخ إبراهيم للإعادة ابنه تكون بالفشل، لأن محمود دهمان رفض الذهاب إلى غزة ويبقي مصمما على موقفه في عدم التخلي عن فلسطين ؛ وما يذكر ذلك من الرواية هو المقطع الآتي: " ورفض تيس محمد دهمان وقتذاك وصلب قدميه في الأرض، وأحرن كما يحرن الحمار ويصلب قوامه في الأرض بينما الطائرات في الجو تصرخ والقذائف تصرخ وابنته غزة على ذراعي أمها تصرخ... [142]، يؤكد محمود دهمان أنه لم يستعد للهجرة إن تلف له أسرته وأقاربه وأصدقائه ويقول أيضا: " ياب إن هاجروا ما بترجعوش " مع هذا القسم يكون محمود بشخصية مزدوجة في الرواية والحياة حيث يكون أصله فلسطينيا ويحمل جنسية إسرائيلية.

الشخصيات الثانوية:

الشخصية الثانوية فهي كالعامل المساعد في التفاعل الكيميائي يأتي بها الروائي لربط الأحداث أو إكمالها، وهذا لا يعني أنها غير مؤثرة، فإن كانت كذلك فما الحاجة إلى الاستعانة بها إذا، بل تكون مؤثرة لكنها غير مصيرية، تحرف مسار الرواية أو تضيف حدثا شائقا". [143]

يستخدم الكاتب الشخصية الثانوية لمساعدة وتشجيع الشخصيات الرئيسية، لو لم يعطي الكاتب إعتبار مناسبا لشخصيات الثانوية في روايته لتكون رواياته غير تمام، تسعى الشخصيات الثانوية لتكامل والموافقة بين الشخصيات. يضع ربعي المدهون في هذه الرواية الشخصيات الثانوية لتوافق بين الأحداث والوقائع التي تدور بين الشخصيات الرئيسية والثانوية.

[141] المصدر نفسه، ص 160.

[142] المصدر نفسه ، ص 161.

[143] عناصر الرواية، http: //stories – blog. com. 25/05/2022

وليام باير:

يقدّم الكاتب هذه الشخصية كصديق زوج إيفان، كما يصف"هو رجل القامة ذو النظارتين الطبيتين الكلاسيكتين[144]"، اشتهر وليام باير كمحامي لعدد كبير من مشاهر الطبقة الوسطى المتربعين على سطح طبقتهم الأعلى يتنفسون وحدهم هواءها، صديق حميم لوالد جولي، الراحل جون ليتل هاوس خدم الرجلان في شبابهما في صفوف القوات البريطانية في فلسطين، وصلا كل منهما إلى رتبة ميجور، فاربت بينهما الرتبة العسكرية وكذلك الموت الذي نجا كلاهما منه في لحظة واحدة حين أقدمت منظمة (إيرغون) اليهودية ورئيسها مناحم بيغن، في 22 يوليو 1946 م، على تفجير فندق الملك داووس في القدس الذي اتخذت منه حكومة الانتداب البريطانية على فلسطين مركزا للإنجليز وسبعة عشر يهوديا وخمسة من جنسيات أخرى، وأصيب خمسة وأربعون بجروح مختلفة نجا الضابطان البريطانيان من الحادث وظهرت ملامح جديدة لعلاقتهما بعد سكون غبار الموت فيما بعد، صار جون ووليام صديقين حميمين لكن الدهر الذي انقذ جون من الموت خلال تفجير كبير، عاد وأسقط من حسابات العمر على حافة حلمه الأكبر [145].

لم يستطع جون أن يعيش مع أسرته أمدا طويل بسبب فجأة موته وغادر قبل زواج إبنته جولي، وبعد وفاته ورثت إيفانا عن جون أملاكه، ومنها " البيت الذي تقيم فيه، وسيارته المرسيدس السوداء ومبلغ من المال وصداقة وليام باير. تعرفت إيفانا وليام باير من فلسطين، وكان وليام باير يرافق مع جون حين لقاءاتهما الغرامية السرية. يفكر وليام باير أن له مسؤولية لعائلة صديقه المرحوم جون ويحمل كل شؤون لاسيما علقت بالقانونية والمالية والحسابية، ويقوم بأداء مسؤولياته التي ارتبطت بأسرة جون ولذلك صارت علاقته مع إيفانا علاقة وثيقة.

[144] المصدر نفسه، ص 23.

[145] المصدر نفسه، ص 22.

ست معارف (فاطمة معارف):

كانت فاطمة هي من دلّت جولي على ما كان بيتا لجدها لأمها، مانويل أرديكيان وأخذتها إليه يلقّبونها في عكا ب "فاطمة معارف" ينادونها، أحيانا " ست معارف " البعض يشير إليها في غيابها، بال" ست معلومات " ولا يخطئون في تعريف مهنتها مرشدة شعبية ويتردد على ألسنتهم بعضهم، إنها تحفظ ملامح عكا وتفاصيلها أكثر من كتب التاريخ والجغرافيا ."[146]

يمتدح الآخرون عن نظريتها وعلمها وخبرتها عن تاريخ الفلسطين وحقائق السياسية والثقافية والحضارية وعن احتلال اليهودية الصهيونية، ولها مهارة لتحفيظ والتذكير الأحداث التاريخية، ويصف الكاتب عن معرفتها " نعطيهم معلومات صحيحة ابّلاش أحسن ما يشتروا الكذب من اليهود بصاري " ويستخدم العكاويون قولها عند الحاجة، ثم يعيدونه إلى أطراف ألسنتهم [147].. تكون ست معارف في حياة جولي ووليد تأثيرا عظيما وتساعد لتحيقق أحمالهما ولتزويد رغبتهما، ويبين عنها " يا لها من عكاوية نادرة مرت في حياة جولي ووليد مثل نسمة حقيقية مع أنها عاصفة هوجاء لا تقوى على حملها تعرف إليها وليد قبل زيارة جولي لبيت جدها بيوم واحد فقط، قدمتها إليه نصيحة من جميل حمدان، صديقه القادم العائد من زمن يساري النكهة، كانا فيه طالبين في مدرسة لتخريج كوادر الأحزاب الشيوعية في موسكو وفيها اقتسما معا عش اليهودية الروسية لودلاميلا بافلوفا " ما في حدى بقدر ساعدك عزيزي وليد غيرالست معلومات هذا رقم تلفونها احفظوا في جوالم ."[148]

تقوم ست معارف بخدمة وليد وجولي في زيارتهما كخدمة أم لولدها، ترحب فاطمة بوليد وجولي بشوق من ترغب في احتضانه بذراعيها القصيرتين الذين بالكاد تضمان نصف خاصرته لو راقصته، لكنها لم تتردد وقبلته على وجنتيه وهمست في أذنه قبل أن تسحب شفتها الرفيعتين الشبيهتين بحواجب منتوفة

[146] المصدر نفسه، ص 15.

[147] المصدر نفسه، ص 16.

[148] المصدر نفسه، ص 16.

" بوسة من بنت بلدك بتحبسك في عكا العمر كله، بدك تحبسيني بسجن عكا القديم ؟ ضحكت وهمس لنفسه لكيلا تسمع العكاوية المحمصة ما قال " أغلب ازلام عكا رحلوا عن المدينة سنة الثمانية والأربعون واتغربوا وما نفعهم كل البوس اللي باسوه، ولا حتى حفلات الجنس الهستيرية التي سبقت الرحيل وابتسم حزنا وسعة المساحة التي باعدت بينهما ."[149]

فريال الهزيل:

تكون هذه الشخصية حين يحكي الروائي بين سرد الرواية عن الحكاية التي تلمح عن أحوال الفتيات التي تحب للخروج من تقاليد القبيلة، فريال الهزيل بدوية من النقب في الثامنة عشر من عمرها لم تعرف الخيمة، ولم تجمع حطبا لنار قهوة رجال القبيلة لم ترع غنما لم تعلق جرسا في رقبة جدي، ولا قرطين من ذهب أو فضة في أذنيها مثل بدويات الزمان، فريال ابنة هذه الأيام زينت أذنيها معظم الوقت سماعتين صغيرتين منفصلتين ب " أي بود " لم تجد من يدلعها فدلعت نفسها ونادتها " فوفو " رفضت فوفو بسخونة مشاعرها على وقع أغنيات أحبتها، تميال جسدها مثل سنبلة حركتها ريح رغباتها لم يحمل أنفها قرطا، بل كبرياء صبية تعشق أنوثتها، فوفو خرجت على تقاليد القبيلة فوفو تمردت على بداوتها، فوفو ودعت مدينتها رهط ورحلت ."[150]

يظهر الروائي أمامنا هذه الشخصية لتنبيه عن توعية المجتمع للمرأة التي تحب أن تعيش كما تحب يعنى الحياة العصرية ولكن تمنع قبيلتها عن اختيار حياتها. " أقامت وحدها بلا محرم أو وصي، في شقة صغيرة في تل أبيب ثلاثة رجالة اتفقوا على التخلص منها ، الأول شقيقها الأكبر الذي لم يجد في مشاركته جيش الاحتلال جرائمه ضد أبناء شعبه وجيرانه العرب عارا ووجد العار كله في خروج فريال إلى حياتها التي أرادتها، الثاني شقيقها الأصغر الذي لم يحتمل التحاقها بعمل في تل أبيب يحررها من رقابتها، والثالث ابن عمها

[149] المصدر نفسه، ص 47-48.

[150] المصدر نفسه، ص 84.

لحمها ودمها كما يقولون نذرتها القبيلة له يوم ولادتها شارك في قتلها كي لا يسبقه غريب إلى تمزيق بكارتها، ثلاثة أبطال لتراجيديا انتهت بفريال جثة ملقاة في بئر قديمة مهجورة على مقربة من مدينة الرملة [151]. هذه الشخصية تقول للمجتمع عن الحرية والاختيار والمكافهة الفردية للمفسدين والمفتنين وهي أيضا ضحية وتعرضت فريال من أخويها ومن أسرتها للقساوة والمعاناة وسوء الخاتمة.

كواكو:

تظهر هذه الشخصية في الرواية حين تدعو إيفانا لتناول العشاء معها مع المدعوين مثل جولي، وليد، وليم وسيدة لين، هو صديق ليا بورتمان شخصية غريبة ويمكن القول من المجازفة، أنه ظريف أيضا مع أنه يبدو في كثير من الأحيان غامصا ككلمة سر، ومحيرا كلغز، ويثير تسؤلات غير تقليدية، وكان ذلك يقلق وليدا أحيانا أما جولي فقد كانت ترى في موقف وليد بعض المبالغة وتميل إلى استظراف كواكو، وتقول أن الجلسة معه مرة أو مرتين اثنتين في العام يضيفان تشويقا إلى وقائع حياتهما .[152]

يتعرّف كواكو عن نفسه لأحبابه بكلام جميل وبلغة أنيقة كما وصف الكاتب " لها نبرة مكان قصر بالحنفهام الملكي تتجول على ملامحه، من وقت لآخر تلاوين لانفعلات أرستقراطية "، وهو لن يكره أن يظهر عن ذاته حتى وهو يتعرف أمام الآخرين بأن لا أصل له، يقول إنه ولد لأب نيجيري لم يعرف عنه تدينه أو ذهابه إلى مسجد أو كنيسة ذات يوم.

يتذكر وليد عن كواكو حين بّين والديه عن شخصية غريبة عن كواكو في مطعم سوق المغربي في منطقة كوفنت غاردة وسط لندن. أمه كانت مسيحية من أرجنتينية، وحين بلغ الخامسة من عمره يطلّق أب أمه، بعد طلاقها رحل مع أمه إلى بيونس آيريس مسقط رأس أرجنتينية، ولكن بعد الأيام زعمت للزواج وتزوجت من مكسيكي مهاجر، وهاجر مع الأم إلى نيورك لكن حياته مع زوج أمها قصيرة، وهو طرد كواكو من بيته،

[151] المصدر نفسه، ص 85.

[152] المصدر نفسه، ص 24.

حين لم يكن تجاوز العاشرة من عمره فتجوّل وتشرّد سنوات طويلة لبناء حياة مستقرة. يصادف كواكو ليا مصادفة وتكون هذه المصادفة إلى الحب وتحب أن تعيش معه.

جميل حمدان:

صديق وليد وزميله سابقا في المدرسة الحزبية الشيوعية في موسكو "تهجر في مسارات الكفاح الوطني، تجره التفاصيل حيثما ينتقل رجال يحملون بنادق ويرفعون شعارات خفيفة وأخرى ثقيلة ترفرف في الهواء، ويستقر حيث يستقرون، أملا في التحرر والعودة ولا يعود ولا يعودون "، ثم عاد واستقر في حيفا بعد زواجه من لودا، وقد استضاف وليد في حيفا وصاحبه في رحلته وتنتقلاته.

أم جميل:

استضافت وليد وحدثته عن جمال حيفا، وظهرت بصورة الأجداد الذين تمسكوا بالأرض ورفضوا الخروج منها، فقد قالت لوليد " بس اللي بعيش هانا "هانا" في حيفا بيظلو بعقله يا بني، المجنون هو اللي بيدشر بلده وبهاجر.

سلمان جابر:

رافق وليد في رحلته في القدس، وعرفه بالدكتور فهمي وزوجته لمساعدتهما في تنفيذ وصية إيفانا.

عايدة:

زوجة سلمان، وقد رافقت زوجها في رحلته مع "جولي " ووليد في القدس، وتآلفت مع "جولي " وقضيتا وقتا جميلا مع بعضهما.

سمية: اليهودية المقيمة حاليا في منزل مانويل أردكيان والد جولي.

أم وليد:

هي شخصية التي ظهرت في رواية " السيدة من تل أبيب " كشخصية رئيسية، تظهر في رواية، مصائر كشخصية ثانوية، يقتصر دورها على مكالمات هاتفية يجريها معها ابنها وليد، وهو يقف فوق أنقاض منزله، ليؤكد خلال مكالماته معها أن الفلسطينيين ما زالوا يحفرون معالم الأرض في ذاكرتهم مهما ابتعدوا ومهما أبعدوهم عنها.

رومة:

اليهودية التي تقيم في " منزل عروسي " آخر البيوت الخاصة الرئيسية في حارة دهمان، وقد نسبت كل ما وجد في المنزل من تراث فلسطيني إلى عائلتها اليهودية.

أيالا:

موظفة في وزارة الداخلية الإسرائيلية تتابع طلب جنين في لم الشمل لزوجها باسم، وقد مثلت المسؤولين الإسرائيليين وعنصريتهم في التعامل مع الفلسطينيين.

مارك:

فنان تشكيلي ونحات وروائي، يعيش في مستعمرة لفنانين يهود، استعارت جنين منزله في روايتها ليكون سكنا لها ولباسم. من خلال هذه القراءة النقدية في شخصيات رواية "مصائر"يتبين أن الرواية برعت في تصوير الشخصيات، فقد كان الحوار انعكاسا لنفسيات الشخصيات، وسلوكهم مرايا تظهر حقيقتها وكوانمنها.

المبحث الثاني: ملخص الرواية "السيدة من تل أبيب"

"السيدة من تل أبيب" الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام 2009 م هي الرواية الأولى لربعي المدهون الذي أصدر سابقا مجموعة قصصية وسيرة ذاتية. تقع القصة في ثلاثة خطوط سردية يمسك بها الراوي (ربعي المدهون) وشخصية (وليد دهمان) مؤلف رواية " ظلان لبيت واحد " وشخصية الممثلة الإسرائيلية (دانا أهوفا).

تبدأ الرواية عن حكاية وليد دهمان الذي هو بطل في هذه الرواية، هو الذي يقوم بالزياة أمه وعودته إلى وطنه " الفلسطين " بعد سنوات كثيرة التي تمتد إلى ثمانية وثلاثون عاما، حيث يسعى وليد لزيارة أمه ووطنه محاولات شتى ولكن كلها فشلت، أخيرا تنجح محاولاته، وهو يتصل عبر الجوال امه ان يعلم بزيارته ولكنها لم تأمن فورا بسبب خبرتها، " غدا صباحا يصل وليد دهمان إلى قطاع غزة، لا تصدق أمه الخبر، تعتبره إشاعة، خرافة، مثل عودة الفلسطينين إلى بلادهم[153] "، قد يكرر ابنه هذا الأمر بعدة مرات يعنى " العودة إلى وطنه "، يقنع بأمه هذا الأمر، وهي تنتظر عودته منذ زمن قديم كما يحب وليد، تسأل كل صباح: " يا ترى رح يرجع ابني وأشوفه قبل ما أموت.. واحكي له اللي خبّيته عنه ويحكي لي اللي مّ اسمعتوش ؟!، ثمانية وثلاثون عاما وهي تسأل وتكرر السؤال، تنصت لهمس الريح يوشوشها صدى السؤال، تلملم خيبتها وتطويها مع الفراش، وفي المساء، تنام مع الخيبة وتستيقظ صباحا على السؤال، وحين هاتفها وليد وكادت تسمع صوته في لندن: " اني جاي على غزة يمة.. راجع لبلاد " لم تصدقه، وهذت محمومة ترتعش بالمفاجأة: " وإيش بدو يجيبك بعد الغيبة الطويلة يمّه ؟!. [154]". وقعت النكبة في فلسطين عام 1948 م ، التي قد سببت إلى تفريق أمم الفلسطينيين إلى أنحاء العالم، كان وليد ممن هاجروا من وطنه باضطرار الحالة، وهو يجول إلى أنحاء العالم للملجأ ومكان المستقر، وأخيرا يقيم في لندن مع حملية جنسيتها ولكن الحنين إلى الوطن والعودة إليه يستمر دائما في قلبه وأخيرا ينال جهده في السعادة.

---

[153] المدهون، ربعي. السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط3، 2010 م، ص 3.

[154] المصدر نفسه، ص 3.

عتبة العنوان والغلاف:

نقرأ عنوان هذه الرواية في طرق مختلفة ؛ السيدة: مبتدأ، وشبه الجملة خبره، أو أن شبه الجملة صفة ويكون الخبر محذوفا. يعني بكلمة " السيدة " هي التي لها السيادة من عداها، في الواقع أو الجدارة، هي السلطة التي لها السيادة في تل أبيب، فهي صاحبة الجلالة التي يخطب ودها ويلتمس رضاها في الداخل والخارج وفي المحافل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والفنية والأدبية، وعلى الاحتمال الثاني يكون شبه الجملة نعتا للمبتدأ، ويكون تقدير العبارة: (السيدة التل أبيب)، ولا يتكمل المعنى إلا بتقدير محذوف، على فرض أن السيدة المقصودة هي (دانا أهوافا) رفيقة البطل (وليد دهمان) في الطائرة، أما على فرض أنها السلطة السياسية فيمكن تقدير أنها رفضت حضور اللقاء أو تسببت في منع حدوثه.

يستعد الكاتب أن يعطي الاسم الجديد لمدينة أقيمت على أنقاض مدن فلسطينية، باعتباره اسما عريقا ينسب إليه تلك السيدة، كما يقال إن فلان من القدس أو حيفا، وكذلك فإن الوصف بالسيادة فيه معاني كثيرة من الاحترام والتقديس والإجلال للمحتل بدعوى أنسنته، بالرغم من قيامه بالاحتلال. يظهر في غلاف من الرواية شاب في نهايات العقد الثالث من عمره، أو بدايات العقد الرابع يجلس على أريكة، يضع رجلا على رجل، توحي قصة شعره وبنطاله الشار لستون، أن الصورة تنتمي إلى عقد السبعينيات من القرن الماضي، وبيد الشاب سيجارة في فمه أو قريبا منه، وعيناه مغممضتان أو تنظران إلى الأسفل جهة الكتاب كما لو كان الشاب يفكر في أمر ما.

الصورة التي تظهر في الغلاف هي صورة ربعي المدهون، أخذت هذه الصورة من مرحلة شبابه، وضع الصورة لإثبات وجهة نظره ومبادرته في الرواية وكذلك أن البطل في هذه الرواية " وليد الدهمان " هو ربعي المدهون نفسه. يرى رواية أخرى من إصدار المؤسسة العربية عنوانها " ظلان لبيت واحد " من تأليف كاتب في الغلاف، إذن فالغلاف هنا ليس مجرد غطاء لمحتويات الرواية وتعريف باسمها وكاتبها، بل أداة يستخدمها

المدهون كي يفهم للقارئ منذ النظرة الأولى في مراوغة سردية، كي يعرف أنه بصدد اكثر من كاتب، وأكثر من رواية.

الشخصيات الرئيسية

وليد دهمان:

هو البطل في هذه الرواية، هو الذي يعتبر مرآة للكاتب ربعي المدهون أو ظلا له، هو قادم من لندن إلى فلسطين بزيارة أمه المحبوبة بعد ثمانية وثلاين عاما، تبدأ الرواية بحكاية زيارة البطل من لندن إلى فلسطين يقول " غدا صباحا يصل وليد دهمان إلى قطاع غزة، لا تصدق أمه الخبر، تعتبره إشاعة، خرافة، مثل عودة الفلسطينيين إلى بلادهم، تسأل كل صباح: " يا ترى رح يرجع ابني وأشوفه قبل ما أموت.. واحكي له اللي خبيته عنه ويحكي لي اللي م اسمعتوش ؟ ثمانية وثلاثون عاما وهي تسأل وتكرر السؤال، حين هاتفتها وليد وكادت تسمع صوته في لندن: " اني جاي ع غزة يمة.. راجع ع لبلاد " لم تصدقه، وهذت محمومة ترتعش بالمفاجأة: " وايش بدو يجيبك بعد ها الغيبة الطويلة يمه ؟ " [155]. يلقى الكاتب خلال سفره في الطائرة سيدة من إسرائيل المسمى " دانا أهوفا " التي بطلة في هذه الرواية، ويدور بينهما الحوار والحوار يسيق إلى الحب، البطل يلعب دورا عظيما في سرد الرواية وتشكيل الأشخاص.

دانا أهوفا:

هي بطلة في هذه الرواية، هي ممثلة من الإسرائيل، دانا تبحث كأي امرأة عن الأمان في الحب والأمان بجوار الحبيب، يصف الكاتب عن البطلة " تلقي جارتي بحقيبة كتف صغيرة بين قدميها، ثم بجسدها على مقعدها لصق الشباك، تنحني وتتناول من الحقيبة كنزة صوفية رقيقة زيتونية اللون وينطالا من مخمل بني فاتح، تدخل رأسها في الكنزة وتخرجه من فتحة الرقبة، ثم تشد طرفيها إلى أسفل قليلا فوق الكتفين، تدير لي

[155] المصدر نفسه، ص 3.

ظهرها وتدفع بذراعيها خلفه بالمقلوب، تفك أزرار بلوزتها من الخلف ، تنزل طرفيها عن كتفيها تباعا، تلقي بالبلوزة على الأرض، وتتركني حائرا أقلب نظراتي بين الدهشة وبعض جسدها الذي يلتمع تحت ضوء المصابيح، تدخل ذراعيها الأيمن، ثم الأيسر في كمي كنزتها، ثم تشد أطرافها إلى أسفل، إلى أن تستقر حول خصرها، تمد ذراعيها بالمقلوب خلف ظهرها، وتفك مشبك الحمالتين، تسحب بيدها اليمنى حمالتي صدرها، وتضع على المسند الفاصل بين مقعدينا، قشرتي ثديين بحجم برتقالتين يافاويتين " .[156]

يصادف البطل أي وليد دهمان خلال سفرها في الطائرة إلى تل أبيب، "تقترب مني سيدة تقارب السبعين، تتوقف إلى جانبي تماما، ولا تنظر إلى أرقام المقاعد فوق رأسي، من خلفها تظهر فجأة، امرأة شقراء جميلة تبدو في الثلاثينات من عمرها، يلزمني ظهورها بالكف عن التفكير وإرجاء جميع حساباتي السابقة مؤقتا، أتمنى أن تجلس الجميلة في المقعد المجاور لي، أكرر التمني مرات مثل دعاء، تبدي الجميلة، وقد تجمدت نظراتي في الطريق إليها، لهفة في العثور على مقعدها، ستكون رفيقة رحلة ستمتد أكثرمن خمس ساعات في أعماق الليل " [157]. تجلس قرب وليد دهمان، تتعرف مع وليد دهمان، ويتبادل بينهما الذكريات والتجربات والمسائل الشخصية، وينتقل الحوار بينهما إلى الحب والعشق.

أم وليد:

هي أم بطل في هذه الرواية، تكون وحيدة بعد وفات زوجها، لم تستعد أن تتزوج بعد وفاة زوجها، تفرق النكبة التي وقعت عام 1948 م بين عائلتها " كان بيت أم وليد وما يزال، هو كل ما تبقى لها من دنيا توشك على طي زمانها، لا زوج ولا أبناء حولها أو بنات، بيتها هو الكيان الوحيد الذي يقيم معها، تعشقه وتمارس غيرتها عليه، تحاوره كلما انفردا وحيدين [158]، تركت أم وليد بيتها الذي هلك بسبب هجوم اليهود وتسكن شقة " يليقي وليد أمه في شقة لم يدخلها من قبل، يطلقون عليها " شقة العزابي الأخير " تتكون الشقة من

[156] المصدر نفسه، ص 57-58.

[157] المصدر نفسه ، ص 55- 56.

[158] المصدر نفسه، ص 10.

غرفتين ، خصصت إحداهما المطلة على شارعين لإقامته، تقع شقة على الطابق الرابع، في عمارة بنيت على خط وهمي يفصل بين مخيمي بيت لاهيا وجباليا ويجعلها تنتمي لبلدتين [159]"، وتنتظر من هنا ولده المحبوب بزيارتها بعد وقت طويل، كانت أمنية نهائية قبل موتها برؤية ولدها، تلعب دورا مهما في هذه الرواية، وهي شخصية رئيسية.

عادل البشيتي:

عادل البشيتي يبحث عن حبيبته ليلى التي باعد الإحتلال بينه وبينها، هو فلسطيني حاصل على الجنسية الألمانية، يعمل موظفا في أحد فروع (دوتش بنك) في فرانكفورت، يعود إلى قطاع غزة الذي غادره للدراسة قبل ثلاثين عاما، عن طريق مطار بن – غوريون، مرورا بحاجز إيرز، حين كان في التاسعة عشرة من عمره، أحب عادل ابنة جيرانهم، ليلى دهمان (وهي إحدى قريباتي بالفعل، إذ لا دهمان هناك غير عائلتنا، التي يشار إليها بالدهامين)، قبيل التحاقه بإحدى جامعات فرانكفورت، يأخذ عادل عهدا على نفسه بأن لا يتزوج غير ليلى، وتعده هي بالانتظار إلى أن ينهي دراسته ويعود، لكن عادل لا يعود، تقع حرب 1967، ويسقط القطاع تحت الاحتلال ولا يعود، يقرر متابعة دراسته ويحصل على ماجستير في إدارة الأعمال، يظل عادل مترددا في الزواج لسنوات، يحلم خلالها بالعودة إلى ما اعتبره حبه الأول والأخير، وإلى ليلى التي لم يكف عن السؤال عنها كلما هاتف والدته سمية في غزة، إلى أن جاء من يخبره بأن ليلى تزوجت من ابن عمها وضاح (وهو قريب لي أيضا)، يسقط حلم عادل من نفسه كما يسقط من السماء شهاب محترق .[160]

نور الدين:

هو الذي يحب دانا أهوفا ولكن يفرق بينهما المشاكل السياسي ويفهم أن الحب والسياسة لا يجتمعان معا لمن هو مثله، تدخل الشخصية " نور الدين " في هذه الرواية خلال حوار بين البطل والبطلة في الطائرة،

[159] المصدر نفسه، ص 4.

[160] المصدر نفسه ص، 101.

كان نور الدين يقيم في لندن وكانت دانا أهوفا في تل أبيب، وهي تجبر نور الدين لعودة من لندن ويقيم معها في تل أبيب، ولكن لم تكون محاولتها في النجاح وهي تقول للبطل : " لكني لم أحلم قط ، حين ذهبت للقاء نور الدين في شقة على الطابق السادس، في عمارة من سبع طوابق في حي " سويس كوتيج " في لندن، تلقيت، أول من أمس، وكنت أتابع زيارتي لكالفورنيا ، رسالة نصية على هاتفي الجوال، تطلب إلي الحضور إلى لندن، وتحدد لي موعد اللقاء ومكانه، كان اللقاء بالنسبة لي أكثر من مهم، ولو لم أتلق تلك الرسالة، لسعيت بنفسي إلى ترتيب موعد مع نور الدين بأية طريقة، كنت بحاجة إلى رؤيته وإطلاعه على سر كبير ."[161]

الشخصية الثانوية:

قدم الكاتب في هذه الرواية العديد من الشخصيات الثانوية، وليس ممكن أن نذكر كل منهم، ولكن هناك يناقش الباحث عن الشخصيات الثانوية المهمة.

عبد الفتاح: هو سائق السيارة في الرواية، يساعد البطل حين قدم من لندن إلى فلسطين، ويتعرف للبطل الأماكن والمشاهد والأحوال والمباني وأخيرا يذهب البطل معه إلى المطار بعد زيارة فلسطين.

نصر الدين: وهو ابن خال البطل، تعيش بطل الأم في شقته يصف الكاتب نصر الدين " كان نصر الدين شابا يافا، طويل القامة ذا كتفين عريضتين مثل صدر جبل، وساعدين بقوة رافعة ".[162]

أحمد نمر دهمان: وهو والد بطل الرواية، قد توفي حيث كان البطل في صغر سنه، يشرح الكاتب عن هذه الشخصية" كان أحمد نمر دهمان، موظفا في مركز توزيع التموين التابع لوكالة غوث اللاجئين، كان شابا وسيما، متعلما و ودودا، تركض خلفه محبة الناس أينما حطت خطاه".[163]

---

[161] المصدر نفسه، ص 59،

[162] المصدر نفسه ص 5.

[163] المصدر نفسه ص 23.

محمد: وهو من الشخصية الثانوية وكان صديق البطل في الرواية، يزور البطل محمد بعد عودته إلى الوطن، يقول عنه "كان محمد في مثل سن وليد، كان يعاني من ضعف في بصره مثل أبيه، كانت لمحمد عينا أمه جميلة الواسعتان"[164].

[164] المصدر نفسه ص 27.

المبحث الثالث: خلاصة "طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة"

هذا الكتاب هو سيرة ذاتية للكاتب ربعي المدهون، إنه من النادر جدا أن نجد كتبا ذاتية تأخذنا من مجرد سرد الأحداث الواقعية إلى عمق التجربة الإنسانية، وما يميز هذا الكتاب هو أن الكاتب لا يقتصر على سرد تجربته الشخصية فقط، بل يستكشف أيضا تجربة الإنسان في فلسطين بأسلوب روائي مدهش. يقدم الكاتب لنا تفاصيل حياته الشخصية وحياة الشعب الفلسطيني. يقدم ربعي المدهون نفسه وصورة الشعب الفلسطين، ويرى التناقض وتنوع العناصر خلال سردياته، الماضي يظهر من خلا الحاضر والحاضر يظهر من خلال الماضي. هذا الكتاب هو مجموعة من الحكايات ضمن سيرة ذاتية، ليست مجرد "الشخصية "بل هو سيرة الجماعة التي تحيط به، تشمل هذه الجماعة عائلته الصغيرة (الأب، الأم، الأخوة، الأجداد، العمات، والأعمام)، وعائلته الأكبر التي تمثلها أهل مدينته (المجدل) ومخيم خان يونس، وتمتد حتى تشمل العائلة الموسعة التي تضم الشعب الفلسطيني بأسره، وتمتد أيضا إلى الأفراد والأماكن التي سافر إليها (الإسكندرية، القاهرة، دمشق، عمان، بغداد، موسكو، وغيرها). يستخدم أسلوب سردي يحتفي باللغة ويثيرها بمعاني متعددة وعبارات جميلة، بالإضافة إلى حوارات عميقة وممتعة. كلمة "سير" على غلاف الكتاب تشير إلى نوع معين من الكتابة،

ولكن تجربة القراءة توجهنا نحو نوع من الكتابة ليس هو سيرة ذاتية المعتادة. قد تكون بتصوير بسيط، وربما يكون مع قليل من التجاوز أقرب إلى ما يسمى ب"سيرة ذاتية خيالية "، ومع ذلك، فإنها ليست سيرة توثيقية، وإن اقتربت عناصرها، في "طعم الفراق "، هناك يتجاوز السيرتين الذاتيتين (الوثائقية والسيرة الذاتية)، وما هو خيالي، حيث يجمع هذين الشكلين، وتتناغم مع روح الحكاية والأسطورة، بالإضافة إلى التاريخ الشفهي وغير الرسمي، تعيد إنشاء الشخصيات والأحداث بطريقة تمزج الواقع بالأسطورة، هذا الأسلوب الكتابي يميل تجاه النزعة في موضوعه ومعالجته، حيث يكون السرد إعادة للشخصيات والأحداث، ممزوجا بين الواقعي والأسطوري.

يعتمد الكاتب كثيرا على عنوان رئيس الكتاب " طعم الفراق "، لنقل لحظات الذكرى والأحلام والتأمل ويقدم في لغة تستحضر مفردات الحزن، والألم، والحنين، والندم، والظلم واللوعة، كما أنه يثير الغضب والحقد والسخط تجاه مصادر البؤس والشقاء المختلفة. أما العنوان الفرعي " ثلاثة أجيال في ذاكرة "، فهو تعبير عن الأجيال التي تجتمع في هذا النص، بدءا من جيل الجد سليم، وجيل الأب خليل، ثم جيل الأبناء ربعي وأخوتاه، ومع ذلك هناك جيل رابع في بعض لحظات في النص، وهم يلعبون دور الوسيط بين ربعي ووالدته، يعني ابنتي أخته رحاب (أنسام وشقيقتها)، على سبيل المثال، حينما تقوم أنسام بتوصيل المكالمة عندما يتصل ربعي بجدته، ومع ذلك، يبقى الكاتب محتفظا ببعض الغموض حول هذا الجيل الرابع ولا يشرحه تماما. يتشابك الكاتب بين الأحداث والوقائع، والنكبة، والذكريات، والغربة، والمنفى مع سيرة ذاته في هذا الكتاب، وهذا الأمر يوضح ربعي المدهون " يقول رشاد أبو شاور قاصّ وروائي: نص مؤثر راق وحميم، شاحذ للذاكرة، مستواه الفني عال، قريب من مسرح بريخت، يكتبه المؤلف تحت أنظار المتلقي، ثم يأخذه إلى الجحيم الفلسطيني، كتاب فذ يشكل إضافة للإبداع الفلسطيني، هو مزيج من الرواية، والمذكرات، والسيرة، وهو رحلة أجيال في تتابعها حياة وإرادة، وغربة عن الوطن، وبناء حياة في المنافي، ولكن فلسطين باقية، حية، تنبض في الذاكرة والعقل والقلب، والأجيال تتوارثها معنى لوجودها وتواصلها ."[165] المؤلف يأخذنا في رحلة خاصة وشيقة إلى عالم حياته الشخصية وأصوله، مستعرضا مساره منذ الطفولة في مجتمعه وبيئته العائلية. يستعرض لنا تفاصيل حياته اليومية مع أفراد عائلته، من الأب والأم والإخوة والأقارب والأصدقاء، وكيف تأثرت تلك العلاقات بمسقط رأسه المتنوع والمليء بالتنوع الثقافي، ويصف مشاهد المدينة والأماكن التي نشأ فيها والتأثير الذي كان لها على شخصيته وتجربته مثل خان يونس، القدس، وحيفا. ومن خلال هذه الرحلة الشخصية يتعمق المؤلف في استكشاف فلسطين ككل، مستعرض تاريخها وتراثها والتحديات التي واجهها،

[165] المدهون، ربعي، طعم الفراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001 م، ، ص 379.

ومن ثم ينتقل الكاتب إلى البلدان المهجورة مثل مصر، سوريا، عمان، عراق، الروسية، ويستعرض قصص الهجرة والشتات والمنفى، وكيف تأثرت حياته وحكايته بتلك التجارب باستخدام لغة جميلة وأنيقة، يحول المؤلف هذه الذكريات والتجارب إلى نص مؤثر يفتح أمام القارئ أبواب التأمل والتحليل والحلم والشعور بالتشريد والغربة، يصنع قصة حياته بأسلوب سردي رائع وكلمات جذابة، مما يجعلها تجربة قراءة لا تنسى.

كتب السيرة الذاتية الجماعية تمثل جسرا يربط بين الحدث الواقعي والتجربة الإنسانية الجامعة، وفي السياق الفلسطيني، نجد أن هذه التجارب الثمينة ما زالت تحتاج إلى توثيق ونقل من عالم الشفوي إلى عالم الكتابة المتميزة، على الرغم من الكثير مما كتابته حولها، إلا أن أهم حقائق تلك التجارب ما زالت تختبئ خلف سرد الحكايات الشفوية التي تنقل من جلسة إلى أخرى، لكن هناك من يأتي ويحمل هذه الحكايات ويجسدها في كلمات تصبح جزءا من التراث المكتوب والمحفوظ في ذاكرة الكتب، إنهم يقومون بتسليط الضوء على تلك التجارب القيمة ويصورونها بأسلوب يجعلها تستحق التعميم والاهتمام، بذلك تصبح هذه الذكريات والتجارب ليست فقط ذكرى لمن عاشها بل صورة جميلة من تاريخ وتجربة شعب بأكمله.

هكذا يندمج الوعي بشكل عميق في عملية تأليف الحكاية، حيث لا يقتصر على الذاكرة فقط، بل ينسجم مع الأحداث المتخيلة التي تتناغم مع الحقيقة. يبدأ الكاتب الكتاب بعنوان "سفر الفلسطينيين"، بنية واضحة، حيث يهدف بعمد إلى جذب انتباه القارئ لأرضه المقدسة، وبالفعل تكون فلسطين ليست مجرد واقع تاريخي، بل هي أسطورة حية.

ويقول ربعي المدهون " وتكون فلسطينيا، مسيحا ونبيا تكون، آياتك حول رقبتك معلقة، مثل قلادة من حروف مقدسة معلقة، على كتفيك يرتاح صليب، تمشي في الأرض مبشرا بسلام يأتي ولا يأتي، لأن أرضك مقدسة بالأساطير، في وديانها تتقاتل شعوب وقبائل، تحت سمائك ترتكب الخطايا، من بحرك من نهرك

يعبرون، فوق قمم جبالك يشعلون حطب أرزك و يتناحرون، وعلى جدران معابدك يسيك دم، وفي حقول قمحك تنبت جثث الضحايا ."[166]

يفتح الكاتب الستار على عالم مملوء بالمعاني والرموز في بداية الكتاب، يروي لنا عن المكان والناس والقضية والهجرة وحتى عن فقدان السلام لمن يستحقونه. كل هذه العناصر تتداخل بأسلوب ساحر في الأسطورة الفلسطينية والتاريخية. وما يميز هذا الكتاب هو رغبة المؤلف في أن يكون صاحب الأسطورة، وأن يكون شخصا الذي ينهض بمقلاع الحقيقة ويكشف عن ظلم أبناء العمومة من نسل إبراهيم. يسعى المؤلف لتصحيح علاقات القربى وليعيد صياغة الحكاية بشكل يعزز من قيم العدالة والسلام.

ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أجزاء، حيث يستعرض في كل جزء موضوعات مختلفة قد تكون واقعية أو خيالية، ويقوم بربط هذه الموضوعات بأحداث من حياته الشخصية. وهذا ما يجعل هذا الكتاب سيرة روائية مثيرة تجمع بين الخيال والواقع بطريقة جميلة ومميزة.

الجزء الأول:

يعالج الكاتب في هذا الجزء عن سيرته الذاتية، مليئة بتجربات الطفولة البريئة، وصدق الصداقات ونقاء الاستمتاع بألعاب الصغر وتحدي ظروف التهجير والاعتداء والمخيمات كلها تحتوي عل عبر ودروس في الإيمان والصبر والأمل. حيث كانت ذكريات عن وفاة والد الكاتب مسبب في إلهام على كتابة هذا السرد الرائع.

حيث يقول: " وهكذا، غادر القطار نهائيا محطته في ضاحية ريتشموند، بصورة طبيعية، لولا تلك المفاجأة التي اخترقت كل هواجسي وذكرياتي، ففي اللحظة التي خرج فيها القطار من حدود الضاحية وزاد من سرعته، خرج أبي من ظل بعيد في الذاكرة قاطعا المسافاة، منذ وفاته حتى الآن، لكي يهبط علي في القطار

[166] المصدر نفسه، ص 7.

، جثته لفت بملاءة بيضاء مثلما رأتها أمي قبل ثمانية وثلاثين عاما، في حينه قالت أنها رأت بركة صغيرة تخثر دمها عند خاصرته اليسرى، مات أبي.... أنهى أربعة وثلاثين عاما من عمره ومات ".[167]

بعد سردياته حول سيرته الذاتية يدخل إلى باب النكبة التي وقعت عام 1948 م، والتي أدت إلى هجرته القسرية من وطنه إلى بلاد مختلفة، بداية من اللحظة التي اندلعت فيها نكبة حتى نزوحهم إلى غزة ، يقول:"حل إبريل / نيسان 1948 على البلاد مثل عاصفة شؤم، ولم تكن الهدئة التي دعت إليها الأمم المتحدة في اجتماع خاص، عقد في مطلع الشهر، سوى كذبة يومه الأول، فقد أطلقت منظمة هاغاناة اليهودية أولى حملاتها العسكرية، في إطار سلسلة من ثلاث عشرة حملة، تضمنتها خطتها المعنونة ب " توخنيت دالت " (الخطة د)، بهدف توسيع القطاع اليهودي باتجاه شرق البلاد بالقوة المسلحة ، واستهدفت ثماني عمليات يهودية قرى عربية تقع خارج المنطقة المخصصة لليهود في خطة التقسيم، التي اعتمدتها الأمم المتحدة في 29 نوفبر / تشرين الثاني 1947، ورفضها الجانب العربي، وفي فترة نفسها، أطلقت الهاغانات عملية " نخشون "، وبموجبها تلقى قائدة المنظمة أوامر بتدمير جميع البلدات والقرى العربية، الواقعة على الطريق بين خلدة والقدس، في حال قاومت، أو اعترضت تقدم قواته، واحتلالها بصورة دائمة، حتى لو أدى ذلك إلى طرد سكانها، وسقطت قرية القسطل الواقعة غربي مدينة القدس بيد الهاغاناة، وقتل في محاولة استدادها القائد الفلسطيني عبد القادر الحسيني، واتسع نطاق الحرب، ودخلت البلاد مرحلة حرجة وخطيرة " [168]. ثم توالت محطات حياته، بدءا من رحيله إلى مصر لمتابعة دراسته، ومن ثم ترحيله إلى عمان، ومشاركته في حروب المقاومة ضد الجيش الأردني، تلك الرحلة المليئة بالتحديات والمصاعيب تجلت في مساره من العراق إلى دمشق، وصولا إلى محطة النهاية في بيروت. خلال

[167] المصدر نفسه، ص 16.

[168] المصدر نفسه، ص 38.

هذه الرحلة، شهد العديد من الأحداث التاريخية المهمة، مثل محاولة تدويل غزة، وتعامله مع عبد الناصر، ومواجهته للنكسة، وكذلك الأحداث المهمة التي تأثرت في قلبه. ويناقش أيضا عن سيرة المجدل

هي سيرة المجدل كثوب مطرز بأيدي أهلها، حيث تمتزج فيه الألوان، إنها سيرة أهل الجنوب، نكبتهم وضياع فلسطين منهم، شتاتهم وغربتهم. إنها سيرة المهلكين من الفلسطينيين، هي سيرة لربعي المدهون والمجدل توثيق للموت والفرح، للموتى والشهداء، للحلم بالعودة، هي حكايات أمه وذكرياتها التي انتقلتها عبر البحار من هاتف تنطق أمه لطيفة الكلمة من قلب غزة إلى قلبه في لندن.

بدأ ربعي روايته بجملة تحمل في طياتها عمقا تاريخيا ورمزية قوية، جملة تعبر عن تطلعات وتحديات الشعب الفلسطيني، وتنبؤا بالصراع والمثابرة التي ستميز قصتهم، في خضم تساؤلات حكاية ربعي وحكاية أهل المجدل عسقلان، حيث تمثلت كل الصفحات السابقة في توثيق شهادات الأناس الذين عاشوا منذ عام 1948 حتى خروجه من غزة، تتحول الآن الحكاية إلى حكاية ربعي المدهون خاصة، ويسرد أيضا عن الذكريات وذكريات المخيمين في خان يونس وأحلام عودتهم. ثم يناقش الكاتب عن سرديات النكبة التي وقعت عام 1948م، وينتهي هذا الجزء عن ذكرياته في المخيم.

الجزء الثاني:

في هذا الجزء، يرسم ربعي المدهون أمامنا أربع مقطوعات تنبض بحياة المخيم، ينقل لنا ملامح تلك الحياة التي جربها بشغف ويفسر العلاقات المتراكمة بين أهل خان يونس وسكان المخيم، ينسج بأنامله البراعة تفاصيل حياتهم وخياله الخصب بطريقة جميلة وممتازة، يقول:" نلم أيامنا من بين عروق العوسج، فلسطين من بين شعوب الأرض ولدنا مرتين: من طين مثل آدم، وكل بني آدم، ومن رمل حين دخلت أسمائنا سجلات الإغاثة وبطاقت التموين، في الرمل زرعتنا الأزنروا ، من بقجها لبسنا، ومن أكياسها شربنا حليبها الناشف وزيت سمكها الملعون، من الرمل صنعنا ألعابا، بين الرمل تزاوجنا، تحت الرمل دفنّا أول الأسرار،

فوق الرمل ترعد السماء تمطر خياما، مثل فطرتنتشر الخيام، الرعد ينبت فطرا من خيام، وخياما نسكن، ونكون ولا نكون " .[169]

يقدم ربعي المدهون أمامنا ذلك الزمن من طفولته في المخيم، يروي بشغفه الذكريات و يمزجها بلمسات من خياله الساحر، وتنبثق أمامنا لوحة ملونة من حياته المليئة بالأحداث والأحلام، يقول:" في بيت عمتي نرتاح من لعنة الخيمة التي تلبسنا مثل قنعة نساء المدينة ومن حيرة الجلوس بين كومة الفراش والوسائد، التي ترتفع إلى مستوى قامتي ، وموقد الكيروسين النحاسي الأصفر، والملابس، وكيس الطحين، وبقية أكياس التموين الأخرى ، وكأننا قطع إضافية لم يعد لها مكان ، يتربع بيت عمتي وسط حقل الخيام المزروعة في الرمل ، مثل " فيلا " أنيقة راقية، فقد بني من الطين، وغطي بسقف من خشب براميل مستعملة، لقد تكلف بناؤه الكثير بالنسبة لأسرة لاجئة، كأسرة عمتي، فقدت كل شيء تقريبا، وقد اضطرت والدتي إلى تقديم بد المساعدة، باعت واحدة من قطعتها الذهبية، التي كانت جزءا من مهرها، وقدمت ثمنها لعمتي، أسرت لي ذات يوم، بأنها بكت حين باعتها، قالت " والله يمه حسيت يومتها إني ببيع شقفة من عمري " ..[170]

يشارك في هذه المقطوعة عن ولادة أختها وقصة اسمها يقول " في نهاية شهرها التاسع، وضعت أمي، في بيت عمتي، بنتا، بمساعدة القابلة أم زهير دهمان، عمتي ناولتها فلقة صابون وعلبة حلاوة طحينة ، صار لنا راسم وأنا، أخت ، أبي سماها رفقة، اختار اسمها على الحرف الراء الذي تبدأ به أسماؤنا، منذ سماني ربعي كرت " راءات " الأسماء مثل حبات السبحة، أبي رزق بصبي بعدي سماء رفيق، مات في المجدل طفلا، جاء بعده راسم ، والآن رفقة " .[171]

---

[169] المصدر نفسه ، ص 59.

[170] المصدر نفسه، ص 61.

[171] المصدر نفسه، ص 65.

وفي سياق المناقشة، يستعيد الكاتب ذكريات أيامه التي قضاها في المدرسة، ويشاركنا تجاربه وتفاصيلها بعمق واهتمام، حيث يستعيد الزمن الجميل من خلال كلماته، يقول:" وصلنا إلى المدرسة، اجتزنا بوابة خشبية خضراء اللون عريضة، على جانبيها أشجار أكاسيب خضراء وارفة، تنفتح البوابة على ساحة واسعة، امتلأت بأولاد من أعمار مختلفة، يحيط بالساحة، من ثلاث جهات، مبنى كبير من الحجر الكسكي الأبيض، يتكون من طابقين ومن زاويته يصعد سلمان رخاميان عريضان "[172]، يتابع السارد السرد عن المدرسة بتلوين علم الفلسطين " عدنا إلى وسط الساحة، وتوقفنا قبالة المبنى الكبير ومن هناك رأيت، للمرة الأولى، جرس المدرسة ، تجولت بنظري في المكان، استوقفني علم فلسطين بألوانه الأربعة، الأبيض والأحمروالأخضر والأسود، وكان يرفرف وقد على عمود ثبت على بعد أمتار قليلة من سور واطئ يمتد بعرض البناء الكبير " .[173]

في سياق سرده، يشير المؤلف إلى تاريخ ميلاده بكل تفاصيله، لكنه يتجاهل تماما اليوم الذي ولد فيه، حيث ويقول: " أبحث عن تاريخ ميلادي أديبة، أغربل الأيام وأدق بين فواصلها، ولا أجدني، لا لسان أمي ولا لسان امرأة عمي يؤكدان الحقيقة، الحقيقة ضاعت مع الشهادة، متى ولدت إذن ؟ أبي لم يحفظ تاريخ ميلادي، اطمأن إلى شهادة الميلاد، لكنه أضاعها، أمي لا من يعتب عليها، فهي لا تفك حرفا ولا تربطه بحرف، ولا تعرف تاريخ ميلادها هي أصلا " .[174]

وفي نهاية الجزء الثاني، يتعامل الكاتب مع قصة وفاة والده، ويبدأ هذا الفصل الجديد بذكر تلك الحظة المؤلمة حينما فارق والده الحياة وهو لا يزال في مرحلة الدراسة حيث يشرح، " مات أبي، أنهى أربعة وثلاثين عاما من عمره ومات " [175]، وحين علم من الأستاذ موت أبيه لم يصدق " نظر إلي الأستاذ احمد بانفعال، غيرواضح وقال: خد يا ابني شنطتك، وروح مع قريبك، وبنا معاكو، شعرت بانقباض وبقلبي الصغير

[172] المصدر نفسه، ص 75.
[173] المصدر نفسه ، ص 76.
[174] المصدر نفسه، ص 89.
[175] المصدر نفسه، ص 155.

يرتجف، أبي، هل حدث له مكروه، لا قدر الله، صمت أشاح بوجهه عني كأنه يخفي دمعة سقطت رغما عنه، حاولت استعادته بسرعة، أبويا ماله يا سعيد، في اشي لا سمح الله ؟ أبوك، الله أعطاك عمره، ايش ؟ توفى ، أويا مات ؟ مستحيل، لا أصدق، ولا أريد أن أصدق عيناي لا تصدقان، لو كانت تصدقان لأسقطتا ولو دمعة واحدة، على الأقل، لكن قلبي صدق، صار يدق مثل طبل فرقة كشافة " [176]، تحمل هذه اللحظة من الحزن والألم والشجن أكثر مما يحتمل لمراهق في الخامسة عشرة من عمره، وما يزيد على ذلك هو النبوءة القائلة بأن الأب سيخرج من المستشفى في يوم الخميس، فاستعدت الزوجة بفرح وبهجة لاستقبال زوجها العائد من المستشفى بعد تجاوزه المرض الذي ألم به، نظفت المنزل والحظيرة والساحة بدقة، تمهيدا لاستقباله كما وعد، عاد إلى بيته يوم الخميس بالضبط في صباح الخميس، جاء به ممرضان، وسلماه إلى زوجته التي ستصبح منذ الآن، أرملته، فقد صدق وعده وعاد، في اليوم المحدد وصدق وعده بأن لن يعود إلى المستشفى بعد، ورغم أنه أمضى سنواته في المستشفى كالمحكوم، إلا أن ابنه يتمنى أنه لم يمت.. يزورنا كل ثلاثة أشهر لمدة أسبوع.. أبي اليوم لن يعود، سوف نفتقد فيه حتى أنفاسه الخطيرة العابقة بالسل، هنا يفسر الكاتب عن الموت وعن الأسرة الفلسطيني وعن المرأة التي تنتظر عودة زوجتها من المستشفى، يقول الكاتب عن موت أبيه " مات أبي صبيحة يوم الخميس، الثاني عشر من أيار "مايو"، عام 1960، اختطفته الموت قبل يوم واحد من زيارتنا الأسبوعية له، في مستشفى البريج"[177]. خلق ربعي المدهون هذه البيئة المخيّلة ليس مجرد استذكار فقط بل يحاول استعادة من الماضي.

[176] المصدر نفسه، ص 156-157.

[177] المصدر نفسه، ص158.

الجزء الثالث:

يناقش في هذا الجزء عن تذكار دراساته العليا مثل جامعة عين شمس وجامعة الإسكندرية، كانت الدراسة في الجامعة ممتلأ بالمشكلات، الأحوال في مصر قد سبب لأزمة نفس الكاتب، لم يرد الكاتب لاسترجاع ذكريات أيام دراساته العليا ولكن يناقش عن الأحوال التي قد تجربت في ذلك الوقت ويشارك معنا أيضا عن الحرب بين إسرائيل ومصر ويدعو لنجاح مصر ويشرح " اليوم اليوم اليوم النصر، عصرنا قلب الاعدا عصر، فجر جديد وعهد جديد، وكل العرب اتأيد مصر "..[178]

يفشل الكاتب بتكميل دراسته بجامعة عين شمس حين كان يستعد لزيارة خان يونس في عطلة الصيف، لكن حرب حزيران تعطل الزيارة، ويبقى ربعي المدهون والطلبة الفلسطينيون ليشهدوا على ما حدث، قد اضاع الحرب الأرض والأموال للمصر وفلسطين والسوريا، وتحارب جمال عبد الناصر رئيس مصر للإسرائيل، البيانات التي أنجزت النصرمنذ اللحظات الأولى في الحرب، ولم تترك لإسرائيل طائرة واحدة أو دبابة ليكتشف أن ذلك كله ليس سوى تغطية على هزيمة نكراء، وحين يحاول البعض إعطاء فرصة أخيرة للزعيم كي يقول كلمته لن يسمعوا سوى أنها نكسة، وليست هزيمة، ثم التنحي عن الحكم، والعودة تحت ضغط الجماهير التي ملأت الشوارع، وكان فوز الأخير لليهود " فقد بدأت رياح الحرب تجتاح المنطقة، منذ حشدت إسرائيل بعض ألويتها العسكرية على الحدود السورية، واضطر الرئيس المصري، والزعيم العربي الكبير، جمال عبد الناصر، إلى الرد أي عدوان يقع على سوريا، ولن تسمح لإسرائيل بضرب أي بلد عربي، منذ اليوم أرقام الطائرات الإسرائيلية التي سقطت وأنواعها، وحتى أسماء طياريها الذين أسروا، والذين فروا أو سقطوا على أرض فلسطين المحتلة، خلف خطوط العدو، لم يعد قادرا، على تميز بين المستير والهوكر هنتر والميراج ، تاه وتهنا معه، العدو يكذب، لكننا بدأنا نرى الدموع في أعين بعضنا، تقترب من جفوننا، في نهاية النهار الذي لا نهاية له بكينا ، علنا بكينا ولم نستطع حبس الدموع مزق ناصر الخريطة وبكى، وبكت

[178] المصدر نفسه، ص 199.

القاهرة، وهي تنصت بخشوع إلى آي الذكر الحكيم من إذاعة صوت العرب، الذي ختم منه أحمد سعيد بياناته بثلاث كلمات لخصت نتائج الحرب " لكم الله ياعرب " ..[179]

يتناول الكاتب المقطوعة الثانية في الجزء الثالث عن الحب والحلم والعشق، ويبدأ بتلوين الحب " مثل جسدين في روح تكونان، تفتح قلبيكما رنة قبقاب على السطح وتعشقان، الحب الأول مثله أبدا لا يكون لمساته الأولى تشعل الروح القبلة الأولى تأخذ الجسد في غفو لا يشبه الغفو سكر العاشقين ليل وسهر مثل نثر يجري في عروق من دم ساخن بكلمات الحب. يحكى الكاتب حكاية التي يبين فيها علاقته مع الفتاة " الحلم " في الإسكندرية، المدينة التي يقول عنها " الإسكندرية أجمل المقدونيات اللواتي حللن شعور هن على شاطئ المتوسط " [180]،

" ورأيتها هناك... تتفتح داخل بلكونة غرفة نومها مثل زهرة ، التقت عيناي الزهرة، ومنذ النظرة الأولى أدركت أن كيمياء الحب سرت في جسدينا ، وأن تلك االحظة لم تفتح أربع عيون على جسدين، بل فتحت أبواب الكون كله، هتفت... هي ذي فتاتي "[181]، لكن العلاقة التي دامت ثلاث سنوات، وانتهت بخطبة رسمية، ستقطعها الفتاة بكلمتين تتمنى فيهما على المؤلف أن يظلا أصدقاء، فيتكاثف شعوره بالغربة، " لم يبد والدها ارتياحا، لعلي بقيت في نظره الغريب الذي لا أهل له، ولا مكان استقرار محتمل يلمه، وجاء اليوم الذي كشف لي أنني كنت منفيا داخل خطوبتي شبه المعلنة، وأن الفاتحة التي فرأناها لم تحم حبنا من الانهيار، كانت شقيقتها سبقتها إلى الخطوبة من ضابط يقيم في القاهرة صار صديقا لي بحكم علاقتنا الشقيقتين، وكانت ليلة زفافه على شقيقتها في إبريل 1970، المناسبة التي أخرجتني من قلبها وإلى الأبد.

ينتهي الكاتب هذا الجزء بذكر مصر وموقف رئيس مصر وأحوال الفلسطينيين الذين وصلوا إلى مصر ملجأ وطلاب الذين حاربوا على احتلال اليهود، ويقول " لم أصدق أن مصر عبد الناصر، سوف تذهب في

---

[179] المصدر نفسه، ص 202.

[180] طعم الفراق في ذاكرة ربعي المدهون، 3/3/2021 .https://www. nizwa. com

[181] المدهون، ربعي، طعم الفراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2001 م، ص، 210.

قمع المعارضين لمبادرة روجرز، إلى حد الذي شاهدته وعايشته ، خصوصا ضد أمثالي من الفلسطينيين القادمين من غزة، والذين لا مكان لهم يلجئون إليه، ويحملون وثائق سفر مصرية، لكن ذلك حدث وبسرعة غير متوقعة، وترك بصماته على أول تجربة لي مع رجال في جهاز استخبارات عربي "[182]، لم يصدق المؤلف أن مصر الناصرية تذهب في التضييق على الفلسطينيين الذين عارضوا مشروع روجرز، واعتصموا احتجاجا عليه حد إبعاد مجموعة من الطلبة المنتمين إلى تنظيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، خصوصا ربعي وراسم وعدد من الطلبة القادمين من غزة والذين لا مكان لهم يلجأون إليه، ويحملون وثائق سفر مصرية، ولكن الإبعاد إلى دمشق يجري على وجه السرعة، ومن هناك ، سينتقل الأخوان ربعي وراسم وعدد من الطلبة إلى عمان، في الوقت الذي كان فيه تقترب من أيلول الأسود. يظهر الكاتب في نهاية هذا الجزء عن علاقته بأفكار الشيوعية " الآن في رقبتي دينان، يخطئ من يظن أن الماركسيين والشيوعيين لا دين لهم، ولا دين عليهم، وفي رقابنا تعلقت فكرة تحرير الشعوب من الظلم والقهر، اعتمادا على قاعدة من الفقراء الموزعين على بقاء الأرض، آمنت بتلك الأفكار بطريقة أخلاقية عمقت في حب الأمانة، التي يأتينا حسابها مباشرا، من ضمير نحمله معنا أينما نسير ."[183]

الجزء الرابع:

يجري البحث في هذا الجزء عن الأحداث التي تجرب الكاتب من عمّان يقول" هذه عمان.. غابة بنادق يتمشى في ممراتها لينين، ممنوع على الشرطي الأردني الذي خبأ رأسه تحت خازوق نحاسي اعتراضه أو تغيير إشارة المرور، هو في طريقه إلى مطعم أبي خليل لوجبة فول في الصباح، ساعداه خلف ظهره منعقدان، ذقنه الثابتة مثل قوانين المادية تسبقه إلى المكان، يتابع خطا كاسترو، ينصب صواريخ باليستية في حديقة مقهى المدينة، يتفيأ تحت ظلالها الرفاق، على مقربة منه يقود شاب يساري هجوما بالرشاشات على

[182] المصدر نفسه ص، 230.

[183] المصدر نفسه ص، 236.

المصرف المركزي لكي يخط رفاقه بدهان أحمر شعارات المرحلة: لا سلطة فوق سلطة المقاومة "[184]، يكون المؤلف شاهدا وساخرا في كثير من المواقف، ومشاركا مضطرا في مواقف أخرى.

يتناول الكاتب في هذا الجزء الحرب والظلم والتجربات الهائلات والحرب السياسي ومشكلات الطلبة الذين وصلوا من الفلسطين مثل الكاتب يقول الكاتب عن المقابلة الأول للطلبة المبعدين مع ياسر عبد ربه، يطلبون فيها حلا لمواصلة دراستهم التي انقطعت، سيقول لهم في سؤال استنكاري، مين قال بدنا طلاب.. إحنا بحاجة لمقاتلين ؟، وحين تبدأ معارك أيلول، سيجد بعض الطلبة أنفسهم في مكاتب ومخيمات، يحملون أسلحة لا يستخدمونها، فهم مهمشون يعانون الرعب والشلل في آن، لم يعودوا طلبة، ولم يصبحوا مقاتلين، هكذا يقول الكاتب عن تلك التجربات.

ويشارك أيضا تجربة حزينة للقرّآء " ها أنذا جالس فوق خيبتي تحت الحائط الصحيفي الصدئ لمكتب الجبهة الديمقراطية في جبل الحسين، لم يبق معي من شلتنا سوى نعيم ملفوفا بقلقه مثل بقحة لاجئين لم يرض عنها صاحبها، لقد مضى أكثر من شهر على إبعادنا إلى مطار دمشق، وانتقالنا إلى عمان في اليوم نفسه بعد هبوط المساء، وها نحن نحصد خسارتها، ونلم خيبات السنين، تلقينا دورة تدريب عسكرية في مخيم سوف، قضينا بعض الوقت في مدينة جرش شمال عمان، ننفذ مناورات وهمية كأفراد مليشيا، يتصدون لمحاولات لم تقع للجيش الأردني ومؤيديه الصامتين في المدينة، وجئنا إلى عمان لكي تعيدنا إلى دمشق لعلنا نستطيع إكمال دراستنا الجامعية فيها، فلم نخرج من رحلة بحثنا سوى بكلمات غاضبة محت لدينا تعب السنين، كأننا جئنا من عدم وذاهبون إلى عدم، عدم يجر عدما ." [185]

يتذكر الكاتب أمه عن حرب السياسي، وعن الثورة، وحربها طويلة الأمد، حربها نار وبدها حطب، والحطب نحن، الوقود اللازم لتشغيل عجلة القضية " سياسيونا يتحدثون بلغتهم، وأمي تحتفظ بلغتها، أمي لا تفهم

[184] المصدر نفسه، ص 243.

[185] المصدر نفسه ص، 245.

عليهم، هي الفلسطينية، من مولدها، في حارة المداهنة في المجدل عسقلان، حتى آخر غرزة تطريز ملونة في ثوبها المجدلاوي، لا تفهم عليهم، وهم لا يفهمون عليها، هي في الداخل، هم في الخارج كيف يتصلون ؟ كيف يفهمون ؟ [186]".. يقول الرواي بعد خروجه من عمّان: " أعادتني الهزيمة إلى دمشق مكسور الخاطر ، مكسور الشعارات، هزمت منتصرا وانتصرت مهزوما " ، ويقول عن أحداث معاركهم في أيلول الأسود: " هزيمتنا التي لم نر فيها حتى الآن هزيمة رأيناها صمودا، وضحايا ، تجربة وشهداء، قللنا من الصمود وأكثرنا من الضحايا والشهداء. لم يستطع للكاتب في البداية شد القارئ إلى الحدث أو ربطه مع أي من الشخصيات، بل أن هذا السيل من الشخصيات والأسماء لم تلامس واقعية الرواية بقدر ما شتت القارئ ومنعته من الانسجام مع الأحداث التاريخية. في الجزء الثالث والرابع، تغير السرد إلى لسان الراوي ليضع أمامنا تاريخه الشخصي ، تفاصيل ووقائع عاشها ما بين هزيمة وهزيمة، وكأن وجوده مطارد أبدا بخسارة فعدنا نتعلق بالراوي، ذلك الطالب العاشق أولا، ثم الفدائي الهاشمي الذي تشتت بين القتال و الدراسة، لتبتلعه هذه الفوضى في دوامتها اللانهائية. ينتهي الكاتب هذا الكتاب بتقديم الشكر الخالص على من ساعدوه لكتابة هذا الكتاب يقول " أقدم، بكثير من الخشوع والاحترام، شكري الخالص لوالدتي على ما قدمته من معلومات عن حياتها الخاصة، و لقبولها أن تفتح قلبها للقراء، عبر بعض صفحات هذا الكتاب، ولزوجتي سناء على ما تحملته من غياب لي تواصل على امتداد عامين، هما فترة إنجاز هذا العمل، رغم وجودي إلى جانبها في البيت [187]، والى خالي محمد وصديقه الشاعر أمجد ناصر وسام ورامي وكذلك يقدم الشكر على جميع الفنانين الذين أبدعوا الأغنيات التي أوردتها ويعتذر من أمهات الشهداء الذين لم يقصد إعادتهم إلى الحياة عبر النص لكي يستشهدوا مرة أخرى تحت مطر من دموعهن.

[186] المصدر نفسه، ص 251.

[187] المصدر نفسه، ص 375 -376.

المكان الأصلي

تمزقت حياة الشعب الفلسطيني بسبب الظروف السياسية الصعبة التي تعرضوا لها منذ هجمات الاحتلال على أرضهم ،مما أجبرهم على العيش في المنفى ومخيمات اللجوء داخل وخارج وطنهم. تتجلى هذه التجربة المؤلمة في الرواية الفلسطينية بشكل متكرر ،حيث يصبح الوطن والمنفى موضوعا رئيسيا يحلى عنه الكتاب ويستندون إليه لاستكمال رسالتهم الأدبية ،تتمحور الأحداث في الرواية بشكل أساسي في أراضي فلسطين،وبذلك يصور ربعي المدهون الفلسطينيين بجدية ويستعرض ذكرياتهم، مع تسليط الضوء على الأماكن التي شهدت وقائع هامة وأحداث مؤثرة. تلك الأماكن تظهر في رواياته بأشكال وأنماط متنوعة، حيث تكون بعضها محطا للاسترجاع الشخصي والتأمل في الماضي الجميل والمؤلم للوطن والمنفى. ظهرت الأماكن الأصلية في رواياته كمعبرة عن هوية الفلسطينيين بشكل ملموس ومعبر.

المجدل (عسقلان)

كان المجدل هو مكان ولادة الكاتب ، تقع وقائع طفولته في المجدل عسقلان ، ولذا ارتباط الكاتب بهذا المكان وثيقة ، قد يصف المؤلف هذا المكان في عدة مرات ، يرجع الكاتب إلى الماضي حين يتذكر عن التجربات التي وقعت في المجدل ، وقد تجلى المكان في رواية "مصائر" باعتماد وليد على ذاكرته الساردة ليتحث عن المجدل الذي لم يعثر عليه ليتصل بوالدته التي حاولت أن تعينه بتوصيفاتها للجغرافيا يقول " في المدجل عسقلان ، تناثرنا أربعتنا ، أنا وجولي وجميل ولودا ، خارج السيارة في اتجاهات نجهلها رحت أبحث عني ،تاركين الآخرين يبحثون عني أيضا ، عن بيت له طعم الماضي ، بيت والدي الذي شهد ولادتي واحتفى بها هنا ، أو هناك ، أو لعله هناك ، أو في أي هنا أو هناك فتشت بعينين دامعتين بين خراب المدينة عن طفولتي الأولى فلم أجدها بكيت لي ولطفولتي ، علي وعليها أوقفت مشاعري على رأسها لبعض الوقت ،

أخرجت هاتفي الجوال من جيبي وهاتفت أمي : كيف حالك يمه أني في المجدل ، هييه ،أمانة الله ؟ وإيمتن وصلت يمه ؟ معناتو الله راضي عليك يمه والله الروحة على المجدل مثل الحجة على بيت الله عشرمرات " .[188]استخدم ربعي المدهون المجدل لمكن ولادة البطل في روايته ، :" ويقول المجدل عسقلان التي ينحدر منها عادل البشيتي، بطل رواياتي الجديدة "[189].

القدس :

لا تخلو رواياته من وصف للعديد من المدن ، ومنها القدس : " أزحت ستارة النافذة الوحيدة لغرفتنا ، وألقيت نظرة حشرية من عينين كسولتين على الخارج ، فلم أجد القدس التي حلمت العمر كله بزيارتها أمامي جانب من طرف ضاحية في مدينة ما أوروبية زرعت في المدينة ،لم تقو على اكتساب شيء من ملامحها مجرد بنايات حديثة مبعثرة على تفاصيل المشهد ، كأننا لسنا في القدسس كأن القدس في مكان آخر "[190].

ومن الأماكن الأصلية " القدس " ، قد كررت سرديات القدس في روايات الكاتب ، ومنها يقول عن القدس حين يسافر في القدس ، والقدس ليس قدسا إلا بحفظ تراث القدس مثل شارع صلاح الدين ، وباب الواد ، وباب الخيل ، وحائط البراق ن وقبة الصخرة وإلخ... ويسأل الكاتب كيف يكون القدس مدينة السلام بدون حفظ تراث هذا الوطن ؟ ، " ابتعرف ما في قدس من غير حمص أبو شاكر وأبو حسن شو بتسوى القدس من غير شارع صلاح الدين ، وباب الواد ، وباب الخليل ، وكل لبواب اللي بتاخذ الناس لمعتقداتهم ، اللي بتخلى عن هذا كله ، بتخلى عن القدس وقبة الصخرة ، وحارة النصرى ، وكنيسة القيامة ، وحائط

[188] المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م، ص 54 -55.

المدهون، ربعي. السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط3، 2010 م، ص 78. [189]

[190] المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م، ، ص 194.

البراق ، وسوق خان الزيت.... يا زلمه هي القدس بتكون قدس إن ما كانت هذا كله ، وفوق منه جبالها ، وتاريخها وحيطانها وحروبها وسلامها ؟! مع إنه مدينة السلام ".[191]

غزة:

يرسم الكاتب صورة مؤلمة لغزة ، حيث يشرح كيف دمر الاحتلال الإسرائيلي ثرواتها الطبيعية والغنية ، التي كانت تمتلئ بها هذه الأرض ، لكن للأسف لا يمكن للأنسان أن يرى هذه الثروات هناك ويقول: إن الأرض الجرداء المحروقة الواقعة إلى يسارنا، كانت مزارع زيتون ، اقتلعت الجروافات الإسرائيلية عشرات الآلاف أشجارها من جذورها قبل عامين ، وقال أيضا ، إن قسما منها كان مزارع تنتج أفضل الحمضيات في قطاع غزة كله"[192]

قرية ديرياسين

ومن الأمكان الأصلية " قرية دير ياسين " ، لن يمكن الكاتب أن يذكر هذه القرية إلا بذرف الدمع , ارتكب اليهود القتل الجماعي في هذه القرية ، سلبوا أموالهم وعرضهم ودمروا قريتهم وجعلوا المزارع إلى الصحراء ، يقول الكاتب : " عندما تخوم ما كان قرية ديرياسين تجمدت أحاسيسي ، وفرضت علي صمتا مر لكن صمتي لم يعد يحتملني وانفجر في ديرياسين هي المذبحة التي غيرت التاريخ ، ورسمت الملامح القاسية لنكبة 1948 هي الثقب الأسود اللي الإسرائيليين مش عارفين يتعاملوا معه ، على رأي ايتون برونشتاين " [193].

ويتكرر الكاتب ، " ابتعرف إنهم بيحاولوا يحكوا لحكاية اللي اليهود بدهمش يسمعوها ،برونشتاين بيعتبر إنه مذبحة ديرياسين هي الي حددت العلاقة بين العرب واليهود كما قريت له ، اتذكرت أنه متحف المحرقة مش بعيد عن ديرياسين " .[194]وجعل اليهود مكان ديرياسين متحفا ، وعلق في جذاره أسماء الشهداء التي

---

[191] نفس المصدر ، ص 218.

[192] المدهون، ربعي. السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط3، 2010 م، ص 235.

[193] المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م.، ص 182.

[194] نفس المصدر ، ص 41.

قتلوا في تلك الكارثة ، " اسم ديرياسين ملهاش أثر ، مش عشان اليهود دمروها زمان ،بس لأنه صار مطرحها متحف الذاكرة اللي احنا رايحين عليه " [195].

عكا :

ذكرت مدينة عكا حيث يشعر وليد بحزن عميق لحالتها وبيوتها وسكانها، وهذا ما يظهر بوضوح في المقطع الآتي : " تابع وليد طريقه ، وفي رأسه يافطات تتحدى يافطات وشعارات تحارب شعارات ، بينما بيوت عكا القديمة وسكانها الخمسة آلاف ونصف الألف الذين بقوا فيها ، ينتظرون وبيوتهم في طابور ضحايا التهويد الزاحف ، مثل البنايات الخمسة التي في حي المعاليق التي جرى ترميمها لصالح جمعية أياليم ، وأسكن فيها طلاب جامعيون يهود " [196].

حيفا :

ومن بين المدن البارزة ، تبرز مدينة حيفا بجمالها ، وهي مدينة بقيت محفورة في ذاكرة وليد ، حيث تجلى ذلك في المقطع التلي : " عجبتك حيف يا خالتي ؟! وتركت ملامحها تعبيرا يشبه الترقب بقولو الفلسطيني اللي بزور حيفا بيطلع منها مجنون بلا عقل. حقا لم أكن أتصور أنني سأبلغ ذلك الجنون الذي تحدثت عنه أم وليد ، حيث تصعد بنا سيارة جميل الكرمل من شارع الجبل ، الذي صار جادة الصهيونية ، وحين تأخذنا إلى وادي النسناس ، ورائحة إميل حبيبي المنتشرة في المكان ، وصحيفة الاتحاد التي عشقناها "[197].

---

[195] نفس المصدر ، ص 245.

[196] نفس المصدر ، ص 41.

[197] نفس المصدر ، ص 202.

يتجلى الكاتب مدينة حيفا ويدعو للحياة فيه يقول : " تعو اسكنو في حارتنا ، بتنورو حيفا ومنطقة حيفا وقراها اللي دمرها اليهود واللي باقي فيها حيطان بتتنفس ،وبتشرفو الكرمل من رأسه لشط الحر هوي في أحلا من قعدة ع راس الجبل والفرجه ع موج البحر بغسل له رجليه ! " .[198]

[198] نفس المصدر ، ص 66.

مدينة بيت لحم

مدينة بيت لحم هي إحدى المدن الفلسطينية البارزة المعروفة ، حيث تقع في الضفة الغربية وهي تابعة لحكم السلطة الفلسطينية ، وتقع على بعد عشر كيلو مترات من القدس من الجهة الجنوبية ، وتعد مدينة بيت لحم مركزا مهما من النواحي الثقافية والسياسية والسياحية ، وتعد ذات أهمية خاصة للمسيحيين بسبب مكان ولادة المسيح عيسى ابن مريم فيها. وقد يقول الكاتب عن مدينة بيت لحم كولادة مكان شخصية باسم في رواية " مصائر " ، وجذور أهله في بيت لحم كما قال " رجاها باسم أن يذهبا معا إلى بيت لحم قال وقد سبقه قراره إلى المدينة " بيت لحم بتسوى العالم كله تعي معي ع بيت لحم اهلي واخوتي واللي باقي من أرض أبوي ، كله في بيت لحم أو قريب منها بكره بيصير النا دولة ، وبنخلف هناك ، وبنربي ولاد يكونو فلسطينية عن جد مش نص نص "[199].

المقامات

المقام مكان مقدس ومرتبط ببعض الطقوس الثقافية للمجتمع ، إذ أن المقامات تضم أضرحة الأولياء الصالحين ، ويقوم الناس بزيارتها لتكريم هؤلاء الأولياء إيمانا منهم بقدرة الولي على التوسط عند الله لتحقيق رغبة الزائر ، في حين يعني المقام مكان المتصوفة. تعرف أرض فلسسطن بأنها أرض الأنبياء والصالحين ، قد عاش فيها الكثير من الأنبياء والكبار والعارفين مثل يوسف عليه السلام وصالح عليه السلام ، ومنهم من مات ودفن فيها كخليل الله ابراهيم عليه السلام.قد وردت سرديات المقامات في الروايات لتعبير حزن الكاتب مما اصيب بوطنه من الأحوال السيئة ، ولتخبير الناس عن الوطن الذي كان له تراث وتاريخ وآثار ، وهو أرض مقدسة التي قد عاش فيها الأنبياء والصالحون والعارفون.

[199] نفس المصدر ،ص 109-

يصف الكاتب المقامات بعد زيارته للقدس : " كان كتلة حجرية صماء ، في واجهتها ثلاثة أعمدة إغريقية الطراز ، لا مكان فيها الجثة لكنها تتسع لا عتقاد بشري بأنها قبر ووفقا للمعتقدات المسيحية ، فإنه المكان الذي ظهر فيه السيد المسيح لحواريه القديس جيمس ، أما القبر الثاني ، فهو قبر النبي زكريا الذي أشار إليه سلمان : سلام عليك أيها النبي..... لم أر أنبياء آخرين في المدينة ولم يوحي بي أحد أن العائد أسألهم عن سلام مدينة السلام عما فعلوه لأجلها منذ أقاموا فيها حتى رحلوا تاركين للبشرية الكثير مما تختلف عليه " .[200]

المكان المفتوح :

الأماكن المفتوحة هي التي تكون منفتحة عامة أو خاصة ، تتجاوز كل محدد أو مقيد نحو التحرر والاتساع ، وتتميز بالطلق والحرية وتقضي بالشعور بالعزلة وتختلف هذه الأماكن وتمظهراتها حسب أحداث النص إذ " تتخذ الروايات عموما أماكن متفتحة على الطبيعة ، وتؤطر بها الأحداث مكانها ، وتخضع هذه الأماكن لاختلاف يفرضه الزمن المتحكم في شكلها الهندسي وفي طبيعتها وفي أنواعها ، إذ تظهر فضاءات وتختفي أخرى " .[201]

المسجد :

يوظف المسجد في النصوص السردية على أنه بنية ذات أثر إيجابي في توجيهه السلوك وتهذيبه " [202] ، المسجد مكان للعبادة والصلاة ومقدس لكل من يطلب الراحة والسلام والعلم.قد يتجلى المسجد في روايات الكاتب ، ويتميز تجلياتها بتعبيرها المتفردة ، يستخدم كلمة " المسجد " عادة ، وهو مكان المسلمين الذين يأتون إليه لأداء الصلوات وإجراءات الدينية ، ولكن هنا قد يصف الكاتب المسجد ليس

[200] نفس المصدر ، ص 216 - 215.

[201] الشريف حبيلة : بنية الخطاب الروائي ، نشر عالم الكتب الحديث ، ط1 ، مجلد 1، سنة 2010. ص 244

[202] محمد إبراهيم: تجليات المكان في السرد الحكائي، فضاءات للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط 1 ،2009 ،ص 121.

لأداء الصلاة فقط ولكن هو ملجأ لكل من يطلبون السلام والراحة والطمأنينة بغير تميز الأديان ، يتصور الكاتب مثل هذه اللحظات المتخيلة حين يزور جولي ووليد جامع الجزار " مشيا نحو جامع الجزار صعدا حين وصلا الدرجات الرخامية الثلاث عشرة التي تسبق المدخل إلى الساحة الأمامية بلغا سبيل الماء إلى اليمين الساحة تخلت جولي عن ذراع وليد وخطت مسرعة نحو الجامع توقفت بالباب أخرجت من حقيبتها شالا حريريا ملونا غطت به رأسها خلعت حذاءيها وتركتهما في الخارج اقترب وليد من الباب رآها تدور حول نفسها ترقص مثل صوفي حملته نشوته إلى ما وراء الكون راقبها صامتا على دهشته " من أين لها هذا ؟ ، همس حين خرجت ، رفعت الشال عن رأسها كان وجهها متوردا مثل زهرة فتحت بتلاتها أشعة الشمس الأولى ، وقد سالت قطرات دمع على خديها ، وقف وليد أعلى درجات المدخل يتأمل ما حدث أمس ولا يصدقه ،كيف فعلت جولي ذلك ؟ جولي لم ترث المسيحة عن والديها ، ولم تتحول إلى الإسلام حين تزوجته ، ولم يطلب منها ذلك ، خرجت من الجامع مثل قديسة بللها إيمانها بالايمان ! وحين سألها عما فعلته ، ابتسمت وردت I liked what I did صليت على طريقتي وارتحت لصلاتي "[203] ، هنا يصف الكاتب عن هذا المسجد المستقل يعنى هو مكان الملجأ والتوكل والراحة لمن يرجوها.

يكتسي المسجد في الرواية أهمية خاصة من خلال ما يضطلع به من أدوار ووظائف ، تشير الرواية إلى الجامع الكبير : " عدت أتأمل ، بمرارة ما تبقي من الجامع الكبير الذي بناه الأمير المملوكي ، سيف الدين سلار ،عام 1330 مئذنة ترتفع قليلا زاويته اليسرى مثل منارة قديمة هجرتها السفن بصنع قباب بدت مثل طاقيات من الصوف شاحبة اللون وقد تآكل وبرها قطعت الشارع فقزا إلى الرصيف الآخر وقفت قبالة مدخل يعلوه اسم الغريب " خان أشكون موزيم "[204]. " يا إلهي كيف أصلي ركعتين أنذرتهما لأمي في مسجد أصبح متحفا وحانة ؟! ".[205]

[203] نفس المصدر ، ص 43.

[204] نفس ، ص 55.

[205] نفس المصدر ، ص 55.

يقول عن مسجد قبة الصخر: " بقيت جالسا لدقائق ، أتأمل القبة الذهبية من الداخل والآيات التي تزينها وأنظر جهة الصخرة ، التي لم أتبينها تماما بسبب الترميمات التي يقوم بها فريق عمل فني أردني ، للسقف نهضت واقتربت من مكان الصخرة ، وهي غير منتظمة الشكل ،...، ويقع أسفلها كهف صغير ، لا تزيد مساحته عن 25.5 مترا مربعا ، ما يجعلها تبدو معلقة ، ويثير حولها الكثير من التخيلات والأساطير " [206].

المقبرة :

القبر مكان واسع لا يضيق " يتوحد فيه الزمان والمكان فيتحولان لشيء واحد فهو مكان لا متناه يضم كل أنماط المكان ودلا لاته " .[207]تعطي المقبرة التاريخ حين نمشي بجوارها ، وهناك قد دفنت الأموات التي لا نستطع أن نعدهم , وفيها شتى من تواريخ الانسان المختلفة ، وبعض التاريخ يتذكر أن نعيش ونحارب ونواجه أزمات الحياة بالقوة واليقين واتباع السبل التي قد دخلوا فيهم ، وبعض التاريخ يتذكر أن لا يعيش مثلهم ، والعاقبة تسوقهم إلى الهلاك كمثلهم ، يعد المثوى الأخير الذي ينام فيه الإنسان نومه الأبدي ، المقبرة في كثير من سرديات الكاتب تجعل إلى محفز للذاكرة واسترجاع وفخور الوطن ممن دفنوا في المقبرة ، قد وردت سرديات عن المقبرة في روايات الكاتب.

ذكرت الرواية المقبرة في مشهد محمود دهمان الذي زار قبر والدته : " أسند محمود دهمان رأسه إلى حافة قبر والدته صفية ، في ذلك الصباح الغزاوي الذي تعرف عليه بعد غياب صباح يوقظ الأصوات على أصوات زوار يحملون إليهم رحمة متأخرة لم يحصلوا عليها في دنياهم مدد ساقيه أمامه وتأمل قطرات ندى تكثفت على حافلة القبر قبالته ".[208]

الكنيسة :

[206] نفس المصدر ، ص 228.

[207] محمد عويد الطربولي : المكان في الشعر الأندلسي ، ط1 ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2012 ،ص 101.

[208].المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2015 م، ، ص207

الكنيسة هي كلمة تحمل في طياتها معاني عميقة تتعلق بإيمان المسيحيين، فإنها ليست مجرد مبنى بل هي مكان الذي يجتمع للعبادة، هي عبارة عن وحدة حيوية تربط بين الأفراد.

تظهر الكنيسة في الرواية من خلال سرديات، "كنيسة القيامة" التي تعد إحدى معالم القدس الكبرى حيث يصفها لنا وليد : "رحت أتأمل الكنيسة التي اختلفت طوائفها فيما بينها، فتسلمت عائلة فلسطينية مسلمة مفتاحها يقوم وجيه نسيبة، بفتح أبواب الكنيسة وغلقها يوميا كما يتولى مسلمون حراستها في تقليد متوارث منذ سنة 638" [209]. يبين الكاتب أيضا عن كنيسة "الروم الارثوذكس" خلال زيارة وليد وجولي في عكا القديم ويزورا الجامع والكنيسة وهذه الجولة يشرح الكاتب ويقول "اتجة إلى كنيسة الروم الارثوذكس توقفت قليلا في الساحة التي تتقدمها تأمل البناء البني اللون لبعض الوقت"[210]، تتولى الأولى أمانة مفتاح الكنيسة، والثانية فتح الباب وهذا الإجراء الحكيم، حل الإشكلات التي تقع بين الطوائف، كما في صيف العام 2002م، حرك كاهن قبطي مقعده من المكان المتفق عليه حيث كان يجلس، إلى الظل، فاعتبره الاثيوبيون تعديا عدائيا "[211].

[209]. نفس المصدر ، ص 219

[210] نفس االمصدر ، ص 43.

[211]. نفس المصدر ، ص 219

السوق :

"السوق مكان تجاري تختلف بنيته الهندسية والعمرانية تبعا للمكان الواقع فيه سواء أكان قرية أم مدينة، وهو ليس مكانا للتبضع فحسب وإنما أيضا للقاء والحوار الاجتماعي المتبادل[212] ". يجتمع في السوق مختلف جوانب البشرية، حيث يجتمع فيه الفقراء والأغنياء والكبار والصغار، ويتبادلون ويشاركون في السوق الثقافة والحضارة بينهم، وكذلك السوق من تراث الوطن، وجزء من تاريخه، في خلفية السوق تتجسد حكايات وحوادث ووقائع مكتومة.

وقد ورد في سرديات الكاتب إشارات عن السوق، ومنها يصف وليد سوق خان الزيت: "عند مدخل خان سوق الزيت، استقبلتنا فلاحات، جئن من القرى المحيطة بالخليل تسللن،كما العادة، من طرق التفافية بعيد عن حواجز الجيش الإسرائيلي هربن أنفسهن وروائح النعناع والزعتر والنباتات الخضراء الأخرى تجنبا لأنظار الجنود وأنوفهم ونشرنها في كل مكان مررن به في المدينة، بدا السوق حيث عبرناه، مطرزا بالفلاحات وهم مطرزات بأثوابهن بحرير بلدي " [213].

يقول الكاتب أيضا عن سوق القطانين، من أجمل أسواق القدس، وهو من تراث الوطن، يعرض لنا وليد سوق القطانين "أنا الآن داخل سوق القطانين، أجمل أسواق القدس بناه سيف الدين تنكز الناصري، نائب الشام في عهد السلطان الناصر محمد قلاوون، سنة 1336 أتأمل حجارته الملونة، وسقفه نصف البرميلي الشكل، المحمول على عقود مدببة أتمشى على مهل تحت فتحاته الثمانية التي يدخل عبرها الضوء وتسمح بتهوية السوق المكتظ بالبشر".[214]

---

[212] فهد حسين : المكان في الرواية البحرينية ،فراديس للنشر والتوزيع، ط1، 2003م ، ص 88.

[213]. نفس المصدر ، ص 216

[214]. نفس المصدر ، ص 224

الفندق :

يعد الفندق محافظا على تراث الوطن ويشكل مكانا هاما في حياة الناس، إنه ليس مجرد مكان لتناول الطعام والشراب بل هو مكان يجمع الناس لأغراض متعددة، سواء العطالة، والحوار، وتبادل الأخبار أو للراحة والاستراحة، وتقليل الحزن والألم. بالإضافة إلى ذلك، يأتي المنفيون إلى الفندق للانتظار ولتفكير في وضعهم والاستعداد للعودة إلى وطنهم.

قد وردت تفسيرات كثيرة عن الفاندق ومنها "فندق عكوتيل"، وهذا الفندق هو مكان تراثي الذي يبقي في وطنه من غير هلاك لا يزال سليما، يناقش الكاتب عن الفندق خلال زيارته في عكا القديم " عاد بعده، إلى فندق عكوتيل ، الذي بدا في هذا الوقت ، خاليا من النزلاء ، شأن الفندق نفسه ،من بقايا حجارة السور الصليبي القديم ، وقد أسند مرفقه إلى سطح المكتب الخشبي اللامع في مواجهة مدخل الفندق مباشرة ، ينصت لمدير الفندق ، يروي له حكاية الفندق الذي مر على افتتاحه عشر سنوات ، وأقيم على بقايا مبنى كان مقرا حكوميا رئيسا في العهد العثماني ، ومدرسة للبنين في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين [215]" ، إن هذا الفندق لم يكن مجرد مكان لتناول الطعام ، بل كان أيضا مكانا شهد أحاثا تاريخية هامة في فلسطين، فقد كان مقرا حكوميا رئيسيا في عهد العثمانيين ، واستخدم كمدرسة للطلاب في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين.

يصف الكاتب عن مطعم النافورة : " كان المطعم من الداخل لوحة فنية طاولات مغطاة بشراشف أنيقة ونظيفة ، تفصل بينها مزهريات تحتفي ورودها بنفسها وبالزبائن تتوسطه نافورة ضخمة تضاهي ما في البيوت الدمشقية القديمة أما المازات وما قدم من المشاوي... غير أن وجودنا في القدس ،جعل لكل شيء

[215] نفس المصدر ، ص 43.

نكهة المدينة وحين قال صاحب المطعم إن الجدار الذي يواجهني مباشرة... هو جزء من سور القدس ،تغير الكثير في داخلي " [216].

الشارع :

" يعد الشارع جزءا لا يتجزأ من المدينة ، وأحد العلامات المكانية البارزة فيها ، تفتح عليه الأبواب وتتحرك من خلاله الشخصيات وهو أكثر من جغرافيا مكانية لأنه " الخيط الفاصل بين عالمين " : عالم السر وعالم الجهر... إذ عند البيوت والمنازل ينتهي عالم الناس السري ، ويبدأ عالمهم العلني ، حيث يبدأ الشارع وحين تتكشف الأسرر وتعلن الأعماق عن خفاياها... إنه الشارع النابض بالحياة " .[217]

يقول يسين النصير: "الشوارع أماكن مفتوحة ، تستقبل كل فئات المجتمع ، وتمنحهم كامل الحرية في التنقل وسعة الإطلاع والتبدل ، وهي لا تقوم على تحديدات ولا حدود ثابتة مما يصعب على الكاتب عملية الإمساك بها " [218].

يقوم الكاتب بجولة في شوارع مختلفة محاولا العثور على الشوارع القديمة ، إلا أنه جهوده تبوء بالفشل حيث تغير الشوارع وأسماؤها بشكل كبير، واستبدلت بأسماء جديدة ، يقول: " حين بلغنا شارع جلال ، أول شوارع المدينة من مدخلها الشمالي ، كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة ، وبدأت نسمات المساء تهب علينا من نوافذ السيارة ، وأبو حاتم يذكرني بالشوارع التي نمر بها ، فلا أتذكر سوى أسماء قديمة لشوارع لا ملامح لها ، بنايات مكدسة على الجانبين ، وبشر من كل الأعمار يتدفقون زاحفين فيها على غيرهدى "[219].

---

[216]. نفس المصدر ، ص 195.

[217] أحمد زنيير : جماليات المكان في قصص إلياس الخوري ، دراسة نقدية ، التنوخي للطباعة ، والنشر ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 2009، ص 46.

[218] يسين النصير : إشكالية المكان في النص الأدبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، بغداد ، ط1 ، 1986، ص 14- 15.

[219] المدهون، ربعي ، السيدة من تل أبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، 2010 ، ص 281.

المتحف :

يصوّر الكاتب في رواياته المتحف كمكان يحتضن فيه الذكريات والتواريخ والوقائع والأحداث والتراث ، وقد تكررت هذه الوصفات في عدة مقاطع من رواياته ومنها يقول : " دخلت المتحف من ممره الداخلي الطويل المنكسر بزاوية حادة ، إلى حيث تتوزع محتوياته على قاعات مصممة بطريقة فنية رائعة مررت بمعظم القاعات الكبيرة والصغيرة وتوقفت أمام العديد من الطاولات التي تقدم معلومات من خلال كتيبات أو أجهزة كمبيوتر استوقفني " قاعة الأسماء " واستولت على مشاعري قلبت الأسماء وتصفحت ملامح ضحايا ظلوا يراقبوني بينما أتأمل وجوههم وأتحسس مشاعرهم وأتخيلهم في لحظات التقاط صور لهم لحظات لم تتوفر لمن تحولوا إلى عظام أو اختفت جثثهم رفعت رأسي إلى أعلى أتابع الملامح والأسماء صعودا إلى أن بلغ نظري نهايتها الدائرية المفتوحة على السماء في تلك اللحظة اطلت علي وجوه آلاف الفلسطينين الذين عرفت بعضهم ولم أعرف الكثيرين منهم يتزاحمون كمن يرغبون في النزول إلى قاعات المتحف والتوزع عليها ، واحتلال أماكنهم كضحايا حزنت على من هم منا وعلى من هم منهم ، وبكيت على أولئك المتزاحمين في السماء"[220].

يستعرض الكاتب عن المتحف الآخر المسمى متحف " زخروت هفلسطينيم " الذي يمكن أن يكون كذلك كنزا لذاكرة الشعب الفلسطيني ، وهو يقول: "هؤلاء الناس ينتظرون دورهم لزيارة متحف " زخروت هفلسطينيم " ، إنه متحف ذاكرة الفلسطينيين بني حديثا في أعقاب المصالحة التاريخية التي وقعت قبل سنتين فقط ، بين الشعبين في البلاد".[221]

[220] المدهون، ربعي : مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2015 ص ، 239-240.

[221] نفس المصدر ، ص ، 241.

يتحدث الكاتب عن متحف " يد فشم " حين زار وليد هذا المتحف : " دخلت المتحف من ممره الداخلي الطويل المنكسر بزاوية حادة ، حيث مشاعري قلبت الأسماء وتصفحت ملامح ضحايا ظلوا يراودنني بينما أتأمل وجوههم وأتحسس مشاعرهم وأتخيلهم في لحظات التقاط صور لهم لحظات لم تتوفر لمن تحولوا إلى عظام أو اختفت جثثهم ، رفعت رأسي إلى أعلى أتابع الملامح والأسماء... أطلت علي وجوه آلاف الفلسطينيين الذين عرفت بعضهم ولم أعرف الكثير منهم... حزنت على من هم منا وعلى من هم منهم ، وبكيت على أولئك المتزاحمين في السماء " [222] ، ويقول أيضا : " في هذا المتحف الذي تزوره يا وليد باسم كل اسم فيه ، يقتل منكم اسم ، وأحيانا أسماء ولكي لا تتكرر محرقة النازية لليهود ، يشعل الإسرائيليون باسم ضحاياها ،محارقة كثيرة في بلادنا قد تصبح في النهاية محرقة "[223].

البحر

البحر هو أعظم وأجمل قوة كونية وهو فضاء لانهائي واتساع هائل ، وهو مصدر رزق وحياة للإنسان ، وقد أسر قلوب الأدباء والشعراء بجماله وعظمته ، واستلهموا منه في أعمالهم الأدبية. إنه موضوع ألهم الروائيين أيضا، حيث استخدموا البحر كخلفية لقصصهم التي تتناول قضايا البحر والبحارة ، ومن ناحية أخرى رسم الروائيون البحر كمكان يطهر القلوب، ويزيل الأحزان والقلق، حيث يندمج الإنسان مع موجاته ويشعر بالسلام ويجد فيه ملاذا يتبادل فيه الأفكار والأحلام مع هذا العنصر الطبيعي.

يصوّر الكاتب البحر بأنه شبيه بالظلام، حيث يرتبط بالقلق في نفوس الناس، ويمكن أن يعيق النوم، ومن ناحية أخرى، يصوّر البحر كمكان يمنح الطمأنينة ويستحضر ذكريات الماضي، ويقول :" لتنم جنين تلك الليلة البحر ، أيضا ، أرق وظل ساهرا ، يتقلب موجه على أصواته خلف النافذة كأنها تنفس ثقيل ، بينما

[222] نفس المصدر ، ص 239-240.

[223] نفس المصدر، ص 240.

هي مضجعة على السرير مثل سفينة جانحة نحو الغرق ، كان باسم قد سبقها إلى الفراش تكوم على نفسه مثل لفافة يأس وغفا وتمددت هي إلى جانبه تراقب أنفاسه تخنق أنفاسها "[224].

المكان المغلق

هو ضد المكان المفتوح " فإذا كانت الفضاءات المفتوحة امتدادات للفضاء الكوني الطبيعي مع تغيير تفرضه حاجة الإنسان المرتبطة بعصره ، فإن الحاجة ذاتها تربط الإنسان بفضاءات أخرى يسكن بعضها ، ويستخدم بعضها في مآرب متنوعة ، فالبيت مسكنه يحميه من الطبيعة ، والمستشفى مكان العلاج ، والسجن قيد يسلبه حريته ، وحدودها يشكل عائقا في تنقل الإنسان "[225] ، ومن الأماكن المغلوقة في روايات ربعي المدهون.

السجن :

يصور الكاتب السجن في رواياته كمكان مغلقا ويسرده خلال سفره في السيارة " إذا كانت حرية الإنسان هي جوهر وجوده والقيمة الأساسية لحياته ، فإن السجن هو استلاب لهذه الحرية ، وبالتالي فهر استلاب بالوجود وإهدار الحياة " [226].

ويسرد أيضا " عند محطة عتليت التي جاءتني بأسوء ما في الذاكرة من أشكال اضطهاد البشر للبشر ، وعرضت علي مشاهد مما يقال ويروي عن سجنها الشهير وهو أكثر السجون الإسرائيلية بشاعة " [227] " وصل القطار كئيبا ينظر إلينا من نوافذ طابقين مفتوحين على توجس قلت لنفسي ، إنه يصلح لنقل نزلاء

---

[224] نفس المصدر، ص 109.

[225] حبيلة شريف : بنية الخطاب الروائي ، الأردن ، إربد ، عالم الكتب الحديث ،2010، ص 204.

[226] مصطفى التواتي : دراسة في روايات نجيب محفوظ ، دار الفارابي ، بيروت ،ط3، 2008 ،ص 106 – 107.

[227] المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، ص 232.

سجن ليمان " طرة المصري " ، الذي يجبرون على قطع صخور جبلية لا حاجة لقطها أصلا ، سوى تنقيذ أحكام بالأشغال الشاقة صدرت بحقهم ،لا لنقل شخصين مثلنا " [228].

[228]. نفس المصدر ، ص1 23

المخيم :

ذكر المخيم في خان يونس أثناء حديث أم وليد وعمته عن سيرة محمود دهمان ، بأنه ملعون على عيشه ، يقول : " في ذلك الصباح مددوني على فراشي الصغير ، الممدد على أرض غرفتنا الوحيدة في المخيم ، وتحلقوا حولي يثرثرون ويتجاذبون سيرة محمود دهمان كانت تلك ، المرة التي أسمع فيها أحاديث عنه خارج جدل أمي وعمتي كثيرون سبوا محمود ولعنوه ، مندهشين من قدرته على العيش بين اليهود وآخرون حسدوه على إسسرائيليته التي ليس لهم مثلها " [229].

وقد عرضت معاناة " باقي هناك " الذي يبحث عن طليقته نادية : " وصل " باقي هناك " إلى مخيم خان يونس صيف عام 1967 ، العام الذي وحدت فيه اسرائيل البلاد الثانية ، لم يجد " باقي هناك " طليقته نادية ، الشابة التي عبأت المجدل عسقلان صراخا وهي تحاول إقناعه بالصعود إلى شاحنة الراحلين " [230].

الشقة :

يروي الكاتب عن الشقة في رواياته ، وكانت أمه تعيش في الشقة بعد فراق ابنه بسبب النكبة ، يقول الكاتب: "يلتقي وليد أمه في شقة لم يدخلها من قبل ،يطلقون عليها " شقة العزابي الأخير " ، تتكون الشقة من غرفتين ، خصصت إحداهما المطلة على شارعين لإقامته ، جهزت الغرفة بسرير خشبي وكنبة عريضة ومكتب متواضع ، سوف يجلس إيه وليد كثيرا ، تقع شقة " الغزابي الأخير " ، على الطابق الرابع ، في عمارة بنيت على خط وهمي يفصل بين مخيمي بيت لاهيا وجباليا ويجعلها تنتمي لبلديتين " [231].

---

[229] نفس المصدر ، ص 119.

[230] نفس المصدر ، ص 160

[231] المدهون، ربعي ، السيدة من تل أبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، 2010 ، ص 4

البيت :

وقد بيّن المدهون البيت في روايته بصورة جيدة حيث تتحدث جولي عن بيت جدها أردكيان مع وليد وتصفه له : " كان ديكور البيت من الداخل عربيا تقليديا بصنع كنبات قديمة حمراء يشبه قماشها السجاد ،كالحة وصغيرة ألقي عليها بضعة مساند مطرزة وقد سارعت المرأة التي تتحدث الإنجليزية بشكل مقبول... في تجديد البيت وتغيير أثاثه كله ، لأنها قررت أن تحوله إلى نزل صغير لسياح لكنها ستبقي على طابعه الشرقي ، وديكوراته التي تروق للسياح وخصوصا الأوروبيين المولعين بسحر الشرق " [232].

يقول الكاتب " تجولت بنظري في شارع طويل بمنازل كانت من طابقين ،مازال أسفلها يحمل بقايا بعض ما كان يعلوه في خلفية الشارع إلى اليسار ، ثلاث نخلات عمتي كانت هناك...، للبيت ، " علية" ، طابق ثان أخذتني أمي إليه ذات مرة ، حملتني على كتيفها حين كانت لها كتفان تحملان ، وصعدت بي سلالم رخامية تنتهي بفسحة مبلطة تسبق غرفتين... عمتي ليست هنا عمتي ماتت في خان يونس ، هناك في بيت على حافة مخيم لاجئين لم أجد أثرا لها حين زرت المقابر القديمة في المدينة قبل سنوات ، ولا حتى حرفا من اسمها"[233].

يقول وليد عن حكاية بيت الدهامنة الذي أصبح بيت رومة العروسي : " كان بيت الدهامنة الذي صار بيت رومة العروسي ، نموذجا لبيت عادي ، صورة من ذاكرة كل بيوت عائلة دهمان وربما المجدل كلها ، جميع الإسرائيليون فيه ملامحنا القديمة مثل مقتنيات تراثية من ماض لا يعود ما جعلوه حاضرا ، ووضعوا فيه ملامحهم التي جاءوا بها من كل بقاع الأرض مثلما جاءت رومه والآخرون " [234].

[232] المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، ص46.

[233] نفس المصدر ، ص 46.

[234] نفس المصدر ، ص 60.

يصف الكاتب عن بيت العروس في الرواية يقول : " هذا البيت هو آخر البيوت الخاصة الرئيسة في حارة دهمان ، التي سميت باسم العائلة التي كانت تقيم فيها يعد البيت نموذجا للبيوت العربية المميزة وقد بني بحيث تتوسطه ساحة تسمى " الحوش " ، ويعد أساسيا في البيوت العربية ، تحيط به غرف النوم عادة ، وتنفذ فيه غالبية الأعمال المنزلية اليومية ميزت هذا البيت ، أنه لم يزل يحتفظ بالوسائل التقنية التقليدية الأساسية البسيطة التي اعتمد عليها السكان العرب في حياتهم "[235].

المستوطنة :

جاءت هذه الكلمة تحت اسم مستوطنة " غفعات شاؤل ب" من خلال حديث دار بين تالا ووليد : قبل سنوات كانت تلك – وأشارت بيدها إلى الموقع البعيد الذي نقصده على الأغلب – مستوطنة غفعات شاؤل ب ،الآن نسميها " عير شل سلحانوت " ، يعني التسامح لم يعد أحد يستخدم كلمة مستوطنة التي تذكر بزمن صداع لا يرغب أحد تذكره " [236]

يبين الكاتب عن المستوطنة : " بينما تتجول أعين الجميع على ما يظهر من بيوت المستوطنة ، المضيئة وسط أشجار غابة نائمة على مقربة من المستوطنة ، أشعت بعض أنوار مستشفى هداسا ، ثم الجامعة العبرية التي يقيم بعض طلابها في المستوطنة ، ضمن سبعة آلاف هم مجموع سكانها " [237]

[235]. المدهون، ربعي : مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط3 ، 2015 ص-56 - 57

[236]. المدهون، ربعي ، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، ص 243

[237]نفس المصدر ، ص 196

الفصل الرابع :الزمن في روايات ربعي المدهون

يعتبر الزمن من أهم عناصر الرواية ، ولعل أول ما يفكر به الروائي قبل كتابة الرواية وهو تعيين وتحديد الزمن ، يقول عبد الحميد أن الزمن " هو تقنية من أدق التقنيات التي تؤثر مباشرة ، في البنية العامة للزاوية ،وهي التي تحكم الأزمة المتغيرة في نطاق رؤية الراوي العامة ، وبهذا تتمكن الرواية من الاستجابة لهذه الرؤية في نهاية الأمر " [238]. الزمن يحتوي الإنسان بين قطبيه ، ولذلك يسعى دائما للانفلات من سيطرة الزمن وحركته ، ولكن مهما حاول التفلت فإن الموت هو نهاية حتمية للوجود " [239]

تكون العلاقة بين الزمن والشخصيات وثيقة ، هذه العلاقة تأثرفي بنائها وتطورها ونموها ، يقول غريد الشيخ : " أن الشخصية تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديد وتتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل وبدونها يشحب الزمان ويخمد أيضا "[240]، يعنى أن الشخصية تبنى علاقة جيدة ووثيقة ، تمتد عبر الماضي والحاضر والمستقبل وتتطور في كل الأزمنة.

الزمن التاريخي

الزمن في الملفوظ الروائي لا يستقل بنفسه ، وهو هام جدا لأنه يمثل قاعدة العمل الروائي كما رأينا ، وذو أثر في الحوادث والشخصيات والروائي في نصه قد اختار لهذا النص زمانا ومكانا محددين ، مما يجعل له تاريخا ، وهذا التاريخ المتصل بالأحداث الروائية يجعلها تتسم بالواقعية ، ويسيطر عليها عنصر التشويق لأن " الفن الروائي هو أكثر الفنون التصاقا بالزمان والمكان ، وتبدو فيه الطروحات الفيزيائية لقضايا الزمن وعلاقاته بالمكان والتعالق العضوي بينهما مسألة قابلة لكثير من التصورات والجدل "[241]. إن النص الروائي الذي ينقل هذه التواريخ وينقب عن الماضي ، حيث يطلق الروائي العنان للذاكرة لاستعادة الأحداث ،

---

[238] عبد الحميد محادين : التقنيات السردية في رواية عبد الرحمن منيف ، دار العربية للكتاب، تونس ، ط1 ، 2005،م، ص 7.

[239] حسن القصراوي : الزمن في الرواية العربية ، دار الفارس ، بيروت ، ط1، 2004 م، ص 129.

[240] غريد الشيخ : الأدب الهادف ، قناديل التأليف والترجمة والنشر ، بغداد ، ط1، 2004 م، ، ص 380.

[241] عبد الحميد المحادين ، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1999 م، ، ،ص 85.

وترجمتها إلى نص أدبي قد يجعل هذا الكلام الروائي النتاج وثيقة تاريخية موضوعية بدلا من جمالية فنية ، لكنه كان كذلك قادرا على اتخاذ الموضوعية التاريخية كخلفية للأحداث من أجل إعطاء الحدث التاريخي هو ذوقه ، ولا يعطل جماليته الفنية ، " فالوقائع التي تحدث في زمن واحد لابد أن ترتب في البناء الروائي تتابعيا " [242] ، لأنه لا يمكن أن يروي عدد من الوقائع في آن واحد فيكون في خطابه أكثر حرية في التحليل ولا يمكن أن يتشارك الخطاب الروائي مع نفس اهتمامات الخطاب التاريخي ، الأول خطاب فني وجمالي وابداعي ، والثاني موضوعي وواقعي.

أن التاريخ هو مجموعة من الأحداث التي لا تحمل قيمة أيديولوجية فنية ، والعمل التخيلي هو الذي يغير مساره الأساسي وتصبح عبارة عن ققراءة تأويلية للأحداث ، ينفخ فيها الراوي من نفسه وروحه ويخلق فيها أبعادا وأيديولوجيات تنبثق من نفسه أو من مجتمعه. يتخذ الروائي الأساليب الفنية التي تسمح له بالمزج بين الأزمنة فيقدم الحاضر على الماضي وفقا ما تمليه الذاكرة ، فهي التي يسمح له بتنمية شخصيته من خلال تحويل الحلم والذاكرة إلى دافع وتشجيع يربط بين الماضي والحاضر ، فيكسر بذلك الزمنية التاريخية ، ويجعل الخيال يطفو ويحوم في فضاء الإبداع ، فيصبح الزمن التاريخي عنصرا مساعدا في الكشف عن طبيعة الكلام السردي بكل تفاعلاته وصراعاته الأيديولوجية.

يلعب الزمن دورا مهما في حياة الشعب الفلسطيني ، كانت فلسطين قد تعرضت لعدة من البلايا والمحنات منذ زمان قديم ، قد احتلت السلطات المختلفات أرض الفلسطين ، وكانت السلطة العثمانية قد احتت الفلسطين قبل النكبة ثم البريطانية والروسية واليهودية الذين سلبوا أرض شعب الفلسطين وطردوهم من وطنهم المحبوبة ، حاول شعب الفلسطين للمكافحة واتجاه المحتلين ولكنهم فشلوا في محاولتهم ، فكل هذه الأحداث والوقائع مثل الاحتلال والنكلة والانتداب البريطانية وقيام الدولة الإسرائيلية والنكسة وحرب السويس قد سبب لعدم حقوق وطنهم ،وكان الكاتب الذي ممن تعرض وشعد لهذه الأحداث المتوجعة ،

[242] عبد الحميد المحادين ، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1 ، 1999 م، ، ،ص 73 .

ولذا فإنه يحاول أن يشارك مشاعره وأفكاره وتجرباته وآلامه وتاريخ الفلسطين أمامنا خلال سرديات من رواياته.

زمن ما قبل النكبة :

قد تعرض الشعب الفلسطيني بالتهجير والنفي والطرد والشتات بسبب النكبة التي وقعت عام 1948 م ، وتفرقت أهل الفلسطين في أنحاء العالم وضاعوا وطنهم ، وصاروا من المهاجرين والمنفيين في الأرض. يظهر الكاتب أمام القارئ صورة الفلسطين الحقيقية عن الزمن ما قبل النكبة حيث نجد عن صورة مدينة الفلسطيني وشعب الفلسطيني وأحوال معيشتهم في زمن ما قبل النكبة ، وقد تجلى ذلك في رواية مصائر : " دخلنا البيت الذي كان لنا قبل سقوط المجدل عسقلان في أيدي القوات الإسرائيلية... تساقطنا إلى الداخل مثل قطرات دمع ساخن في الزواية اليمنى ،.... تتعثر قدماي الصغيرتان في العتبة التي تشبه درجتي سلم رفيعتين واطئتين ،تلتقطني أمي وتصرخ " اسم الله عليك يمه ، اسم الله وجيرة الله عليك " أخفي دمعتين أطلقهما سرا في بيت والدي ، أحقا هو بيت والدي ؟ أم هي مراوغة ذاكرة أثقلتها "[243] ، فالروائي هنا انتقى أزمنة تتناسب والوقائع الحقيقية التي حدثت للشعب الفلسطيني.

زمن الانتداب البريطانية :

الانتداب البريطاني على فلسطين والأردن، الذي نشأ في منطقتي فلسطين وشرق الأردن، عام 1920م ، واستمر لأكثر من عقدين ونصف 1920-1948 م، وذلك ضمن الحدود التي قررتها بريطانيا وفرنسا بعد سقوط الدولة العثمانية إثر الحرب العالمية الأولى . يروي لنا الروائي زمن الاحتلال البريطاني في فلسطين " في يوليو 1946 ، وتفجير فندق الملك داود في القدس ، الذي اتخذت منه حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين مركزا رئيسيا لها حينذاك ، والذي قتل فيه واحد وأربعون فلسطينيا ، وثمانية وعشرون من

[243]. المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط1، ص 58

الإنجليز ، وسبعة عشرة يهوديا ، وخمسة من جنسيات أخرى ، وأصيب خمسة وأربعون بجروح مختلفة نجا الضابطان البريطانيان من الحادث "[244] ، هنا يبين الكاتب عن الزمن الذي احتلت البريطانية في أرض الفلسطين.

" أشبك ساعدي على صدري بحركة صبية مراهقة ، وأراقب شفتي وليد تستعيدان دفء كلمه : " أنا متزوج من سيدة والدها إنجليزي ووالدتها من أصل فلسطيني ،ولنا ولدان ، كانا والدها ، جون ليتل هاوس ،ضابطا في جيش الانتداب البريطاني في فلسطين في أربعينات القرن الماضي " [245]

زمن قيام دولة الإسرائيلية :

الاحتلال يعلم جيدا أن الكلمة أقوى من السلاح فبداية الثورة كلمة وبداية الحرب والسلام كلمة ، كما أن الروايات الفلسطينية بالمجمل تتحدث دائما عن الهم الفلسطيني وحق الفلسطيني في الأرض المسلوبة وتدحض الرواية الإسرائيلية بأن أرض فلسطين بلا شعب.

" بحلول الخامس عشرة من مايو 1948 ، كانت بريطانيا ، قد أنهت تفكيك معسكراتها ، ورحل جنودها تاركين فلسطين للمجموعات العسكرية اليهودية التي أعلنت قيام الدولة إسرائيل " .[246]

كانت قيام دولة الإسرائيلية قد كانت آخر احتلال في أرض فلسطين ، وذلك يصور الروائي هناك.

زمن النكبة :

لم يكن تاريخ الخامس عشر من أيار 1948 م ، والذي يعرف باسم يوم " النكبة " لدى الفلسطينيين ، سوى ترجمة لسنوات طويلة سبقته ، من التخطيط " الصهيوني " والبريطاني " لطرد الفلسطينيين من أرضهم ، وإقامة الدولة اليهودية عليها ، أن النكبة الفلسطينية خلفت حالة فريدة في التاريخ الإنساني ، وهي حالة

[244] المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط1، ص 22

[245] المدهون، ربعي ، السيدة من تل أبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، 2010 م، ، ص 113.

[246] المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط1، ص 31.

الارتحال القسري لشعب كان مستقرا في مكانه ،وقارا في بقعة جغرافية محددة على الخريطة باسم فلسطين. " عند فجر 18 مايوا 1948 ،بعد مغادرة جدي البيت للمرة الأخيرة بيومين ، مسرحين نحو البحر ، مع كثيرين من سكان عكا الذين لا حقتهم القذائف والجوع والعطش في ذلك الوقت "[247] ، يحاول ربعي المدهون أن يعيد قراءة المشهد الفلسطيني بعد النكبة التي سلبت شعب فلسطيني وطنهم.

زمن النكسة 67 :

يشير يوم النكسة يونيو 5 عام 1967 م ، الذي يحيي فيه الشعب الفلسطيني ذكرى التهجير والذي رافق انتصار إسرائيل عام 1967 م في حرب الأيام الستة ، فقد حدث كنتيجة لهذا الحرب أن استولت إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة ، المأهولتين بالسكان الفلسطينين والتين كانتا في السابق تتبعان الأردن وتخضعان لسيطرة مصر على الترتيب ،" حين احتلت إسرائيل قطاع غزة في حرب 1967 م ، قال هنا منة كثيرون التقى الفرع بلا أصل ، صار الناجون مشردون "[248].

" الاحتلال هو المجنون يا سيدتي " لا تعلق فأواصل بكثير من المرارة وبانفعال مسيطر عليه تماما : منذ حرب 1967 لم تعد عودتي ممكنة أو مسموح بها أصلا " حقا ، لقد فاتني ذلك " .[249]

[247] المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط1،ص 12.

[248] نفس المصدر،ص 2 12

[249] المدهون، ربعي ، السيدة من تل أبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، 2010 ، ص 94.

زمن أزمة السويس :

أزمة السويس ،المعروفة أيضا بالعدواني الثلاثي، كانت حربا وقعت في مصر عام 1956م،حيث قامت فرنسا واسرائيل وبريطانيا بالاعتداء على مصر بسب تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس، تعد هذه الأزمة واحدة من الأحداث الهامة التي أثرت على التوازن الدولي بعد الحرب العامية الثانية وثاني حروب العرب وإسرائيل بعد النكبة الفلسطينية. يقول الكاتب عن جغرافية الدولية الفلسطينية ، وكيف تم قسيمها ،في حرب السويس عام 1956، حيث أعادت إسرائيل وصل الجغرافيا التي فطعتها وحققت للفلسطينين في القطاع أول وحدة مع القسم... ، وأطول من الوحدة المصرية " .[250]

زمن بعد النكبة :

منذ سقوط فلسطين في أيدي العصابات الصهيونية ، وإعلان قيام دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية عام 1948 م ،بمباركة القوى الإمبريالية الغربية ، تعرض السكان الأصليون لسلسلة من عمليات الإبادة والطرد والتهجير القسري ، لم يكتف قادة المنظمات الصهيونية " الإرهابية " بطرد الفلسطينين وتقتيلهم وسلب أراضيهم بطريقة مدروسة ، بل واحوا بكل قوة وعزيمة يجسدون المخطط الاستيطاني بإحلال " شعب " مكان " شعب " آخر ، فدمروا القرى وأحرقوا المنازل وجرفوا البساتين والحقول في محاولة لاستئصال تاريخ شعب بأكمله ، وتطهيره من بصمات الوجود الفلسطيني. غابت فلسطين من الجغرافيا بعد النكبة ، ولكنها لم تغب من التاريخ والابداع ، إذ تحول الشعب الفلسطيني من شعب مستقر إلى شعب لاجئ يحمل تاريخه في كل مكان استقر فيه. بعد احتلال فلسطين عام 1948م من قبل العصابات الصهيونية وإعلان قيام دولة إسرائيل، وبدعم من القوى الإمبريالية الغربية، تعرض الشعب الفلسطيني لعمليات إبادة وطرد وتهجير قسري. لم تكتف قادة المنظمات الصهيونية بطرد الفلسطينين وقتلهم وسلب أراضيهم بل قاموا بتدمير القرى وحرق المنازل وجرف البستاني والحقول في محاولة لاستئصال تاريخ

[250] المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط2 ، ص 160.

الشعب الفلسطيني بأكمله وتطهيره من بصمات وجوده على الرغم من اختفاء فلطسين من الخريطة الجغرافية بعد النكبة، إلا أنها لم تختف من التاريخ والابداع ، تحول الشعب الفلسطيني من شعب مستقر إلى شعب لاجئ يحمل تاريخه في كل مكان استقر فيه.

يبين ربعي المدهون : " لم يستوقفه السوق الأبيض الذي لم يعدله لون اسمه فقد بدا خاليا إلا من سقفه المقوس ، وأبواب محلاته المغلقة... وخلال أقل من أربع دقائق كان داخل السوق الشعبي يقف أمام حمص سعيد كان ثمة سياح يتجمعون أمام المحل "[251]. يطرح المدهون في روايته " مصائر " أسئلة لها حساسية تاريخية وسياسية تتعلق بقضية الصراع العربي / الفلسطيني الإسرائيلي منذ بداية الغزو اليه واقتلاع الفلسطينين من أرضهم ، أو ما يعرف بأحداث النكبة والغريبية ، التي فجرت قضية اللاجئين في الداخل والخارج.

يحاول ربعي المدهون أن يسرد الزمن التاريخي في بداية الرواية اعتمادا بالاسترجاع يعني يسرد الأحداث بتذكير الشخصيات التي يتذكر الأحداث التاريخية من تاريخ فلسطين ، ومنها ما ورد في المقطع الآتي : " عرف وليد من فاطمة أن بيت أرديكيان ظل مغلقا على أثاثه ومحتوياته سنوات عدة ، بعد رحيل مانويل وزوجته أليس عن المدينة ، في السادس عشرة من مايو1948 م ، أي قبل يومين من سقوط بأيدي المنظمات اليهودية "[252] ، يعود الكاتب إلى أغوار الماضي ، ويحدثنا حول بيت إيفانا ، وأنه أصبح ملكا لعائلة يهودية تسلمته من الإسرائيليين.

أن الكاتب يربط بين الأحداث التاريخي التي وقعت من ماضي ، ويقارن هذه الأحداث التاريخية بتاريخي الأحداث الراهن ، وهو يجعل من الزمن خيطا متينا يربط الأحداث ببعضها البعض ويخلق العلاقات بين الشخصيات. يخبر الروائي للعالم أن أرض الفلسطين هي للفلسطينيين فقط ، ليس للمحتلين الذين

[251] المدهون، ربعي : روية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط2 ، ص 41.
[252] المصدر نفسه ، ص 17.

يحتلون أرض فلسطين ليس لهم حق أن يعيش في أرضهم.يقصد ربعي بالاستباق والاسترجاع أن يلتفت نظر المجتمع إلى تاريخ فلسطين وأن يعيد لشعب الفلسطيني أرض الفلسطين التي احتلت الإسرائيل. يفسر الكاتب عن الذين من يتعرضون ويتجربون ذائقة النكبة التي وقعت عام 1948 م وأحوالهم بعد وقوع النكبة وهم منفردين ومهاجرين واحتل اليهود وطنهم وهم ضحايا من النكبة ويقول ذلك في الرواية السيدة من تل أبيب " يشعر عادل بأن آرنة قررت ، منذ البداية ، تقديم نفسها من خلال (مأساة اليهود) ، التي لم يكن هو أو أي من آبائه أو أجداده طرفا فيها ، بل كان وعائلته وبقية الفلسطينيين ضحاياها غير المباشرين ،يحدثها بدوره ، عما تسببت به هجره اليهود إلى فلسطين من مآس لسكانها توجت بنكبة عام 1948م ، وعن هجرة عائلته إلى غزة ونشأته في مخيم للاجئين ،والاحتلال الذي يتواصل لما تبقى من أرض فلسطينية منذ ثمانية وثلاثين عاما ".[253]

الاسترجاع

لا تسير الروية في خط زمني واحد ، تنتقل من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل ، بل تراوح بين وحدات زمنية: الماضي والحاضر والمستقبل ، لأن الأحداث في الرواية ليست مرتبة كما حدثت على أرض الواقع ، بل تكسر الخط الزمني من خلال استخدام تقنيات الاسترجاع : أي العودة إلى الماضي ، والاستباق ، أي القفز إلى المستقبل ، وحسب ما يرى حسن بحراوي " فإن كل عودة للماضي تشكل ، بالنسبة للسرد ، استذكارا يقوم به لماضيه الخاص ، وحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة " [254] ، يأتي الاسترجاع الخارجي على صورة تذكر لأحداث سابقة للحدث الذي تبدأ به الرواية ، وأدي إلى تذكرها ظهور إشارة معينة في الحاضر تذكر بها ، كوقوع حدث هو على النقيض من حدث وقع في الماضي ، فيذكر الحدث الماضي لبيان مدى المفارقة بين الحدثين.

[253] المدهون، ربعي ، السيدة من تل أبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط3، 2010 ، ص 103.

[254] حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1990،ص 121.

يجيء الاسترجاع أيضا لتذكير الشخصية بما قد تكون نسيته ووظيفة الاسترجاع الخارجي إنارة ماضي الشخصية ، فالاسترجاع الخارجية ، لمجرد أنها خارجية ، لا توشك في أي لحظة أن تتداخل مع الحكاية الأولى ، لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة ، ومن خلال الاسترجاع يجد القارئ معلومات إضافية تعينه على فهم أحداث حاضر الشخصية ، ويشرح عدنان خالد عبد الله ذلك يقول : إن القاص يقطع تسلل الحدث الزمني ليقدم خلاصة لحادثة حصلت في الماضي والارتجاع الفني مهم لفهم أحداث العمل القصصي ، من حيث تقديمه للقارئ معلومات إضافية تعينه على تتبع الحدث ومجريات الأمور "[255]. يمثل الكاتب إشكالية زمنية التي تتأرج بين ماضي وحاضر ومستقبل في رواياته ، فتأتي بنية الزمن في رواياته انطلاقا من حاضر السرد إلى الماضي وزمن الأحداث ، ومن الماضي في اتجاه المستقبل وما سيحدث.

الاستباق

إذا كان الاسترجاع يعود بالنص السردي إلى أحداث ماضية ، فإن الاستباق يقفز بهذا النص نحو أحداث مستقبلية لذا يطلق عليه (والاس مارتن) تسمية " الاضاءة والتوقع "[256] ، لأنه يضيء للقارئ ما سيحدث في مستقبل النص ، ويقول جير الد برنس تعريفا للاستباق وفق رؤية جيرار جينيت على أنه استدعاء حدث أو أكثر سوف يقع بعد لحظة الحاضر "[257] ، فالاستباق يسهم في إبراز خيال الروائي ، كما أنه يحقق مفارقة زمنية بين الحاضر والمستقبل.

ويكون الاستباق في الرواية أقل انتشارا من الاسترجاع ، لكنه ليس أقل أهمية منه " [258]، ويوضح هنا " أن الماضي أكثر وضوحا من الحاضر والمستقبل ، فالماضي والحاضر مرتبطان بحقائق حدثت بالفعل أو

[255] عدنان خالد عبد الله ، النقد التطبيقي التحليلي ، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986،ص 80.

[256] مارتن والاس : نظريات السرد الحديثة ، ترجمة : حياة جاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998، ص 164.

[257] جيرالد برنس : قاموس السرديات ، ترجمة : السيد إمام ، القاهرة ، ميريت للنشر والمعلومات ، 2003 ، ص 158.

[258] جينيت جيرار ، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير ، ص 124.

تحدث الآن ، أما المستقبل فما من شيء يضمن لنا أن يأتي على النحو الذي نريده أو نتوقع " [259]. يستخدم الروائي الاستباق لوظائف كثيرة منها " إلقاء الضوء على حدث ما يعينه ، لما يحمله من دلالات عميقة يمكن تفجيرها أمام القارئ من خلال تقنية الاستباق " [260]، وكذلك الإعلان الصريح عن أحداث ستأتي في وقت لاحق بصورة أكثر تفصيلا وتوضيحا ، وذلك لخلق حالة انتظار في ذهن القارئ "[261]. يمكن أن يقسم الاستباق إلى قسمين ، الاستباق بوصفه تمهيدا والثاني الاستباق بوصفه إعلانا.

[259] النعيمي ، أحمد حمد : إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، لبنان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ، دار فارس ، ط1 ، 2004، ص 39.

[260] القصراوي ، مها حسن : الزمن في الرواية العربية ، ص 213.

[261] بحراوي حسن ، بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، 1990.

الباب الرابع: الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون

الفصل الأول: الوطن في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول: تجليات الوطن

المبحث الثاني:الوطن المستوطنة (المحتلة)

المبحث الثالث: الوطن المفقود

المبحث الرابع: صورة المدينة

الفصل الثاني: شعور الوطنية في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول: حب الوطن

المبحث الثاني: الانتماء إلى الوطن

المبحث الثالث: استعادة الوطن

المبحث الرابع: التعايش في الوطن

المبحث الخامس: التراث في الوطني

المبحث السادس: الهوية الوطنية

الفصل الثالث: القضايا الوطنية في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول: قضية الحرب

المبحث الثاني: قضية الاحتلال

المبحث الثالث: المقاومة

المبحث الرابع: قضية المرأة

الفصل الرابع: المنفى في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول: المنفى في الوطن

المبحث الثاني: المنفى في المنفى

الفصل الخامس: أنواع المنفى في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول : المنفى المكاني

المبحث الثاني: المنفى الجسدي

المبحث الثالث: المنفى السياسي

المبحث الرابع : المنفى الذاتي

المبحث الخامس : المنفى الاجتماعي

المبحث السادس : المنفى الثقافي والحضاري

الفصل السادس: شعور المنفى في روايات ربعي المدهون

المبحث الأول: العودة من المنفى

المبحث الثاني: الحنين إلى الوطن

المبحث الثالث: الذكريات من المنفى

المبحث الرابع: الوصية من المنفى

الباب الرابع: الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون

الفصل الأول: الوطن في روايات ربعي المدهون

الانتماء للوطن هو أمر جلي و فطري وغريزي، هو جزء من الطبيعة البشرية، إن حب الإنسان لوطنه الذي نشأ فيه وتربى، هو شعور طبيعي لا يمكن إنكاره، ويشعر بحنين صادق إلى وطنه عندما يغادره إلى مكان آخر، حيث أن وطنه يمثل له الخصوبة والدفء والذكريات الجميلة، فكل ذلك مما يدل على قوة ارتباطه بوطنه وصدق انتمائه إليه، هذا الانتماء هو جزء من فطرة الإنسان التي خلقها الله، ويكون خصوصا للمسلمين الذين لهم علاقة وثيقة بأوطانهم. مفهوم الوطن في نظر الأدباء والكتاب، لنجد أن الوطن ليس مجرد المكان الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان، بل هو أيضا المجتمع والثقافة والتاريخ والذكريات التي ترتبط به، الوطن هو المكان الذي يشعر فيه الإنسان بالانتماء والانسجام مع محيطه، وهو حيز مقدس يحمل في ذاكرته العديد من اللحظات والتجارب التي تميزه وتجعله جزءا لا يتجزأ من هويته..

إن الشاعر أبا بركات البلفيقي شاعرا من الأندلس (م680 -م773) لا يرى الوطن وطنا إلا بمن فيه من الأهل والأحبة:

تغربت عن أهل وعن وطن

فقلت: لم يبق لي أهل ولا وطن

مضي الأحبة والأهلون كلهم

وليس بعدهم سكنى ولا سكن .[262]

[262]د- عبد الحميد عبد الله الهرامة: القصيدة الأندلسية خلال القرن هـ 08، الظواهر القضايا والأبنية، دار الكتاب، طرابلس ط1، 1991م، ص412.

الوطن والمواطن والوطنية، كلمات تجذب القلوب وتترسخ في الوجدان الإنساني الإنسانية، تحمل هذه الكلمات دلالات عميقة للانتماء والهوية وتترك أثرا لا يمكن تجاهله على أصحابها، فهي تنغمس بين أعماق قلوبهم و تتجذر في دواخلهم، الوطن ليس مجرد مكان جغرافي فقط، بل هو مزيج من المكونات البيئية والذكريات الإنسانية ينبعث الحب للوطن من العروق، ويكتسب قيمته من تلك الذكريات التي تتواجد في قلب المواطن و تربطه بوطنه مدى الحياة. كما أشار الشاعر، "وعليه يسعى الوطن كقضية شخصية من قضايا الشاعر يؤمن بها، ويدافع عنها، ويعبر عن مشاعره تجاهها بإخلاص وصدق وحب من الانتماء، فأيا كان التداخل بين مكونات الوطن من أهل ومعاهد، فإن النصوص الوطنية دلت على تعلق الإنسان ببلاده بشكل لا يمكن تجاهله، ولا يجوز استثناؤه من تلك القضايا التي وهب الأديب لها قلمه وعاش محنها بكل مشاعره" .[263]

حب الوطن من طبيعة الإنسان، ينمو مع نمو الإنسان، ويتطور مع تطوره، إنها مشاعر تحمل معنى عميقا وتأثيرا كبيرا في أعماق الوجدان، فلا بد أن يكون حاملا للقيم الإيجابية من أجل تحقيق الحرية والاستقرار والأمان. ونقدم أنفسنا له فداء، وننظم له الولاء عقودا يسكب من حباتها الحب والإخلاص والتفاني. حب الوطن ليس مجرد شعور، بل هو جزء من فطرة الإنسان، يولد مع ولادته ويمتد معه طوال حياته، فهو نبض حي ينبعث في أعماقنا، ودم يجري في عروقنا، مما يمنحنا القوة والدافع للعمل من أجل الوطن وتطويره.

ويقول أحمد شوقي عن الوطن وحبه للوطن:

" وللأوطان في دم كل حر

يد سلفت ودين مستحق

[263] المرجع نفسه: ص 413.

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي.[264]

قد ظهر في المجتمع الفلسطيني عدد من الكتاب والأدباء والروائيين الذين استخدموا أدبهم لخدمة وطنهم وتعبير مشاعرهم وانتشار قضية وطنهم في أنحاء العالم، ومنهم الكاتب المشهور ربعي المدهون الذي استخدم أدبه لاعادة وطنه من الاحتلال اليهودي، وقد تجلى عن ذكريات الوطن في رواياته، وهنا يبحث الباحث عن الوطن في روايات ربعي المدهون وذكرياته وأنواعه.

المبحث الأول: تجليات الوطن

تجليات الوطن هي العبارات والمظاهر والمدح التي تعبر عن حب وانتماء الأفراد لوطنهم، تحتوي روايات ربعي المدهون على أحداث مثيرة وتفاصيل كثيرة تحمل من وجودها متاهة فنية مليئة بالتفاصيل مليئة بالوطنية، وإنه من ضحايا الاحتلال وبذلك قد اضطر للهجرة من الوطن ولجأ إلى المنفى ولكن الحياة في المنفى ليست كافية ومرضية ومطمئنة بسبب زيادة ذكرياته عن الوطن وشوقه إلى العودة من المنفى، ولذا حاول الكاتب للعودة من المنفى، ومحاولته وجهوده ليست ناجحة، واستمر الكاتب محاولته وجهده بكتابة الروايات وعبر فيها شعوره و حزنه وآلامه خلال سرديات الرواية وكثرت سرديات الوطن والمنفى في رواياته، يمكن الكاتب فرصة لزيارة وطنه بعد زمن طويل ويدهش ويتنهد برؤية وطنه وأحواله، ويقول الكاتب هذا: " ها هي أرض فلسطين ، بعد سبعة وخمسين عاما على النكبة حملتها صغيرا ، من مسقط رأسي في قرية أسدود بعد سقوط المدينة بيد القوات الإسرائيلية، أعود باحثا عن تراب أقبله، فلا أجد سوى ممرا مبطلا ."[265]

[264] ديوان أحمد شوقي، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، 1998 م، ص .76

[265] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 2010م، ص 125.

يفسر الكاتب قدومه ويدهش بزينة وطنه ويتجلى ذلك بقوله: " واصلت السيارة صعود الهضاب القرية المشجرة وهبوطها أخذتنا إلى ماضينا الذي كان حاضرا ، عندما كانت أرضها كصدور أثواب فلاحات بلادنا، مطرزة بالزعتر، والعكوب والرقوق، وعصا الراعي ، والسوسن، وقرن الغزال ، وسيف القمح ، والزعفران بأنواعه، وترمس الجبال ، وكانت أشجار السنديان، والخروب والمل ، والملول ، والبطم بأنواعه، والسيال والسدر ، وقاتل أبيه، وعروس الغاب ، والصفصاف ، والزعرور والدلب، تزين سفوحها ، بينما تحمل نسائمها روائح نباتات تدعو المارة والعابرين إلى الصعود لجمع أوراق، تركض الأشجار التي أزيلت وبقيت في الكتب وبعض الذاكرات القديمة تركض السيارة نحو القدس يركض التاريخ إلى ماضيه .[266]

يتجلى الكاتب وطنه المولود يعني " فلسطين "، وإن كان يحمل جنسية البريطانية، ويقول سبب تجليات وطن "الفلسطين"، وإن ذاكرته مليئة بذكريات الماضي أي ملأ ذهنه وعقله وذاكرته بفكريات الوطن، ويبقى حتى آخر لحظاته، " أعرف أنني بريطاني الجنسية، وأن ما في ذاكرتي ليس سوى ماض لتعد له تفاصيل الحاضر لكن له طعم الحقيقة، والوطن حقيقة ترفض أن تموت تحت ضربات وقائع تاريخ لم يرحمها ، الوطن ليس ظلا، الوطن صورة يحضر جانب منها هنا، ويحضر آخر هناك، في الجهة الأخرى حيث أمي "[267].

يشبه الكاتب الفلسطين بالشمس لتعظيم جلالية عن سائر بلدان أخرى، ويحيل ستار حب الوطن الذي كتم المنفى، ويفيض حبه حين دخل إلى وطنه بعد ثمانية وثلاثين عاما ويعجب برؤيته، " عاتبت الشمس على خجلها وتواريها وراء النخلة إذ فاجأتها عودتي: " ثمانية وثلاثون عاما اشتقت خلالها لبشرة لا يلوحها بلون القمح سوى شمس فلسطينية.. والشمس أنت " [268]، ويسيل دم السرور حين شاهد الكاتب وطنه ويخاطب لوطنه ويقبل الوطن، هنا يتخيل الكاتب الحوار المتخيل بينه وبين الوطن ويشرح الكاتب

[266] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2015 م، ص 181.
[267] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 131.
[268] المصدر نفسه، ص 143.

هذا الخيال، " قبلتني معتذرة، وأحسست بدفء أشعتها يغسلني من تعب السفر كله، تناهي إلي اسمي مهموسا به: " ولييييد "، التفت خلفي ، شاهدت ظلي ممتدا عبر زجاج المدخل حتى نهايات الرواق الطويل داخل المطار ، أدهشني ظلي ، أول مرة أرى ظلي على هذه الأرض بالذات ، فرحت إذ يرافقني ظل، لم أره منذ وقت طويل، بقية رحلتي " .[269]

المبحث الثاني: الوطن المستوطنة (المحتلة)

يفسر معجم المعاني عن كلمة " المستوطنة "، أرض ينزل فيها أجنبي ويتخذها موطنا له غصبا عن أهلها و مالكيها الأصليين تنتشر المستوطنات في الأرض المحتلة " [270]. ويناقش الكاتب في رواياته عن استيطانية اليهوديين والسيطرة على شعب الفلسطيني بإلغاء لغتهم وهويتهم وثقافتهم، وتغيير خريطة وطنهم و تسمية شوارعهم بأسماء اليهود والأحكام المفروض في صورة شاملة التي يجب على مواطنين من الفلسطينيين إتباعها، وهو الغرض والغاية الأساسي من المحتلين على أي حال.

البطل في روايات ربعي المدهون هو نفسه باسم آخر، كان اسم البطل في رواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة هو وليد، وهو يحاول محاولة مستمرة لزيارة الوطن، ويحقق حلمه بعد زمن طويل ويدهش ولن يؤمن هذه الحقيقة، ولكن وهو متشائم بأحوال وطنه، اليهود الذين سلبوا وطنهم واحتلوا على أرض الفلسطين وطردوا المواطنين من أرضهم واستيطان المهاجرون من اليهود على أرض الشعب الفلسطيني، يشارك الكاتب هذه الحقائق المؤلمة في روايته ويقول: " لا يعرف وليد أنه سوف يستيقظ في الصباح على ضوء شمس مستعملة مرت بمستوطنة " دوغيت " اليهودية، تدريجيا، سوف يستوعب الظاهرة الغريبة ويفعل ما يفعله الآخرون " [271]، ويقول الكاتب عن استيطان الوطن بتشبيه سلب اليهود الشمس" اليوم لم يعد ممكنا حتى تخيل ذلك، لأن اليهود في مستوطنات قطيف ، يخطفون الشمس

---

[269] المصدر نفسه، ص 143.

[270] القاموس الإلكتروني 1/1/2022 https://www. almaany. com

[271] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 4.

بفستانها البرتقالي الذي تلبسه لحظة احتضار النهار، كأنها تستعد لسهرة ما في جهة أخرى من العالم ، يجرها المستوطنون من خيوط أشعتها كما تجر عين من رموشها، ويأخذونها لتبيت عندهم " .[272]

قد أضاعت النكبة الأرض والمال والعرض والتراث للفلسطينيين واحتل اليهود كل هذه، وهاجر معظم السكان، تركوا الوطن وهاجروا إلى بلاد أخرى، وبقي هناك بعض من مواطنين من الفلسطينيين، وهم تحت سيطرة الحكم اليهودي، واعتبرهم اليهود مواطنين من الدرجة الثانية، يسمى الكاتب " باقي هناك "، وسمي هذا الإسم لشخصية في روايته، ويناقش الكاتب عن المواطنين تحت اليهود، وهذه المواطنون هم مستحقون للحياة في إسرائيل، وكان اليهود من المستوطنين، وليس لهم حق للعيش في إسرائيل التي كانت في فلسطين، يفسر المؤلف عن شخصية التي تواجه مشكلة وأزمة لنيل الجنيسية الإسرائيلية، "اسمع يا صديقي، ستحصل على الجنسية الإسرائيلية بلا متاعب، بل ستجدها في انتظارك، فأنت بالنسبة لإسرائيل، تابع من دون توقف: رقم إضافي في سجلات المهاجرين اليهود، لكنك ستكون مواطنا من الدرجة الثانية مهما بلغت من شأن، سوف تمنح منزلا بتسهيلات لم تحلم بها، لكنه غالبا ما يكون في مستوطنة بنيت على أرض الفلسطينيين " .[273]

يسأل الكاتب لليهود عن عدل ربهم، أين العدل والمساواة ؟ كيف يمكن ربكم أن يأخذ أرض شعب الفلسطين ؟ لن يفعل ربك هذا الظلم وعدم المساواة وسلب عرض الآخر، وإذا فعل هكذا، وهو لا يكون ربا ومنصفا وعادلا وحكميا، إنكم المستوطنون والمحتلون وسالبون أرض الآخر، يطرح الكاتب هذه الأسئلة نحو اليهود الذين احتلوا أرض الفلسطين، " إذا كانت هذه الأرض لنا بوعد الرب، فماذا عن ربهم هم ؟ إذا كان ثمة إله في هذا الكون فهو واحد وللجميع، عادل ومنصف وحكيم، لا يمكن أن يأخذ أرض شعب

[272] المصدر نفسه، ص 6 3.

[273] المصدر نفسه، ص 88.

ليعطيها لآخر، الإله لا يفعل ذلك، يتلبس نزعات مستمعر ويرسل جنوده يحتلون ويقتلون ويقمعون باسمه، الإله لا يفعل ذلك، لأنه إن فعل، يكون قد ترك عرشه فوق الجميع وانضم إلى البشر.. "[274]

المبحث الثالث: الوطن المفقود

ما أجمل أن يكون للإنسان وطن يستقر فيه ويعتز بالانتساب إليه، وإن من الابتلاء أن يفقد الإنسان وطنه ويصبح مشردا متحسرا ومحزونا، لذلك فإن حب الوطن من فطرة الإنسان ويبقى معه حتى آخر لحظات حياته. يشعر الكاتب الحزن بفقد بيته الذي كان له قبل سقوط المجدل يقول: " دخلنا البيت الذي كان لنا قبل سقوط المجدل عسقلان في أيدي القوات الإسرائيلية بتاريخ 4 نوفمبر 1948 " .[275]

يندم الكاتب عن أحوال وطنه، ويشعر الألم حين يرى وطنه بعد احتلال اليهود مهلوكا وتدميرا ، ويقول بحزن فقدان شعار الوطن وتراث الوطن وآثار الوطن ومعالم الوطن، هذه ليست وطنه، ولديه من ثروة الوطن قد ضاعت " هذه حارتنا حارة لا تشبه حارتنا، مساحة ساكنة بلا أنفاس، جسد سحب الموت نبضه، حارتنا لم تعد تنبض، ماتت فيها الحياة، اختفت منها قططها التي اعتادت الموّاء في كل المواسم والأوقات، أصوات الدجاجات لم تعد تسمع، أين بطات أمي الشرشير والمرجان يتمايلن مثل نساء حوامل، أين ديك الحاجة رقية، الذي يمشي في الحارة ملكا، يفرض ذكورته على الدجاجات بلا موعد، يصيح وسط الحارة انتصارا بعد كل نطة على ظهر دجاجة، أين ثرثرات النساء في فرن أبو عادل، يوزعن القيل والقال، يصنعن سلطة إشاعات يتغذى على نكهتها الساهرون، " أين بائع " يقف بصينيته وسط الشارع، أين كرات الشراب تتطاير بين أقدامنا ؟ أين الغميضة وحدر وبدر والسبع شققات ؟ أين ألعابنا الصغيرة والكبيرة ؟

[274] المصدر نفسه، ص 215.

[275] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط 1، ص 58.

أين العجائز من الرجال، يقضون ما بعد الظهيرة تحت حائط بيتنا يلعبون السيحة ؟ أين النكهة التي تجعل من حارتنا حارتنا ؟ هذه ليست حارتنا " .[276]

يظهر الكاتب مشاعره المحزونة برؤية أحوال وطنه، وإحساسه عن فقدان آثار و معالم وتاريخ الوطن، " تلاحقني مشاعر متناقضة يوقفها سؤال الحاضر ، الذي أرعبني وأنا أزحف مع الزاحفين نحو شباك مراقبة الجوازات: " أي أرض ستقل حين تغادر المطار يا وليد ؟، أتقبل أرضا لم تلونها حمرة طين أرضك التي تشبه الحناء على كف فلاحة ؟ لا عرق زيتون يتمدد في شراييها، ولا حبات عرق نزفتها جباه أجدادك عليها وبللت ريقها في مواسم البذار القديمة ؟، والأرض التي تقف عليها قدماك لم تعد أرض فلسطين، اليافطة الزرقاء الكبيرة التي تقرأ نفسها عليك، ترحب بك مثل أي غريب " .[277]

يبحث الكاتب وطنه خلال زيارته حين يمشي قرب المدينة المدمرة التي دمرت اليهود، ويبكى الكاتب بخراب المدينة ويفتش بين خرابها عن بيته الذي كان شهد لولادته وعن معالم طفولته وعن تراثه، كلها قد دمرت ولن يستطع للكاتب العثور على أي شيء لإحياء ذكرياته، قد تم تغيير جميع أسماء مدن الفلسطين وبنيت مبان جديدة فوق جثث المدن والقرى القديم، وتحولت أسماء المدن إلى العبرية، " تاركا الآخرين يبحثون لي عني أيضا، عن بيت له طعم الماضي، بيت والدي الذي شهد ولادتي واحتفى بها هنا، أو هناك، أو لعله هناك، أو في أي هنا أو هناك فتشت بعينين دامعتين بين خراب المدينة عن طفولتي الأولى فلم أجدها بكيت لي ولطفولتي، علي وعليها أوقفت مشاعري على رأسها لبعض الوقت " [278]، " وهكذا تلقفتني نداءات السائقين، تقذفني بأسماء المدن والبلدات التي أقيمت فوق جثث المدن والقرى، أو عبرنت أسماءها: يروشالايم، تل – أفيف، ناتانيا، نتسريت، أكو، هيفا، هرتسيليا " .[279]

---

[276] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010م، ط1، ص 111.

[277] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010م، ط 3، ص 128.

[278] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 54.

[279] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010م، ط3، ص 144.

يشرح الكاتب عن الأحوال السيئة للوطن، وكان الوطن مزدهرا في كل مجال، ولكن تغيرت الأحوال، وكادت ثروة الوطن قد يخرب، وينظر الكاتب وطنه ويؤكد بانهار الوطن إذا استمر حكم اليهود، ويتنهد بسوء حال الوطن، ويشارك ما شاهد حين سافر في السيارة، " ما إن تجاوزت السيارات بلدة سديروت ، حتى بدأت الضيعة الجميلة في خلع رونقها عند التخوم قطعة قطعة، وكلما ابتعدت السيارة رحلت عن أرضها البيوت، وتعرت الأشجار من أوراقها استعدادا للجفاف والانقراض، وتخلت الأرض نفسها عن خضرتها، وتجردت حتى من أعشابها غير النافعة، وفقد المكان ملامحه، واصلت سيارة أبي فارس تحركها تقطع بنا الطريق مثيرة حولها الكثير من الغبار والأتربة، وهي تتوغل في أرض ميتة بلا حياة ، تعلن بوقاحة عن الاقتراب من أرض فلسطين " .[280]

يبين الكاتب عنف اليهود وتدمير الفلسطين، قد دمر اليهود العديد من المزارع والأشجار وثروة الوطن والمباني وتراث الوطن، وجعل اليهود الفلسطين من دولة غنية إلى دولة فقيرة وتحولت أرضها غير قابلة للزراعة وجعلها قاحلة، " قال صلاح ، الذي جلس خلفي مباشرة، إن الأرض الجرداء المحروقة الواقعة إلى يسارنا، كانت مزارع زيتون، اقتلعت الجرافات الإسرائيلية عشرات آلاف أشجارها من جذورها قبل عامين، إن قسما منها كان مزارع تنتج أفضل الحمضيات في قطاع غزة كله، أما المنطقة التي تقع إلى اليمين، فهي بقايا المنطقة الصناعية، فالمبنى المدمر الذي لم يتبق منه سوى اسم صاحبه وقد علته طبقة من شحار أسود، هو معمل بلاط أبو غليون، وأما ذلك الركام الذي تجلس فوقه شاحنة قلبت على ظهرها، وقال صلاح إن خراب المنطقة الصناعية بأكملها " .[281]

يخشى الكاتب احتلال اليهود على فتيات من الفلسطين بطريق الخيانة، إن المواطنين الذين هم رأس المال في الوطن، وضياعهم ضياع الوطن، يقول الكاتب: " وإن كنت قرأت عن زواج مستعربين وأعضاء في الموساد

[280] المصدر نفسه، ص 152.

[281] المصدر نفسه، ص 235.

من فلسطينيات، بعد أن انتحلوا شخصيات فلسطينية، ومنهم من درس الدين الإسلامي بعمق لإتقان دوره وبعضهم أنجب من زوجته وأجبرها على اعتناق الديانة اليهودية وإخفاء ماضيها عن أبنائهما" .[282]

يلعن الكاتب البريطانيا وبلدان أوروبا الذين منحوا الفرصة لليهود إلى الرجوع إلى فلسطين واحتلال أرض شعب الفلسطيني وفقد حقوقهم وحريتهم، " يلعن النازيين وتاريخهم الأسود، وما فعلوه باليهود ، وكان سببا في ترحيل الكثيرين منهم إلى البلاد ، طاف " باقي هناك " بلسانه بلدان أوروبا كلها، ولعنها تباعا الواحدة تلو الأخرى ، وأحيانا بالجملة ، لتخليها عن اليهود إبان محنتهم، وارتكابها جريمة كبرى بمساعدتهم على الرحيل إلى فلسطين بدلا من استيعابهم عندها وخص بريطانيا بلعنات تاريخية مميزة " [283]. يبحث الكاتب السلامة في الوطن ويحزن عن فقدانه ويقول لنفسه الفلسطين أرض الأنبياء ومدينة السلام والأنبياء الذين أقاموا السلامة في الوطن ولكن وأنهم في القبور وقد ضاعت السلامة بعد وفاتهم، السلامة في الوطن هي في السطور والتاريخ فقط، يقول:" في عتمة التاريخ البعيد، تصعب رؤية التفاصيل، وفي وضح نهار الحاضر، يحجب جنود الاحتلال الرؤية لم أر أنبياء آخرين في المدينة ولم يرحّب بي أحد أنا العائد إليهم أسألهم عن سلام مدينة السلام عما فعلوه لأجلها منذ أقاموا فيها حتى رحلوا تاركين للبشرية الكثير مما تختلف عليه" .[284]

[282] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص134.

[283] المصدر نفسه، ص 151.

[284] المصدر نفسه، ص 216.

المبحث الرابع: صورة المدينة

قد غير الاحتلال صور المدن في فلسطين إلى صورة جديدة، يعني وكانت المدن علما ورمزا الذي تذكرنا عن تراث الوطن وتاريخه وحضاره وثقافته، ولكن قد دمر الاحتلال صور المدينة القديمة وغيرت السيطرة الحكومة اليهودية مكان هذه الصور صورة جديدة ليس لها علاقة بالتاريخ الفلسطيني وتراثها وحضارتها وثقافتها، هنا يسرد الكاتب عن المدن الفلسطينية ويبحث المدن القديمة التي تحفظ تاريخ الفلسطين ولكن يفشل في محاولتها، وتلك المدن قد دمرت أو خربت وهلكت وبدلت مكانها مدن ليس لها تاريخ ولا ثقافة ولا حضارة، يصور الكاتب عن المدن المتعددة ومنها مدينة المجدل عسقلان، وكانت هذه المدينة شهدت لولادته وفيها نشأ الكاتب، يسافر الكاتب في السيارة قرب مدينة المجدل عسقلان ويبحث عن آثار المدينة ولكن كانت خالية من آثارها وجميع ما يتذكر عن تراثها وتاريخها، وهناك لن يسمع الآذان من المسجد، وليس هناك مزدحمة في الشوارع، وليس هناك قراءة القرآن، وكلها قد غابت، وهذه المدينة ليست مدينة الكاتب، وهذه مدينة بالمباني والشوارع ليس لها تراث ولا حضارة ولا ثقافة، " هذه هي المجدل عسقلان، مدينتك الأولى التي تصر على عدم التنازل عن حقك في العودة إليها ولو في كفن، كومة من حجارة بلا حياة، شوارعها خالية إلا من غيوم نكبتها، لا دعوة للصلاة فيها ولا آذان يسمع من مسجدها، الذي تخرج منه جدك الثالث الشيخ حمدان يؤم المصلين، لا آيات تقرأ فيه ولا مصلون، أبنيتها القريبة من المسجد تحولت إلى مطعم وبار ومحلات يرتادها اليهود السفارديم (الشرقيين)، مقام الشيخ عوض، مقام الشيخ مصباح الظلام، ضريح الشيخ اسعيد، مقهى علي محسن، مسجد أبو غوشة الصغير، مدرسة البنات، مقبرة المجدل، حديقة البلدية، بيت رئيس البلدية السيد أبو شرخ ، مقامات، وأضرحة، ومقابر، وبيوت، ومقاه، ودكاكين تحولت إلى كومة من خراب " .[285]

[285] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010م، ط3، ص 151.

وكان بيت الكاتب في مدينة مجدل عسقلان، وخلال زيارة وطنه يزور الكاتب بيته، وكان البيت قد غير ولن يستطع الكاتب أن يعثر بيته من المدينة، التغيرات قد وقعت ليس للمدينة فقط ولكن وقعت على بيوت في المدينة، ويندم الكاتب بسوء حالها، " وقف وليد عند زاوية بيتهم المطلة على وسط الحارة، أخذ يراقب الشمس تنحدر بعيدا، ساحبة معها لحظات نهاره الأخير ، إلى أن توارت خلف التلال الرملية الصفراء، تخيلها هناك قد أسندت رأسها على حافة الأفق، قبل أن تغطس في عمق البحر نائمة، بينما تذوب ملامح المخيم والمدينة في الظلام الزاحف على الجميع " .[286]

يشرح الكاتب عن مدينة " غزة " وسكانها وأحوالها، هذه المدينة كالسجن، ولن يستطع السكان فيها أن يخرج من المدينة بدون إذن الحكومة اليهودية، والعمال والسكان يجاهدون للمعيشة ويعملون أكثر من خمس عشرة ساعة، " غزة بسكانها ومستوطناتها، كوكب آخر في عالم آخر أغلقت مفاتيحه هنا، هنا يتم شفط العمال الغزيين وابتلاعهم في الصباح الباكر ، ولفظهم عند حلول المساء، متعبين منهكين من رحلة عمل تمتد بين اثنتي عشرة وخمس عشرة ساعة في اليوم، هم بناة هذه الطاحونة الكبيرة التي تسحق أعصاب العابرين في الاتجاهين " .[287]

[286] المصدر نفسه، ص 36

[287] المصدر نفسه، ص 174.

الفصل الثاني: شعور الوطنية في روايات ربعي المدهون

حب الوطن هو شعور العميق الوجداني التي يوجد في قلوب الإنسان، يظهر هذا الشعور لا سيما عند فقدان الوطن وحيث كان ربعي المدهون الذي هاجر من طفولته بسبب النكبة إلى بلاد مختلفة ومنع الحكومة الإسرائيلية العودة إلى وطنه ويعيش كمنفي في خارج الوطن، وهذه الحالة تؤدي إلى كتابة يتجلى فيها موضوع الوطن والمنفى ومشكلات المنفيين ومشكلات التي تواجه الشعب الفلسطيني.

المبحث الأول: حب الوطن

يشارك الكاتب معنا شعور حب الوطن والانتماء إليه في عدة مواضع ، ومنها كانت شخصية جولي تأتي إلى فلسطين لتنفيذ وصية أمه أي دفن رماد جثة أمها في عكا القديمة التي مكان مولد أمها، ولما وصلت في عكا، تأتي إلى قلبها ذكريات والأحلام والحنين والحب والانتماء إلى الوطن وتغير قلبها وتطلب لوليد لبيع مالها في لندن وانتقال إقامتها من لندن إلى فلسطين، وهذا نرى في خطاب وليد وجولي " وليد حبيبي ، ما رأيك في أن نبيع بيتنا في لندن وننتقل للإقامة في عكا ؟ .[288]

ينتمي الكاتب إلى وطنه في لحظة قد يرى فيها الكاتب مجدل، وتنصح أمه للكاتب للشكره وتقول: " بصلاة محمد سيد الأنبياء والمرسلين، إذ أنت يا وليد ابني وأني إمك، تبوس لي حيطان الجامع، وإذا ما القيت حيط دورع حجر وبوسه، وما تنساش تعبر ع الجامع جوّه إذا بعدو موجود، وتصلي ركعتين أني عارفك بتصليش بدكيش اتصلي إلك بلاش، إنت حر منك لربك، صلي لإمك بينوبك ثواب الركعة في فلسطين بألف ركعة في الدار يمه، وحتى جامع ايش امفكر انت ! " [289]، تدل هذه السطور انتماء الكاتب إلى وطنه، وتنصح الأم كيفية تكريم وطنه ويعتبر زيارته كحج الحجاج بالمكة، وهذا التشبيه والتعظيم والتكريم يخبر انتماء الكاتب إلى وطنه. يرى الكاتب الموت في سبب حماية الوطن هو شرف قد يكمل انتماء الوطن بالشهادة

[288] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 48.
[289] المصدر نفسه، ص 5 5.

كما يقول في رواية مصائر" الحمد لله ثم الحمد لله الذي شرفني باستشهاد أبي ، وأعزني بموته ولم يذلني بهواه وطني واستسلام أمتي " .[290]

المبحث الثاني: الانتماء إلى الوطن

ينتمي الإنسان إلى وطنه الذي ولد فيه، ويتعلق هذا الانتماء لبناء أمة التي تجتمع لحماية وطنهم وتشديد علاقة بين الفرد في المجتمع، " الانتماء هو حالة شعور الإنسان والشخص إلى الانضمام إلى مجموعة، وهو عبارة عن علاقة شخصية حسية ايجابية، يبنيها الفرد مع أشخاص آخرين أو مجموعة ما، أما مفهوم الانتماء إلى الوطن فيعني تلك الحالة والشعور بالانضمام إلى الوطن، وتكوين علاقة إيجابية مع الوطن، وتكوين علاقة تربطنا بالوطن، والوصول إلى أعلى درجات الإخلاص للوطن" .[291]

يرى هذا الشعور في روايات الكاتب عدة مرات، تعبر هذه الحالة حين تقول إيفانا للجولي ووليد " أتعرفين أن اليهود يعتقدون بأن من تدفن جثته في تلك البلاد، يكون أول من يبعث حيا، ويكون في مقدمة طابور المنتظرين على باب الجنة يوم القيامة، إذن امنحوني الفرصة لأن أحجز لي مكانا في الطابور بحفنة من رماد، قبل أن تمتلئ السماء بالمستوطنين الذين يزاحمون الفلسطينيين في الدنيا ويريدون الاستيلاء على حصصهم في الآخرة "[292]، ويعظّم الحياة والممات في فلسطين ويقول " خلينا هان يا باسم ، بنعيش في بلدنا وبنموت فيها أشرف النا " .[293]

يغضب الكاتب حين اشتد انتمائه خلال حوار مع الشخصية التي هي بطلة في رواية " السيدة من تل أبيب"، ويدافع لمن يقول عن المسؤولية المتساوية بين الأحزاب كما يقول بعد الاحتلال أو بعد الحرب " المتطرفون عندكم والمتطرفون عندنا "، ويؤمن الكاتب هذا القول إستراتيجية من المحتلين ويرد الكاتب

---

[290] المصدر نفسه، ص 206.

[291] بشار طميزي، بحث عن الانتماء للوطن، 2023/09/30، https://mawdoo3. com.

[292] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط 1، ص 35.

[293] المصدر نفسه، ص 91.

عن هذا القول بجواب مناسب، " كلهم يقولون ذلك في محاولة لاقتسام الجريمة والمسؤولية عن الفلسطيني (المباح لكل الأسلحة): المتطرفون عندكم والمتطرفون عندنا، أود أن أقول لها: حسنا.. أخرجوا من أرضنا، من برنا، من بحرنا، من قمحنا، من ملحنا، من جرحنا، من فردات الذاكرة، كما قال محمود درويش ، و تكفلوا بمتطرفيكم، و سنتكفل نحن بمتطرفينا ".

قد خلط في قلب الكاتب شعور الوطن المزدوج يعني الألم بما حل بوطنه من الاحتلال، والخسارات والمشكلات والمصيبات التي أصابت الشعب الفلسطيني والسرور يعني بتحقيق أحلامه وبرؤية مشاهد وطنه وملاقات أهله وأصدقائه في فلسطين ، " كنت مضطربة بعض الشيء حين وصلت، وازددت توترا حين تصايح عدد من مستقبلي طالبين مني الانحناء وتقبيل الأرض تحت قدمي، ولم أفهم لماذا كان علي أن أفعل ذلك.. لا أنا إسرائيلية ولا هذه أرض ميعاد لي ، لم أقرر الهجرة ولن أفعل ذلك أبدا، ولدت بريطانية وسوف أبقى كذلك " .[294]

يعبر الكاتب انتماء الوطن ويفخر بتاريخ وجغرافية وتراث الوطن، ويشبه لمن احتل وطنه أي اليهود " بابن الكلب " بكثرة معارضة قوية ويقول: " لم تنتم ليا لهذه الأرض، واعتبرتها أرض دولة أخرى ، ودانا تعود إلى البلد الذي تنتمي إليه، أما أنا وعادل البشيتي، فقد انتمينا إلى هذه البلاد قبل الآخرين.. في التاريخ والجغرافيا، في الماضي والحاضر، في الرواية والحقيقة، في الضوء والظل، هل حقا ما زلنا ننتمي ؟ " [295]. " همست لنفسي: لو كان فيه نظام يا ابن الكلب ، ما ظلينا كلها لوقت الطويل تحت الشمس والنكد عشان ننتقل ميت متر في أرضنا " .[296]

[294] المصدر نفسه، ص 127.

[295] المصدر نفسه، ص 127.

[296] المصدر نفسه، ص 203.

المبحث الثالث: استعادة الوطن

استعادة الوطن حلم يسكن فينا لا سيما للمحرومين الذين فقدوا وطنهم، يود كل مولودين في وطنهم لطرد المحتلين الذين احتلوا وطنهم ولتحرير وطنهم من هيمنة الاستبداد والظلم والفساد والقتال واستقلال وطنهم من جميع جهتم يعنى من قيد السياسية والثقافية والحضارية والاجتماعية والأيديولوجية، وإعادة وطنهم خال من الخيانة والتهم التعسفية، وطن يستوعب الجميع بكل أطيافهم السياسية والفكرية والثقافية، بكل أعراقهم وطوائفهم ومناطقهم.

الوطن ليس أرضا تسكنه جماعات فحسب، الوطن مبادئ وقيم وتاريخ وعهود وذكريات وطموحات مشتركة يقيم أصحابها في بقعة جغرافية واحدة ، يتفقون على حمايته وسيادته وكرامته. يحمل الكاتب هذا الحلم في ذاكرته، ويرجو استعادة وطنه من قيد المحتلين أي الصهيونية، ويقول الكاتب عن أحلامه في روايته ويشاركنا مشاعر طعم الفراق يعنى أنه هاجر من وطنه تاركا عائلته ويقول: " وأنا ! وأحلامي باستعادة الوطن، الوطن الذي امتد في دهاليز العمر وأذاقني طعم الفراق بعد الفراق " .[297]

قد تكررت مناقشات حول استعادة الوطن، يدل على ذلك كلمات وليد عن جولي خلال زيارتهم لتنفيذ الوصية ويقول " هل أقنعت عكا جولي باستعادة نصفها الذي ضاع في زمن نشأتها نصف غريبة ؟ هل أقنعتها باستعادة فلسطين التي ورثتها عن أمها صورا من ماض أضاعته، ومشاهد من أحلام ظلت تحلمها حتى صارت وصية ؟ "[298]. يظهر المؤلف التفاؤل عن نفي اليهود من وطنه واعادة منهم وطنه وسيأتي اليوم الذي سيحقق أحلامه، ويشارك هذا الحلم معنا في كلماته يقول:" جنين، بدكم اتدشرولهم لبلاد وتطفشو اليوم واللا بكره هاذول الناس رايحين ون ما راحو، إسرائيل ما رح اتظل إسرائيل إسرائيل اللي شايفاها يا جنين مرحلة عابرة في تاريخ فلسطين " .[299]

---

[297] المصدر نفسه، ص 130.

[298] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 51.

[299] المصدر نفسه، ص 89.

يتخيل الكاتب عن عودة الوطن ويحلم رجوع الفلسطينيين الذين هاجروا من الفلسطين إلى بلاد أخرى ويدل على ذلك " لا يا باسم لا، ما دام رجّعنا الوطن وارجعنا له، ليش لنرجع لأمريكا ؟ حبيبي خلينا في يافا أني ما بدشرش يافا اللي انولدت فيها الناس بتصحا وبتنام وهي ابتحلم ترجع ع يافا " .[300]

المبحث الرابع: التعايش في الوطن

يرغب الكاتب في إمكانية التعايش والتسامح والتعاون العربي – اليهودي على لسان وليد حين رأى إمكانية تحقق اقتراح زوجته جولي بترك لندن والعودة إلى الوطن، والعيش مع العرب واليهود في علاقة جوارية مع التعاون والتسامح تؤمن جولي " أن الإقامة في البلاد ممكنة ولو بنسخة إسرائيلية "، وتجري سرديات أخرى عن التعايش مع اليهود ومنها " تنسحب من تأملاتها وتعود إلي ، وما تزال كفها تبث مشاعر دافئة على ظهر كفي المستسلمة: " أتمنى أن تلتقي والدتك سريعا وتقضيان وقتا طيبا.. أتمنى أن يقوم سلام بيننا وبين الفلسطين.. لقد تعبنا جميعا.. المشكلة هي في السياسيين عندنا وعندكم، شارون لا يريد السلام ، كذلك كان ياسرارفات " .[301]

يعبر الكاتب عن رغبته لسيدة من تل أبيب، وهي بطلة الرواية، والكاتب هو نفسه بطل الرواية، وهو يسافر في الطائرة إلى وطنه أي " فلسطين " بعد زمن طويل، ولقي خلال سفره في الطائرة إمرأة من اليهود وهي من تل أبيب، وتعرف بينهما وتبادل الأخبار والتفاصيل بينهما، ويجري الحوار بينهما فيؤدي إلى مناقشات ساخنة.

وهنا يعبر الكاتب الاقتراحات للبطلة، ويقول ليس هناك فائدة بالحروب بين اليهود والفلسطينيين، تؤدي الحروب دائما إلى الخسران والهلاك وضياع المال والعرض والثروة، هيا نحن نعايش مع الحب والتعاون والتسامح وانسجام مع بعضنا البعض، لن نحتاج الانتفاضة والحركة الوطنية، وهذا ما يضمن في قوله: " لا أقول ذلك، فما جدوى متابعة استحضار هموم الشرق الأوسط كله على مقعدين في طائرة في لقاء عابر

[300] المصدر نفسه، ص 90.

[301] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 95- 96.

لا تبعات له ؟ ! لا أقول ذلك، بل أتمنى أن يخرج الفلسطينيون والإسرائيليون من ساحة الحرب إلى العيش المشترك، ونتمشى أنا وهي معا، في أوتستراد طويل لا عداء فيه ولا معابر ، الا اغتيالات ولا انتحاريين ، لا مجندين ولا مقاومين ، لا صهيونية ولا حركة تحرر وطني فلسطينية ، لا انتفاضة ولا مستوطنات ، لا شارون ولا عرفات ، لا أبو مازن ولا شاؤول موفاز ، لا شيوخ ولا مستوطنين ، لا أباتشي ولا اف – 16، ولا اتحريين، بل مسافران عاديان (عابران في فضاء عابر) " .[302]

ويقول أيضا عن التعايش بين الإسرائيل والفلسطين، ويشبه الأرض بالبيت، والسكان بالظل، " في هذه البلاد التي نتجه إليها معا ونفترق فيها معا، أرض واحدة وبيت واحد ، ما إن تشرق الشمس وتسقط أشعتها عليه، حتى ينبت له ظلان، نحن يا وليد ظلان لمأساتين اجتمعتا في مكان واحد، ما حدث لنا ترك ظلالا سوداء عليكم، وما يحدث لكم يصبغنا بظلال أكثر سوادا.. شعبان لا يرتحاحان أبدا.. كلما هدآ ازدادا جنونا، ظلان لبيت واحد.. حقا... عبر تاريخها الطويل، كانت هذه الأرض مزرعة للظل والضوء، يتجليان في تناقضهما الأزلي لكي يستمرا، انظري إلى الظل، إنه كيان قائم بذاته، لا يلد إلا في الضوء، ولا يموت إلا في العتمة، مخلوق غريب شديد الحساسية، يتشكل في اللحظة التي يلد فيها الضوء، ويختفي حين حين يموت " .[303]

يشارك الكاتب أن تعايش مع اليهود قد يكون أحيان الرعب والتضاعف في الحزن والألم، وينبه الكاتب مثل تلك التجربة الرعبة " يترحم على افيفا قليلا يلعنها قليلا يلوم نفسه على عودته إلى البلاد قليلا ثم يعتب على الحظ يعاتبه قليلا على ما اختاره له ولعائلته من جيرة إجبارية تضغط على الأنفاس ، بين امرأة يهودية يسكنها ماض توزع تفاصيله المرعبة علينا، كأنما لا يكفينا حصتنا الكبيرة من النكبة التي ابتلينا بها، حتى تعطينا حصة إضافية من ماض لا علاقة لنا به، الذي كانت جيرته تضاعف نكبتنا " .[304]

---

[302] المصدر نفسه، ص 96.

[303] المصدر نفسه، ص 108.

[304] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015م، ط1، ص 146.

يختلف شعور الكاتب عن النظر في تعايش مع اليهود أحيان يكون ذلك تهديد للفلسطينيين وأحيانا يكون ذلك تحسينا في حياة شعب الفلسطين ، ويشجع الكاتب على ذلك، يدل على ذلك " منذ انتقل إلى اللد، لم يتوقف " باقي هناك " عن تشجيع حسنية على إقامة علاقات مع جيراننا اليهود في الحي كان كلما أظهرت حسنية ترددا ، مكتفية بعلاقتها الحميمة بجارتنا المسيحية أم جورج التي تقيم على بعد بيتين ، قال لها " احنا ما فينا نعيش في غيتو على قدنا يا حسنية احنا في ها لبلاد طول عمرها مفتوحة على الدنيا، وقلوبنا بتساع كل البشر ، يا ستي لا تحبيهم ولا تناسبيهم، بس خلي علاقتك معهم عادية ، مع الأيام تغيرت حسنية وصار لها صديقات من بين جاراتها اليهوديات، أولهنّ عفيفة كما تناديها " .[305]

يدهش الكاتب عن التسامح والتعايش والتعاون بين العرب واليهود خلال زيارته " يدفشم " ويقول عن هذا كان ذلك مثيرا جدا بل شعرت بجدوى، يزور الكاتب الأماكن المختلفة في فلسطين ويعلم من زيارته صورة الشعب الفلسطيني الذي يواجهون تحديدات والظلمات والمشكلات من أيدي اليهود وكذلك وهو يروي عن المواطنين في إسرائيل الذين يكافحون في مشكلة الهوية ، ولكن يفهم الكاتب بعض من القرى في إسرائيل وفيها العرب يعني شعب الفلسطين الذين بقوا في فلسطين بعد النكبة التي وقعت عام 1948م واحتل اليهود هذه الأماكن وأضافتها إلى بلادهم، ومن القرى " يد فشم " وفيها العرب واليهود يسكن مع التعايش والتعاون والتسامح ويتكلمون اللغة العربية والعبرية، " قبل سنوات، كانت تلك – وأشارت بيدها إلى الموقع البعيد الذي يقصده على الأغلب – مستوطنة غفعات شاؤل ب، الآن نسميها " عبر شل سلحانوت " يعني مدينة التسامح لم يعد أحد يستخدم كلمة مستوطنة التي تذكر بزمن صداع لا يرغب أحد في تذكره اليوم يقيم في المدينة عرب فلسطينيون أيضا بالمناسبة سيد وليد، يستطيع أي من مواطني الدولة الجديدة الإقامة في أي مكان في البلاد، ويتبع بلديته، لكنه يبقى مسجلا في الدائرة الانتخابية للمنطقة التي شهدت ولادته، أو التي سجل فيها اسمه بعد الإحصاء العام الذي أجرى بعد شهور من توحيد شعبي البلاد ، مع قدر من

[305] المصدر نفسه، ص 153.

التمايز المقبول والمرحب به لجهة الحقوق القومية والتعبير عن الهوية بتلاوينها، مما في اللغة، العربية أصبحت لغة رسمية في البلاد، والجميع يتحدث هنا باللغتين أصبحنا سويسريين بلغتين العربية والعبرية "[306].

المبحث الخامس: التراث الوطني

قد ورد في معجم معاجم معنى عن كلمة " التراث " هو كل ما خلّفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، سواء مادية كالكتاب والآثار وغيرها، أم معنوية كالآراء و الأنماط والعادات الحضارية المنتقلة جيلا بعد جيل "[307]. لكل شعب من شعوب الأرض حضارة وتراث يفتخر بهما ويعتز بهما، والشعب الفلسطيني حضارة عريقة تنتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية، وله تراث فني كبير يدل على هويته الثقافية والحضارية والسياسية في نفس الوقت.

لعب التراث الفلسطيني دورا مهما في تشكيل الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني في أماكن وجوده كافة، وكان له أثر كبير في تعميق الشعور بالانتماء للوطن والتاريخ المشترك الذي يمثله بوحدة العادات والتقاليد والفنون والحكايات الشعبية والأزياء التي تناقلتها الأجيال من جيل إلى جيل. وقد تعرض التراث الفلسطيني إلى سياسة ممنهجة من قبل " الاحتلال الإسرائيلي " من أجل تدمير البنية المجتمعية والثقافية للمجتمع الفلسطيني حتى يفقده تماسكه وقدرته على المواجهة والدفاع عن أرضه.

إن التراث الفلسطيني تاريخ جذور حضارتها وثقافتها منذ القديم، يعد الحاضر نتيجة الماضي والمستقبل وليد الحاضر، ولذا المعالم والبنيان والأزياء والمدن والشوارع تعد من أنواع التراث الوطني، وهذه المكونات تثير إثارة قلوب المواطنين لا سيما قلوب المنفيين حين رأوا هذه الآثار.

---

[306] المصدر نفسه، ص، 243.

[307] المصدر نفسه، 245.

يحاول الكاتب لإحياء التراث الفلسطيني وتعظيم تراثها والانتشار أهميتها والتقديم تاريخها للقراء، وتدل على ذلك حوار بين البطل والبطلة في رواية " السيدة من تل أبيب "، " هذه البلاد يا دانا معجونة بالتاريخ واللغات والسحر والحقائق والأساطير والرسل والأنبياء والقدّيسين والكذابين والحروب والأشرار، كل ذلك أنتج ما فيها من تراث بشري عظيم، لكنه أنتج أيضا ما يفوقه من مصائب وخراب " [308]. ينتمي المنفيون حين رؤية وطنهم ويحنون بذكريات وطنهم، وهذا قد يظهر الكاتب في رواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة "، قد وصل البطل والبطلة في هذه الرواية لزيارة الفلسطين لتنفيذ وصية والدته، ولكن خلال زيارتهم تغيرت مشاعرهم وأفكارهم وأصابتهم مرض الانتماء والحنين إلى التراث والآثار وطنهم، وهذا يرى في قول وليد " جيرت انفعالات جولي التي تلاحقت وليد ولاحقته استوقفه كثيرا ما تغير في زوجته سعادة لم تبد عليها خلال سنوات زواجهما الطويل حديث متزايد باللغة العربية واستخدام الكثير من المفردات بعد تهشيمها بلسانها الأجنبي تحسسها بأصابعها العشرة حيطان البيوت والأماكن العامة والأثرية القديمة التي زارها كمن يزور أماكن مقدسة، واستنشاق جولي ورائع كل ما هو قديم في البلاد وانتشارها بها يتذكر وليد كيف تشممت أسوار عكا في أول صباح خرجا فيه من فندق عكوتيل إلى الميناء عبر البوابة الشرقية وكيف استوقفته في يافا ، لتتذوق ملوحة البحر وحين تجولا في المدينة " .[309]

قد يعظم الكاتب تراث وطنه في الرواية عن الآثار الأخرى، ويفهم هذا من قوله حين زيارته إلى فلسطين، ويجري بين البطل والأم حوار، يتصل الكاتب عبر الجوال " أنا في المجدل " هيييييييه، أمانة الله ؟ وإيمتن اوصلت يمه ؟ معناتو الله راظي عليك يمه والله الروحه ع المجدل مثل الحجة ع بيت الله عشر مرات طب وين في المجدل وايش بتعمل ؟ [310]" ، هنا يعظم الكاتب زيارة مجدل الذي مكان مولوده عن حج بيت الله

[308] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2010 م، ط3، ص 108.

[309] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 53.

[310] المصدر نفسه، ص 4. 5

عشر مرات، وهذا يدل تعظيم المجدل، ويستخدم الكاتب لتعظيم المجدل تشبيه بيت الله بسبب شدة انتمائه إلى تراث الوطن.

يؤمن الكاتب أن تراث الوطن قد يبقى هنا، وإن احتل اليهود في أرض الفلسطين وأجلهم مدة قليلة وإذا جاء أجلهم تركوا الفلسطين، وهذا يبرز في قوله: " همست في أذن سلمان " بتعرف أبو السلم لو مر على إسرائيل ألف حكومة يمينية أو حتى يسارية ، عاقلة أو مجنونة ، رح اتضل ريحة القدس كعك بسمسم ، وكنافة، وزعتر رح اتضلها مطرزة بالفلاحات علي الطلاق عمر اليهود في ها البلد قصير " [311]، قد يتجلى الكاتب كعك بسمسم ، وكنافة ، وزعتر من تراث وطنهم من الأطعمة.

يتأثر الآثار في قلوب المواطنين لا سيما المنفيين، والكاتب هنا من المنفيين ولذا عندما يرى الكاتب تراث وطنه ينبع من قلبه الحب والحنين والتملك والانتماء، ويظهر هذا الشعور حين يذكر ويبصر الآثار، ومنها قوله: " الحمص لنا، الكنافة لنا من موطنها النابلسي إلى مقدسها الأزياء لنا ولنا غرز تطريزها وحريرها وأقواس قزحها على صدور فلاحتنا لنا ولنا القدس كلها وأرواح الأنبياء التي غادرت مقراتها في الصخر للناس يتقاتلون عليها وطالما بقيت سيدات ريفنا المقدس يأتين بخضارهن وزعترهن وريحانهن ونكهتهن ، ونشمها في خان الزيت والأزقة القديمة ، فلن يبقى إلا تاريخنا نحن تاريخنا الذي لنا [312]، وهنا يدعى الكاتب الاستحقاق أن التاريخ والآثار من المكان والأطعمة والأزياء كلها مستحق للشعب الفلسطيني فقط وليس لأحد حق تراث وطنهم.

يؤكد الكاتب أن التراث والآثار كلها للشعب الفلسطيني فقط، يستطع المحتلون أن يحكموا على الشعب الفلسطيني ولكن لن يستطيعوا أن يطمسوا ويمسحوا تاريخ فلسطين وآثارها وتراثها ، يكون القدس قدسا بحفظ وبقاء من آثارها وتراثها ، القدس من أهم مكان يتضمن آثار الفلسطين ومن أهمية أثارها قبة الصخر

[311] المصدر نفسه، ص 217.

[312] المصدر نفسه، ص 217- 218.

، سوق خان الزيت ، حائط البراق وإلخ... وهذه الإرث من تاريخ الفلسطين وأهلها الفلسطينيون فقط، تتجلى هذه في كلماته " ابتعرف ما في قدس من غير حمص أبو شاكر وأبو حسن شو بتسوى القدس من غير شارع صلاح الدين، وباب الواد، وباب الخيل وكل لبواب اللي بتاخذ الناس لمعتقداتهم ؟ اللي بتخلى عن هذا كله، بتخلى عن الأقصى وقبة الصخرة، وحارة النصارى، وكنيسة القيامة، وحائط البراق ، و سوق خان الزيت، الخلايلة ، يا زلمه هي القدس بتكون قدس إن ما كانت هذا كله ، وفوق منه جبالها وتاريخها وحيطانها " .[313]

[313] المصدر نفسه، ص 218.

المبحث السادس: الهوية الوطنية (الفلسطينية)

تأسست الهوية الوطنية الفلسطينية تراكميا خلال العقود من الاحتلال ،بدءا من فترة العثمانيين إلى الاستعمار البريطاني والاستيطاني الصهيوني ، مما جعلها مزيجا من الدين والغة والتاريخ والثقافة ،وتجسيدا للروح والمقاومة، تسعى لتحقيق مصير الشعب الفلسطيني بتحرير الأرض وانهاء الاهتلال . صمم الصراع الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني والتحديات التي واجهتها فلسطين، بما في ذلك الحصار والتدمير والاعتقال، وساهم في تشكيل وترسيخ الهوية الفلسطينية بشكل مستقل عن الهوية العربية، هذا الصراع سبب العديد من التحولات والنزاعات حول الحدود والأراضي الفلسطينية، مماثلة للنزاعات التي كانت تحدث بين جيرانها على حدود الأراضي الخضراء. بعد تسلسل الأحداث من عام 1948م وإقامة دولة " إسرائيل " على أحلام الفلسطينيين وحقهم في العودة، أصبحت الهوية مجرد خيال والعودة حلما جميلا، وهذا ساعد الفلسطينيين أينما كانوا على الحفاظ على هويتهم الفلسطينية والاقتراب منها. ورغم أن تعريف الهوية متشابه في سماته ومكوناته، إلا أنه لا يمكن أن يتفق عليه الجميع، فيقدم فيصل دراج الهوية على " أنها تكون على شكل رموز يتماهى معها الفرد والجماعة بغية التعبير عن أنفسهم على أنهم ينتمون إلى جماعة .[314]

يناقش الكاتب عن الهوية وعن الذين يتمسكون ويودون للهوية الفلسطينية المستقرة واعادة هويتهم من أيدى اليهود، هنا يصف الكاتب عن الذين يعيشون في عكا القديمة التي كانت أقدم مدينة من الفلسطين الآن تقع تحت الحكم الإسرائيلي، ويسكن هناك شعب الذي يحفظ هويته ويذكر الكاتب عن هذا الشعب في روايته " وفي الناس ما هانش عليها اتبيع، أبدا ما هانش عليها ، هدول يا استاز هن العكاوية الأصيلين، الناس اللي متمسكين بأرضهم وبيوتهم وهويتهم، اللي ماسكين حجار عكا بأظافرهن هدول الناس هن اللي وقفوا في وجوه الفرنساوية وغير الفرنساوية وطردوهن، يشارك الكاتب خوفه بكشف هويته، ويفهم الناس

[314] دراج فيصل(2008) قضايا فلسطينية –سياسية، السياسة والثقافة والهوية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية:شركة مؤسسة الأيام للطباعة.

حوله سوء الفهم عن الهوية الفلسطينية، وهم ينظرون لمن يحمل الجنسية الفلسطينية تهديدا للآخرين، ويتردد الكاتب لكشف هويته، هل كان الكشف تهديدا له ؟، ويرجو أن يصرخ لمن حوله " أنا فلسطيني أنا فلسطيني، هويتي فلسطيني، وإن كنت أحمل جنسية البريطانية، ويقول: " يفاجئني السؤال الذي شغلني منذ لحظة جلوسي في مقعدي حتى لحظة جلوسها، ويسحبني من مشاهد الحرب إلى حافة الإجابة، من أين أنت ؟، كنت مختارا، منذ قلقي الأول، في اختيار الجواب ، كأن أدعي مثلا بأنني يوناني أو قبراصي أو لبناني أو أي جنسية أخرى غير الفلسطينية، خوفا من أن يصرخ أحدهم وسط هذا الجمع من المسافرين: فلسطيني فلسطيني، تعيد السؤال إلي مداعبة، فأعطيها إجابة تقريرية: أنا فلسطيني أحمل الجنسية البريطانية " آآآآه.. فلسطيييني ".[315]

ويؤكد الكاتب عن جنسيته وهويته، إذا فتشتمني عن هويتي وجنسيتي قد تدركوني أنا أحمل جنسية البريطانية أو بلاد أخرى، ولكن وإن كنت حملت جنسيات العالم كله فتجدونني أظل فلسطيني، " وأنني ينبغي ألا أفكر مجرد التفكير في تجاهل هذه الحقيقة، حتى لو كنت مولودا على أرض المطار، أو عثروا تحتها على بقايا عظام أجدادي، أو أحدهم على الأقل، وسوف يتغزلون ببريطانيتي ويمتحون حكمة الانتماء إليها، كما قلوا لعادل (إحمد ربك أ، ك ألماني فرد عليهم بعناد تلقائي: لو حملت جنسيات العالم كله رح أظل فلسطيني " .[316]

وكان الكاتب فخور باسمه ونسبه وهويته ووطنه، يسأل الضابط في المطار خلال امتحان جواز سفره، عن جذر اسمه، وهل كان اسمه حقيقة ؟، ويرد الكاتب بلا فزع ولا جزع ويفخر باسمه الذي يحمل هوية الوطنية، " هل الاسم المدهون في جواز سفرك هو اسمك الحقيقي ؟، منذ ولادتي في أسدود عام 1948، وأنا أحمل اسمي معي ويحملني معه: وليد أحمد دهمان " [317].

[315] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 93.

[316] المصدر نفسه، ص 131.

[317] المصدر نفسه، ص 133.

يتعهد الكاتب ويقسم عن الهوية الفلسطينية ويقول أنا من الفلسطين وأرجو أن أموت في فلسطين " حبيبي، أني ولدت في فلسطين، و رح اموت في فلسطين الجنسية الإسرائيلية بالنسبة الي مواطنة وحقوق، صحيح إنها ناقصة، لكن بتخلي باقية في بلدي " .[318]

يفخر الكاتب بهويته وهوية أهله، وهم من عرق الفلسطين، ويستحقون أن يعيشوا فيها وأن يحفظوا على لغة الوطن وأن يحموا تراث الوطن، والآخر وهم من الخارج، ليس لهم حق على فلسطين والعيش فيها، يقول الكاتب عن أمه وتفتخر بهويتها " أمي تحتفظ بلغتها، أمي لا تفهم عليهم، هي الفلسطينية، من مولدها، في حارة المداهنة في المجدل عسقلان، حتى آخر غرزة تطريز ملونة في ثوبها المجدلاوي، لا تفهم عليهم، وهم لا يفهمون عليها، هي الداخل، هم في الخارج " .[319]

[318] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 132.

[319] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010م، ط1، ص 251.

الفصل الثالث: القضايا الوطنية في رو ايات ربعي المدهون

القضايا الوطنية هي المسائل والموضوعات التي تتعلق بالدولة وشعبها، والتي تؤثر بشكل كبير على السياسة والحياة الاجتماعية في البلاد. تختلف هذه القضايا من بلد إلى بلد آخر بناء على الثقافة والتاريخ والظروف السياسية والاقتصادية. أن يتمتع بالحرية من حقوق الإنسان في كل مكان، وفي أي زمان ، ومهما كانت جنسيته أو جنسه، أو مذهبه أوعرقه أو لغته أو لونه، وهذه الحقوق متأصلة منذ الولادة وتستمر حتى الموت، ويحارب ويقاوم لتحصيل حريته عندما يحاول الاحتلال انتزاع حقه الطبيعي ويدافع لاعادة حريته، هذا ما وقع في الشعب الفلسطيني عندما احتل الإسرائيليون أرضه، وسلبوا حريته، وكان من واجبهم الدفاع عن حقوقهم، ومقاومة الاحتلال بقوة الحق وسلاح المقاومة، فكان النضال الفلسطيني مستمر حتى يومنا هذا.

القضية الفلسطينية تعني الصراع التاريخي والسياسي والمشكلة الإنسانية في فلسطين منذ المؤتمر الصهيوني الأول 1897 م وحتى يومنا هذا ، كما تعتبر قضية فلسطين جزءا أساسيا من الصراع العربي مع الإسرائيلي الذي نتج عنه ظهور الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين وطرد شعب الفلسطين من وطنهم وهجرتهم إلى بلاد مختلفة ، فإن قضية فلسطين هي قضية العالم التي لم تستطع حلها حتى الآن.

كان الكاتب من المنفيين الذين هاجروا من فلسطين بسبب النكبة ولذا وهو يناقش عن قضايا الوطن في رواياته ويخبرنا عن صورة حقيقة التي وقعت في شعب الفلسطين ومشكلاتهم التي يواجه الشعب الفلسطيني بعد هجرة اليهود إلى فلسطين ، وكذلك يناقش عن القضايا الأخرى مثل الاحتلال والنكبة والهجرة وعدم المساواة بين جنسين وقضية المرأة والحروب والاستقلال والإضرابات وإلخ.

المبحث الأول: قضية الحرب

يناقش الكاتب قضايا الوطن المختلفة ومنها الحرب، قد تعرض الشعب الفلسطيني لحروب مختلفة من قبل الاحتلال، وهذه الحروب كانت سببا لتفريق الشعب الفلسطيني في أنحاء العالم وسببا لضياع وطنهم المحبوب، ومن هذه الحروب حرب 1948 هي حرب اندلعت في فلسطين بين كل من المملكة الأردنية الهاشمية والمملكة المصرية ومملكة العراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية ضد المليشيات الصهيونية المسلحة في فلسطين.

لن يرغب الشعب الفلسطيني أن يتذكر ما حدث عام 1948 م ، وهي كارثة في تاريخ الفلسطين وكانت الكارثة تسببت لشتات الفلسطينيين في أنحاء العالم ، تسمّى هذه الكارثة بالنكبة ، وكان الكاتب من ضحايا في النكبة، ولذا قد أثر في عميق قلبه تأثيرها ويعبر عن ذكرياته ووقائعه الحقيقة في رواياته ، يعود إلى تاريخ النكبة، ويناقش السرديات العربية واليهودية المتناقضة في ما بينها ويطرح الأسئلة المحرجة التي لم تطرح للنقاش من قبل ؛ رابطا بين تاريخ النكبة وتاريخ الهولوكوست وبين مصائر فلسطين ومصائر اليهود.

يحاول الكاتب أن يصرف نظر المجتمع إلى النكبة وإلى صورة النكبة الحقيقية والأحداث والوقائع التي جرت حين وقعت النكبة في فلسطين ، يبين الكاتب عن هذا " حل إبريك 1948م على البلاد مثل عاصفة شؤم، ولم تكن الهدئة التي دعت إليها الأمم المتحدة في اجتماع خاص، عقد في مطلع الشهر، سوى كذبة يومه الأول، فقد أطلقت منظمة هاغاناة اليهودية أولى حملاتها العسكرية، في إطار سلسلة من ثلاث عشرة حملة ، تضمنتها خطتها المعنونة ب" توخنيت دالت " (الخطة د)، بهدف توسيع القطاع اليهودي باتجاه شرق البلاد بالقوة المسلحة واستهدفت ثماني عمليات يهودية قرى عربية تقع خارج المنطقة المخصصة لليهود في خطة التقسيم، 1وما لتحقيق قيام دولة يهودية على أرض فلسطين ، منذ أواسط ديسمبر وحتى أبريل

1948، هوجمت سبع عشرة قرية فلسطينية خلال ساعات العمل ، وقتل ستمائة فلسطيني غالبيتهم من النساء والأطفال "[320]، هكذا يفسر الكاتب عن صورة النكبة التي وقعت عام 1948م ، وخسران الفلسطين.

يتذكر الكاتب عن النكبة وحكايات أمه عن النكبة ومصيرها وعاقبتها ، والنكبة هي كارثة وطعمها الفراق بين الناس والعائلة ومصيرها الخسران والحزن والضياع " أعترف هنا وبصراحة، أنني عندما بدأت في سرد وقائع تلك الفترة وملاحقة تفاصيل الهجرة ، وجدتني كمن يكتب تاريخا مدرسيا ، تذكرت حكايات أمي ، كانت كلماتها، وهي تتحدث عما جرى عام 1948م ، تفوح برائحة النكبة ، لها طعم فراق مرير ، كنت أشم رائحة النكبة، أتذوق طعم الفراق و أبقى بمفردي ، بعيدا عنها، أخفي دموعي تحت الحائط " .[321]

يشرح الكاتب عن الحروب في رواياته ومنها حرب يعرف با" العدوان الثلاثى أو حرب 1956، كما يعرف في مصر والدول العربية أو أزمة السويس أو حرب السويس كما يعرف في الدول الغربية أو حرب سيناء أو حملة سيناء أو عملية قادش كما تعرف في إسرائيل، هي حرب شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر عام 1956م، وهي الحرب العربية الإسرائيلية الثانية بعد حرب عام 1948م، وتعتبر من أهم الأحداث العالمية التي ساهمت في تحديد مستقبل التوازن الدولي بعد الحرب العالمية الثانية. يحكي الكاتب عن الحكايات التي شهد الكاتب خلال وقوع الحرب " لم أشهد في حياتي نهارا يشبه نهار اليوم، السابع من مارس، نهار لا يشبه إلا ذاته، في صباحه اهتزت المدينة، وارتجت المعسكرات من رعد الفرح الذي أطلقته، حتى قيل أن المدينة صارت بحرا، وصار بشرها أمواجا، هاج البحر وماج، وصعدت أمواجه من المعسكرات، زحفت على المدينة الزاحفة على نفسها، رأيت خان يونس تغرق تحت طوفان من الفرح، أناسها في البيوت، في الأزقة، في الشوارع يرقصون، طرحت المدينة قنعتها عن رأسها، خلعت عن جسدها دايرها الأسود كما تخلع حزنا جثم على قلبها، شاهدت خان يونس عارية من حزنها ، فوق ساحاتها شبان يدبكون وأخذ آلاف

[320] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 38 -40.
[321] المصدر نفسه، ص 47- 48.

البشر يتراكضون في الشوارع، يغتسلون من خوف جثم على صدورهم أربعة شهور كاملة يهتفون حتى تبح حناجرهم، كأن فلسطين عادت مع أنها لم تعد " [322]، وهكذا يحكي الكاتب عن حكايات هذا الحرب التي شهد، وكان مصير الحرب الألم والحزن والفقدان والخسران والموت والقتل هكذا كل النتيجة تهلك حياة الإنسان.

وكان الحرب العدوان الثلاثي خاطرة في تاريخ العرب لا سيما في مصر، كان النصر في المرحلة الأولى لحزب العرب الذي يقود جمال عبد الناصر رئيس جمهورية لمصر، ولكن ينال الفوز الأخير للحزب الإسرائيلي، وكان الكاتب في مصر حين يقوم الحرب، وهو يدرس في الجامعة ويحاول أن يؤيد حزب العرب بالغناء نجاح سلام ويحكى هذا في رواياته:

" اليوم اليوم اليوم النصر

عصرنا قلب الاعدا عصر

فجر جديد وعهد جديد

وكل العرب اتأيد مصر " .[323]

يشارك الكاتب عن أحوال واللحظات التي حين فاز حزب العرب في حرب 1956 في المرحلة الأولى، يحاول إذاعة إسرائيل أن تكتمي هزيمتهم وتكذب بالقلم والأرقام ولكن إذاعة المصر تفرح بالفوز ويسر بالأغاني والأناشيد التي تليق بالمناسبة:

" يا هذه الدنيا أطلي واسمعي..... تررتتا

[322] المصدر نفسه، ص 145.

[323] المصدر نفسه، ص 199.

جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي.... تررتتا

بالحق سوف أرده وبمدفعي ي ي ي ي ي ي

وإذا فنيت فسوف أفنيه معي ي ي ي

قولي معي ي ي

قولي معي ي ي "

ونردد خلف المذياع بصوت واحد:

الله الله الله أكبر ".

وكان الكاتب متفاعل بالفوز الأخير وستكون وطنه سترجع من أيدي اليهود ويؤمن هكذا كما قال: " انشا الله بيطلع ها لحكي صحيح، الله يفرجها ونرجع ع لبلاد ، والله المجدل بتستاهل نرجع إلها " .[324]

يروي الكاتب عن الهزيمة في حرب 1956 ويشارك عن أحوال العرب ويضيع العرب كل ما لديهم من الهمة والعزة والمال والعرض وتصير القاهرة مشتملا بالحزن والخسران ويسيل الدم في عروق السكان يأتي الناس إلى الشارع ويجتمع ويظهر آلامهم ويشارك شعور الحزن بينهم ويشرح الكاتب عن هذا " فتح الريس شفتيه، فتحنا أعيننا، غطى صوته القاهرة كلها، غطى المنطقة العربية، غطى العالم، لا بد أنه كان الصوت الوحيد الذي غلف الكرة الأرضية في تلك اللحظة:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أيها الإخوة والأخوات..

.... قال أن ما حدث كن " نكسة "

[324] المصدر نفسه، ص 201.

وتنحى....

تجمد دمنا في عروقنا، احتبست أنفاسنا، أخذنا نبحث عن أنفسنا ولم نجد أنفسنا ، صرنا دمعا سال على درجات البيت، نزل إلى الشارع، تدفقنا في نهر الهمس الكبير: طب لديه ! تسيبنا وتمشي يا ريس ! سايبنا لمين يا جمال ! ناصر.. نصار... صار الهمس هتافا، صرنا بحرا من مسيرة هادرة لا أذكر من أين مرت، لأن القاهرة أخذت تتدفق في القاهرة ومتحو خريطة ملامحها فتتوحد الشوارع مثل ساحة مفتوحة، تختلط وتشكل تلالا بشرية زاحفة نحو استعادة رئيسها، الذي ضاع منها في الساعة الخامسة والنصف، مساء التاسع من يونيو 1967، ولم تنم القاهرة، لأنها سهرت تحتقل بتحول الهزيمة إلى نكسة " .[325]

يبين الكاتب عن نتائج بعد انتهاء الحرب، الحرب أضاعت ليست الأموال والأعراض والتراث والآثار فقط ولكن الحرب قد اضاعت الصلة بين الأقرباء والأصدقاء وأخذت الأرواح المختلفة التي كانت الأساس والعمود لاتصال الأرحام، يشرح الكاتب عن الندم والحزن والألم لابن الذي أخذ الحرب أمه، وهو يغني عن هذا:

" الأولى آه الحرب وداني

أجيب لأمي النصر و ارجع لها تاني

الأولى آه ع الحرب وداني أجيب فلسطين أ ما تضيعش من تأني

والتانية آه وقعت ولا حد سمّاني

والتالتة آه م الحرب... وآه م اللي وداني " .[326]

[325] المصدر نفسه، ص 205 – 206.

[326] المصدر نفسه، ص 216.

المبحث الثاني: قضية الاحتلال

الاحتلال الإسرائيلي على فلسطين هو تاريخيا يشير إلى سيطرة الإسرائيلية على أراضي فلسطين والمناطق المحيطة بها بدءا من عام 1948م يعود هذا الاحتلال إلى حرب 1948، التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل ونزوح عدد كبير من الفلسطينيين من أراضيهم، منذ ذلك الحين، استمر النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين، وشهد الصراع عدة حروب وأحداث معقدة تشمل الحرب في 1967 واحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، وبناء المستوطنات الإسرائيلية في تلك المناطق. الاحتلال الإسرائيلي هو احتلال استعماري استيطاني اقتلاعي وعنصري واحلالي، يهدف إلى إحلال الطابع الصهيوني واليهودي لفلسطين مكان الطابع العربي والإسلامي، في البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للأرض وللشعب الفلسطيني " يحاول تبرير شرعيته بالاستناد على أيديولوجية وادعاء ديني، وإن وجود الدولة لا يعتمد فقط على الغزو العسكري بل على إيمان اليهود بأنهم يشكلون قومية " شعب الله المختار" وأنهم عادوا إلى بلادهم ليكونوا دولتهم التي ستكون مسؤولة عن رعاية شؤون يهود العالم، وهو احتلال استيطاني لأنه لم يكتف بالمناطق المسيطر عليها، ولم يعترف بالحدود التي أقامها وإنما يسعى لتوسيع حدوده " .[327]

قد احتل اليهود على أرض فلسطين بعد النكبة، وسلبوا أرضهم وعرضهم ووطنهم وأموالهم ، قد تكرر احتلال اليهود على فلسطين عدة مرات ومن احتلالها احتلال " دير ياسين "، وهذا الاحتلال جعل سكان قرية " دير ياسين " من المهلكين بأموالهم وأجسادهم، يروي الكاتب عن قول من الضحايا في هذه الحادثة " أنا أصلي من دير ياسين يا أستاذ من بيت درويش اسمي وداد بس إمي من بيت زهران عيلتها كلها راحت في المذبحة قتلوهم اليهود وكوّموهم فوق ازغيرع كبير مره فوق زلمة إسه دير ياسين ملهاش أثر ، مش عشان اليهود دمروها زمان، بس لأنه صار مطرحها متحف الذاكرة إللي احنا رايحين عليه " .[328]

---

[327] عبيد داود المراغي، تأثير الاحتلال الإسرائيلي على هوية الوطنية الفلسطينية، جامعة شرق الأوساط للدراسة العليا، 2013م، ص .8

[328] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 245.

يفسّر الكاتب عن احتلال اليهود على أرض فلسطين وتدمير مدنهم وأحوال السكان والطبيعة والحيوان والطيور خلال الاحتلال يقول: " سمع صوت طلق ناري بدد سكون ظهيرة المجدل، أعقبه ، مباشرة، صوت رصاصة أحدثت صدى مغايرا سمعته القرى المجاورة، وطار حمام كثيرمن على حيطان وأسطح بتوت المدينة ، وفرت عصافير الدوري في كل الاتجاهات، وبحت كلاب بعيدا داخل البيارات ، وسارع أصحاب الحوانيت التجارية في السوق إلى غلق حوانيتهم ، وأنهى مصلون صلاتهم في الجامع الواقع وسط السوق على عجل ، ولم يتسن لبعضهم تناول حذائه الذي تركه في الزاوية القريبة من الباب ، وهرب الناس في الحارة إلى بيوتهم، واحتفى المارون من الشوارع القريبة ، وغادر رواد مقاهي المدينة مقاعدهم على عجل ، وتصرحت المجدل في عز الظهيرة ولا بد أن انطباعا عاما بوقوع اعتداء قام به مسلحون يهود، احتل اليهود في المناطق المحيطة بمدن يافا وحيفا وصفد والقدس .[329]

يقول الكاتب عما يبقى بعد الاحتلال اليهودي على مدينة المجدل ، وصارت المدينة كالمخيم والمنفى وتقبلت المدن إلى المقابر وهلكت القرى والمدن، " وخلال أسابيع صارت المجدل مدينة لاجئين ، امتلئت حواريها وبساتينها ، وحتى مقابرها ، بآلاف العائلات التي دمرت الحرب قراها، أو تلك التي هربت من أمام تقدم القوات اليهودية " [330]. احتلال اليهود على فلسطين هو جرح لن ينسى من قلوب الشعب الفلسطيني والكاتب ممن وقع هذا الجرح على قلبه ولذا وهو يعبر شعوره ضد احتلال اليهود والأحوال التي خلقوا في فلسطين وأحوال المرعبة التي واجهت الشعب الفلسطيني من سرديات رواياته وكتابة مقالته، وهو يشارك معنا عن الأحوال المفظعة التي تعرض الشعب الفلسطيني منها خلال احتلال اليهود.

ويقول: " قرابة التاسعة صباحا، وصلت مجموعة عسكرية إسرائيلية كبيرة، إلى بيت أبو مسلم، هبطت شارع البحر، استدار أفرادها خلف المقهى، دخل بعضهم بيت أبي مسلم، وانتظر آخرون في الخارج،

[329] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 23.
[330] المصدر نفسه، ص 47.

أخرجوا الرجل وأولاده الأربعة، أوقفوهم أمام جدار البيت، وأطلق أكثر من جندي النار عليهم، وسقط الجميع أرضا، مات أولاد أبي مسلم الأربعة على الفور أصيب الأب بجروح في إحدى قدميه، تظاهر بالموت، وبقي ملقى على وجهه يتنفس ترابا ودما نزف من أجساد أبنائه " .[331]

نتيجة الاحتلال هي المنفى وإن كان في داخل أو خارج الوطن، فتمنع الحرية والحقوق الإنسانية خلال مدة الاحتلال ومن ثم يصير المحتلون في حالة المنفى داخل الوطنهم، ويقول الكاتب عن هذا في كتابه: " ظل الحال على امتداد شهور الاحتلال الأربعة، على ما هو عليه، رعب وخوف، وحذر، ودوريات، ومداهمات من حين لآخر، يحكى عنها هنا وهناك، فجر ذلك اليوم صحونا على مكبرات الصوت، ورددت ما سبق ورددته في المدينة: " أيها المواطنون، أيها المواطنون" بأمر من الحاكم العسكري لمدينة خان يونس، يمنع منعا باتا مغادرة البيوت والتجول في الشوارع، من الساعة السادسة من صباح اليوم وإلى إشعار آخر، الزموا بيوتكم، كل من يخالف الأوامر يعرض نفسه لإطلاق النار " .[332]

المبحث الثالث: المقاومة

المقاومة الفلسطينية هي مصطلح يستخدم لوصف الجهود المبذولة من قبل الفلسطينيين للمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي ولتحقيق أهدافهم الوطنية والسياسية. هذا بالضبط ما حصل مع الشعب الفلسطيني حينما احتل الإسرائيليون أرضه، وسلبوا حريته. فكان لابد من الدفاع عن حقوقه، ومقاومة الاحتلال بقوة الحق وسلاح المقاومة. فكان النضال الفلسطيني المستمر، يدافع الكاتب وطنه بالشعر ويحث الشعب الفلسطيني على الدفاع لحماية الوطن ، والفوز الأخير لنا، سينال العون من الله ونبيه، هكذا وهو يغني "

" إييّا ويا ميت مرحبا باللي جاي

[331] المصدر نفسه، ص 116.

[332] المصدر نفسه، ص 136.

إييّا وطلّتكم علينا بدر وحرب ع لعداي

إييّا وافرحو يا مجادلة وتهنو

إييّا وبعون الله ونبيّه محمد النصر جاي

ألولو لولولولولولولولولولولولولي " .[333]

يدافع الناس وطنهم عبر عدة طرق ومنها الدفاع بالسلاح والنفس والقوة والفن، قد يستخدم الكاتب طريقة الفن يعنى وهو يغني ويحرض الناس على الدفاع باستخدام شعره، وهذا نرى في رواياته:

" الله أكبر فوق كيد المعتدي

الله للمظلوم خير مؤيدي

أنا باليقين والسلاح سأفتدي

بلدي ونور الحق يسطع في يدي

قولو معي قولو معي

الله الله الله أكبر الله فوق المعتدي " .[334]

يستخدم الكاتب الشعر لخدمة وطنه وحماية الوطن ويغني لإثارة نفوس المواطنين وأن يؤيد دفاعهم وتحريضهم لمواجهة تحديد اليهود ، ويغني:

" على دلعونا وعلى دلعونا

[333] المصدر نفسه، ص 42.

[334] المصدر نفسه، ص 100.

احنا حاربنا ابن صهيونا

احنا استشهدنا وبالروح فدينا

وانتو بالرحمة ردوا علينا " [335]. يحاول الكاتب أن يحمي وطنه بالدعاء من أيدي قوات اليهود ويرغب السلامة " خان يونس أأمن، ودعاه بالدعاء: " رح الله يحميك، ويجعل لك في كل خطوة سلامة " [336]. يغني الكاتب القصائد الحربية في رواياته، وهذه القصائد رمزية من الدفاع وطاقة لمن يدافع ويحارب للوطن، يقول الكاتب يسمع الأصوات بين وقوع الحرب، وهذه الأصوات من الأقوال التي تشجع المجاهدين " كانت أصوات قذائف المدفعية والرشاشات والبنادق والانفجارات تختلط بعشوائية مع صوت الثورة الفلسطينية يردد:

" أنا حالف يمين الله

عن أهدافي ما برجع

فدائي ما بكلمهم

بغير النار والمدفع

يا إما في الوطن اصرع

برشاشي أنا ما شي

في عرس النصر والتحرير " .[337]

[335] المصدر نفسه، ص 102.

[336] المصدر نفسه، ص 120.

[337] المصدر نفسه، ص 269.

المبحث الرابع: قضية المرأة

قضية المرأة في الوطن هي مسألة مهمة وشائكة تتعلق بحقوق النساء والمساواة بين الجنسين في البلدان والمجتمعات. تشتمل هذه القضية مجموعة من التحديات والمواضيع الهامة التي تؤثر على حياة النساء في الوطن. إن قضية المرأة هي من القضايا التي فرضت نفسها بقوة ووضوح في الأدب العالمي، وهذا منذ تبلورت ملامحه وأصبح يساير الحضارة الإنسانية وذلك حول الدور الذي لعبته المرأة عالميا وتاريخيا. أكد الكثير من النقاد والفلاسفة أهمية المرأة ودورها الفعال في الكثير من الأشياء سواء تعلق ذلك بالأدب أو التاريخ أو غيره فقد غيرت مسار الحياة كونها هي الحياة، " فهي الركن الثاني من أركان بناء المجتمع، وهي نصف الرجل، وتمام عيشه وحياته، يكمل بها ما ينقصه من بهجة وسعادة، وهي مبعث الرضا والغضب والفرح والترح ، وهي معينه والهامه، إنها منبع أغراض الشعر، وأحد أهم العوامل التي أنطقت الرجال به، أن المرأة هي أجمل موضوع في نظر الرجل ".[338]

أما في ما يخص طبيعة علاقة المرأة بالوطن فقد شكلت المرأة هاجسا كبيرا في الأدب العربي سواء النثري أم الشعري، فالمرأة اعتبرت من مظاهر الحنين للمكان وهذا راجع لذلك التأثير الذي يبعث أنه كل من الوطن والمرأة المتمثل في الحنين والشوق إليهم. تلعب المرأة دورا بارزا ومهيمنا في الأدب العالمي، حيث تسلط عليها الأضواء لتكشف عن القيم، فهي تعتبر المخلوق الضعيف بسبب طبيعة تكوينها ، لذلك يجعلها الكاتب ويصوّرها حقيقة المرأة وحياتها في الوطن والمجتمع ويصفها على أنها محط دائم للاستغلال وبضائع التي يستخدم الرجال للحاجة ويترك هذه البضائع المخلفات بعد الاستعمال.

يعرف الكاتب صورة المرأة في الرواية كمرأة قوية الإرادة أحيانا ويتعرض أحيانا كامرأة ضعيفة واهنة غير قادرة تجاه الأزمات والمشكلات التي تواجهها في حياتها، ومنها بطلة إيفنا في رواية " مصائر " وهي تهرب وتهاجر من وطنها بسبب خوفها من المجتمع وتذهب إلى المنفى وشخصية جنين وهي تكافح للأحكام اليهودية وتحارب

[338] جمال زاهر: شعر الوأواء الدمشقي ، دراسة فنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، 2007 م ، ط 2، ص 37.

أن تعيش في وطنها، وهكذا نرى أن الكاتب قد يصور صور النساء في عدة صور مختلفة. ويقول عن الفلاحات التي يعشن في القرى وكانت في السرور مع حياتهن ويشبهن بأمه ويبين عن ملابسهن، " عند مدخل سوق خان الزيت، استقبلتنا فلاحات، جئن من القرى المحيطة بالخليل تسللن ، كما العادة ، من طرق التفافية بعيد عن حواجز الجيش الإسرائيلي هربن أنفسهن وروائح النعناع والزعتر والنباتات الخضراء الأخرى تجنبا لأنظار الجنود وأنوفهم ، ونشرنها في كل مكان مررن به في المدينة بدا السوق حين عبرناه، مطرزا بالفلاحات، وهن مطرزات بأثوابهن ، وأثوابهن بحرير بلدي نساء يشبهن أمي تربعن في مساحات صغيرة أمام ربطات الخضار وصرن جزءا مألوفا من المشهد الجميل "[339].

يتركز الكاتب على يحكي عن قضايا المرأة المختلفة بواسطة السرديات المختلفة بين المخيلة والواقعية، يعنى الاختلاط بين الخيال والواقع، يخلق الكاتب الشخصيات المخيلة في سرديات الرواية ولكن هذه الشخصيات ودورهم وقضاياهم وأحوالهم وحوادثهم تشبه لحياة النساء في فلسطين ومشكلاتهم التي تواجهن في الحياة الحقيقية، ولذا يستخدم الكاتب هذه الوسيلة لإثارة قلوب القرآء ولتعريف عن صورة المرأة الحقيقة، يعالج الكاتب القضايا المتعددة التي تواجه المرأة ومنها قضايا الزواج المبكرة، وقضايا المهور، وقضايا الملابس، وقضايا عدم المساواة.

وهكذا يناقش الكاتب " فتيحة جرادة، السمراء المكتنزة، أعطت، مثل غيرها من مدرسات حارتنا، فتيحة، مثل الأخريات، انتزعت حق التمرد على الثواب الطويل، غض المنتفعون النظر عن قيراط من لحم سيقان البنات تمرد، أعلن عن نفسه في ارتعاش طرف التنورة، في ارتباك الكعب العالي يقاوم الطرق الترابية، يحرك برشاقة الإليتين، كل اللذين تابعوا بريق اللحم يومض عند طرف تنانير الترغال فوق الركبتين، حلموا بالزواج من مدرسة، الأحلام كبرت، المهور ارتفعت، البنات صرن أصنافا من البضائع، تعرض بأسعار غير قابلة للمفاصلة أو النقاش، اللداويات غاليات، والرملاويات واليافاويات لسن أقل منهن مهرا، الفلاحات،

[339] المدهون، ربعي: مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 216.

الاجئات من أصول قروية، أرخص، أما المجدلاويات، فهن الأغلى مهرا بين الجميع، المجدلاويات بيضاوات، وجوههن مثل القماش البفتة " .[340]

[340] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 174.

الفصل الرابع: المنفى في روايات ربعي المدهون

المنفى قد يكون معنويا بفعل الظروف النفسية والاجتماعية، مثل حالة الشخص المنبوذ أو الفئات الحقيرة في قاع المجتمع أو هامشه، وكذلك المنفى الصحي للمريض بسبب مرضه المعدي أو الخطير، وقد يكون المنفى زمانا، يشعر معه المرء أنه خارج عصره، والمجتمع لا يتقبل وجوده أو طريقته في السلوك أو التفكير أو المشاعر، المنفى إذن حالة نقضية للحالة السائدة في مكان وزمان، وربما كان هذا قريبا من حالة الاغتراب الوجودي اليوم، بعبارة أخرى أن المنفى الوجودي المكاني، النفسي والروحي والجسدي، والاجتماعي، والثقافي والحضاري حالة أكثر شقاء وألما مما يتعارف عموما في مفهوم المنفى[341]" . بل إن التطورات الاجتماعية السريعة وهيمنة التكنولوجيا والثقافة الالكترونية، زادت تعقيد المنفى مفهوما ومساحة، بشكل يكاد يحيل البشرية عامة إلى منفيين - داخل أنفسهم- خلال عقود قليلة جدا، إذا لم يحدث تغيير للأفضل.

يرتبط مفهوم المنفى في اللغة العربية بمعاني النفي والإبعاد، والتهجير والاغتراب والذهاب والانعدام، وهذه المعاني تؤكد حالة الانقطاع والاستئصال، والحديث عن المنفى كمكان يقودنا إلى ضرورة الرجوع إلى أدب المنفى، أدب المنفى يعد ظاهرة، يتكرر حضورها في الأدب العالمي، لا سيما في الأدب الفلسطيني، وإن الأدب الفلسطيني يؤلف معظمه خارج الفلسطين ولذا يضمن موضوع أدب المنفى معتادة وضرورية، وكان ربعي المدهون من الكتاب الفلسطينيين وهو يعيش في المنفى وهاجر قسريا من الوطن بظروف داخلية صعبة، فبدأ اليهود العنف والظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي وطردوا السكان من الفلسطين، وتعرض الشعب الفلسطيني لعقوبة متعددة وخضعت أرض فلسطين للغزو والاحتلال، وهذه الأمور التي وقعت في حياة الكاتب وتجرباته حرضته لتأليف الرواية حول قضيتي " الوطن والمنفى ".

[341] سامي فريد، المنفى، مركز الدراسات والابحاث العلمانية في العالم العربي، 11/12/2021 ، https://www. ssrcaw. org.

علاقة المنفى بالكتابة تشكّل عصب الكتابة لدى كثير من الكتاب الذين ذاقوا مرارة النفي، سواء كان النفي إجباريا أو اختياريا ولكل منهما طقوسه وتجلياته. المنفى قد يكون محرضا على الكتابة المفعمة بالحنين والشوق إلى الذكريات والأيام السافلة، كما قد يكون هذا النزوح الداخلي باعثا على تغيير الأدوات والنهج التي يستخدمها الفرد لفهم العالم من منظور جديد، إن السفر يعتبر غزوا للعالم بحد ذاته، وقد يكون المنفي المسافر هو "الغازي "بطريقته الخاصة واضطراره، يأتي ذلك تاليا بالتعرف على أسرار عالمه الجديد وتوسيع دائرة الحدث من خلال زواية المقاربة والنظر الجديد.

مفهوم المنفى معقد بطبيعته، إذ يمكن أن يكون إما مفروضا ومطلوبا ومرغوبا، حيث يسعى الشخص نحوه ويفضل الإقامة فيه، أو يمكن أن يكون نتيجة حالة من الاغتراب حيث يتعرض المرء للانفصال عن وطنه الأم أو عن أصله الثقافي أو العرقي، يكون المرء قد اختار ترك وطنه نتيجة لرغبته الشخصية أو لأسباب خاصة به. يمكن أن نشير إلى التجربة الفلسطينية التي تضمنت أنواعا عديدة من الطرد القسري والنفي العنيف والترحيل وأحيانا الاغتراب والنفي عن الوطن، لأن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية دفعت الفلسطينيين إلى خارج الوطن الأم في ظروف معقدة للغاية خلال رحلة الشتات الفلسطينية المستمرة.

للمنفى أسماء كثيرة ووجهان مهمان، المنفى الداخلي والمنفى الخارجي. المنفى الداخلي هو غبرة المرء عن مجتمعه وثقافته، وتأمل عميق في الذات ، بسبب اختلاف منظوره عن العالم وعن معنى وجوده عن منظور الآخرين، لذلك يشعر بأنه مختلف وغريب، وهنا، لا تكون للمنفى حدود مكانية ، إنه مقيم في الذات المحرومة من حريتها الشخصية في التفكير والتعبير، بسبب إكراه السلطة السياسية أو سلطة التقليد. المنفى الخارجي هو انفصال المرء عن فضاء مرجعي، عن مكانه الأول وعن جغرافيته العاطفية، إنه انقطاع حاد في السيرة، وشرخ عميق في الإيقاع، هنا يحمل المنفي كل عناصر تكوينية: الطفولة، والمشاهد الطبيعية، الذاكرة، الذكريات، مرجعيات اللغة، دفاعا عن خصوصيته وهويته، ويأخذ التعبير عن حنينه

إلى الوطن، يطور المنفي اختلافه عن الآخرين لأنه يخشى الاندماج والنسيان و يعيش على الهامش الواسع بين هنا وهناك، يرى أن أرضه البعيدة هي الصلبة، وأن أرض الآخرين غريبة ورخوة.

يجادل الكاتب أن اليهود الذين هم سبب لطرد الفلسطينيين وجعلوهم في المنفى وليس بين النازية الألمانية واليهود فرق، وهم سواء في خلق الضحايا والمنفيين ، ويدل على ذلك قوله حين زار فلسطين " إنني أريد أن أختبر موقف من يتذكر الضحايا الذين أزورهم من الضحايا في الجهة الأخرى ؟ وكيف يمكن إبقاء ذكرى من أبادتهم النازية الألمانية حية، بقصف غزة مثلا ؟ وما الفرق بين الحرق في أفران الغاز أو الحرق بصواريخ الأباتشي ؟ ثم ما الذي ربحته عندما تخليت عن جمع عدد من التحف التذكارية والهدايا النادرة، وروائح التوابل والبهارات، وابتسامات الفلاحات الفلسطينيات المطرزة بالنعناع والزعتر، وجئت إلى هنا " .[342]

المبحث الأول: المنفى في الوطن

المنفى في الوطن يعنى هو حالة الغربة في داخل الوطن كما في المنفى، ويشعر غربة في الوطن حين فقد حقه لحياة مستقلة ويتحسر على ما وقع للمجتمع وثقافتهم وحضارتهم ويختلف منظوره عن العالم، وهنا، لا تكون للمنفى حدود مكانية، إنه مقيم في الذات المحرومة من حريتها الشخصية في التفكير والتعبير بسبب إكراه السلطة السياسية أو سلطة التقاليد، يعد المنفى في الوطن من أكثر التجارب تعقيدا وصراعا الذي يمكن أن يواجهه الأفراد، يتعلق هذا الأمر بالأشخاص الذين يضطرون للنزوح وترك منازلهم ومجتمعاتهم داخل حدود بلدهم نتيجة للنزاعات الداخلية أو الظروف القاسية.

ويصور الكاتب هذا الحال في رواياته قال لجولي، " هذه ليست عودة جيجي أنا لن أعود إلى البلاد لكي أعيش فيها غريبا " [343] ويقول عن غربة أهل عكا: " تأثرت جولي بكلمات فاطمة، ومع أنها لم تفهم " بنطس في عينيه الثنتين "، فقد تلمست غربة أهل عكا، تعجبت لها في البداية، ثم تألمت بقدر ما تلمست، "أوه" ثم تحسرت،

[342] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص، 239.

[343] المصدر نفسه، ص 65 .

همسا، على والدتها، " مسكين ماما إيفانا هو كمان أكاوي مات سترينجر "، وتذكرت بعدها، كيف لملمت فاطمة ما همست به من بين شفتيها واستهجنته " ايشش حبيبتي ؟ إمك مات في لندن عكاوي غريب ؟ !، إحمدي ربك واشكريه تعي شوفينا هون، غربا في بلادنا ولا جئين ما في فرق بين الميتين من واللي عايشين"[344]

تركت أم وليد بيتها في هجرة داخلية هي الرابعة، أعادت خلالها تجميع الحكايات القديمة، وصنعت منها حكاية واحدة: " دارنا الأولانية اللي ربيت فيها وليد جرفتها دبابات شارون سنة السبعين، ودارنا الثانية سقطت عليها قذفية مدفعية إسرائيلية في عهد شارون "[345] ، " رغم ارتياحها لترحيبهم، ظلت أم وليد أسيرة إحساسها بالغربة والتشرد، تهمس لنفسها على مراحل ، لأنها لا تحب الهمس المتواصل الذي يفقدها متعة الكلام، اللي بيبعد عن داره بيقل مقداره، مع أنها تعرف أن تشردها من النوع المحترم، وغربتها مثل غربة أهل عكا لا تتجاوز طرف المدينة، لم تتوقف يوما عن استحضار ما تسميه حكاية بيتها، كي تطرد بها ذلك الإحساس اللعين " .[346]

يشارك الكاتب إحساس المنفى في الوطن حين يحكى حكاية جنين وباسم، يتجرب باسم تجربة المنفى في الوطن، ويحرم له الحرية والحقوق للمواطنين كما يحصل لليهود، ولذا وهو يلعن بعودته إلى الوطن يقول: " بأن وزارة الداخلية الإسرائيلية رفضت جنين الطلب هذه المرة أيضا أغلق باسم هاتفه على صدمته وضعت جنين هاتفها جانبا على مكتبها، وتتبعت انفعالاته لا حقته مخيلتها عائدا إلى البيت من شارع البحر كعادته، يجر حصته من الخيبة يستغل انحسار ظله، في مثل هذا الوقت من النهار، ويتطاول عليه، يلعنه ثم يدوسه بقدميه يلاكم الهواء ويلعن السنة التي عاد فيها إلى البلاد ظانا أنها وطن، بينما رأسه يجادل حيطان مسجد البحر" . [347]

---

[344] المصدر نفسه، ص 19- 20.

[345] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010 م، ط3، ص 10-11.

[346] المصدر نفسه، ص 9-10

[347] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 71.

تنعكس شخصية باسم الذي يعاني من مشكلات المهاجرين في الوطن، في السطور الآتية " بعد عام من زواجنا، بدأ باسم يختنق بتفاصيل حياته اليومية التي استحالت مللا مبرمجا لا حق له في العمل ولا إذن له بذلك أصلا لا يتمتع بأي شكل من أشكال الضمان الصحي أو الاجتماعي لا حقوق له في كل ما هو حق للآخرين المقيمين في البلاد، ممن فيهم الروسيات المستوردات، أو المهاجرات المتهودات حديثا، اللواتي ينعشن ليالي تل أبيب والمدن الكبرى ليلا ينشطن الحياة السياسية في كل البلاد نهارا يدخلن إلى خزينة الدولة "[348]، هنا يشارك الكاتب ليس مشكلات فقط بل يتناول الكاتب التمييز بين المواطنين أيضا.

ترفض الحكومة حقوق المواطنين الذين بقوا في فلسطين بعد النكبة التي وقعت عام 1948 م، واحتل اليهود مدن الفلسطين مثل عكا ويافا وأخرى من المدن التي كانت من تنتمي إلى فلسطين، وهناك يتجرب المواطنون الغربة والمنفى في وطنهم. وقد تتجلى فكريات الكاتب في الرواية عن المنفى في داخل الوطن، كما قال باسم في رواية " مصائر ": " حياتي يا جنين صارت لعبة كمبيوتر، الربح فيها ما بفرق عن الخسارة عايش في بلدنا كإني مواطن افتراضي موجود في السجلات الرسمية، في وزارة الداخلية، عند الأمن العام، ويمكن عند الموساد والله أعلم، وع الحواجز، وفي مراكز الشرطة بس مش موجود في المؤسسات الحقوقية ، ولا مؤسسات الخدمات الصحية والاجتماعية حتى انت يا جنين، حاضرة غايبة، زي كل الفلسطينيين في ها لبلاد، بس أنا يا حبيبتي غايب غايب ".[349]

يكون الوطن للفلسطينيين مثل المنفى ويجعل الحياة فيه كمثل الحياة في المنفى، ويصور الكاتب هذه الأحوال في ورياته، يرفض الحقوق الإنسانية أحيانا ويحرم الحياة الحرية في الوطن وكذلك يجعل الوطن سببا لتفريق بين العاشقين لعدم حصول حق المواطنين ويتميز الحقوق بين المواطنين، يعطي الحكومة اليهودية الحرية والحقوق الكاملة لليهودين فقط وتحرم هذه الحرية والحقوق الشاملة لغيرهم، وهذا يؤدي

[348] المصدر نفسه ، ص 88 – 89.

[349] المصدر نفسه ، ص 100-101.

إلى مشكلات شتى وتكون حياتهم كحياة المنفيين وأحيانا تحث هذه الأحوال العودة إلى المنفى، ويحقق هذا محادثات باسم وجنين وهما جمعا في المنفى وعادا إلى الوطن لحياة جيدة ولكن الوطن يجعلهما كالجهنم وتقول جنين: " تبكي لها وله تبكي عليها وعليه على حبهما الذي فتح طريقا للعودة إلى الوطن لكي يفترقان فيه " ياربي مش معقول الغربة تجمعنا ويفرقنا الوطن، يا إلهي كم أصبحت يا فا قاسية علينا، لم تعد تطيق فلسطينيين ولدا في مكانين مختلفين يعيشان فيها معا؟ وبكت لنفسها وعليها بكت حتى رفع دمعها منسوب الحزن في البلاد" .[350]

يفسّر الكاتب عن أحوال ومشاعر حين يودع المجدل وأهلها وهو يشعر غربة المنفى في داخل الوطن ، يضطر أهل الكاتب للهجرة من المجدل إلى المخيم ، ويترك أهله المجدل وسكانها وبيته وذكرياته، ويكونون في المنفى في داخل الوطن " حمل أبي حاجيات قليلة لمت على عجل، وتبعته أمي وأنا على يديها ، بعد أن أغلقت الباب خلفها تاركة كل شيء على حاله ، الفراش، الملابس، القيشاني ، الصحون، أدوات المطبخ ، أدوات زينتها، الحمرة والبودرة والمكحلة النحاسية الصغيرة ومشط العظم العريض ، شالاتها الحرير، أحلامها الناعمة ملقاة على سريرها ، وذكرياتها الحلوة والمرة، ولم تأخذ معها سوى حليها الذهبية ، التي وضعتها حول رقبتها وفي معصميها، ومضت وفي عينيها بركة دموع يسبح فيها أهل المجدل بأكملهم ، وحسرة على زمن لن يعود، وفراق بيت في مدينة لن تفتح لنا أبوابها ثانية " .[351]

المبحث الثاني: المنفى في المنفى

المنفى هو حال الذي يعيش فيه الأفراد عندما يجدون أنفسهم في مكان بعيد عن وطنهم أو مجتمعهم الأصلي، ويكون هذا من النقل القسري بسبب النزاعات، أو الحروب، أو النكبة، أ، بسبب اختيار شخصي لبحث عن حياة أحسن، وفي هذا العصر الجديد قد كثر الهجرة والنفي والنزوح، يعيش الكثيرون حياة

[350] المصدر نفسه، ص 111.

[351] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010، ط1، ص 37.

المنفى، تجربة المنفى في المنفى قد تكون معقدة ومضرة بالنسبة للأفراد، إنها تتضمن التحديات النفسية والاجتماعية التي يصعب التعامل معها، ويواجه المنفيون في المنفى مشكلات شتى مثل فقدان الهوية والعزل الاجتماعي والصعوبات النفسية ويكونون لاجئين ثانويين أو مهجرين داخليين في بلادهم، ثم يضطرون لمغادرة بلادهم والعيش في بلد جديد، هذه التجربة تعرف ب"المنفى في المنفى"، تظل تجربة المنفى في المنفى تجربة فردية فريدة تتطلب القوة والصمود، إنها تذكير بأهمية دعم اللاجئين والمهجرين وتقديم الدعم النفسي والاجتماعي لهم أثناء تكيفهم مع هذه التحديات المعقدة.

يتبع شعور الوطن في قلوب المنفيين خاصة حين يكونون في المنفى، ولذا لن يستعد أحد أن يضيع فرصة لحياة في وطنه ولكن الظروف يضطره للهجرة ويكون في المنفى ويدوم شعور الغربة في المنفى وهذا تسمى المنفى في المنفى، يدل على ذلك قول الكاتب، " تركت بلدي بعد أن فقدت عائلتي كل شيء تقريبا، ولا أنوي العودة إليها ثانية، وقد مضى على وجودي هنا أكثر من أربعة شهور ، وأجدني غريبا ضائعا في لندن، وأود أن أسألك عن ما يجري بين الفلسطينيين والإسرائيليين... هل تخبرني ما الذي يجري هناك ؟ " .[352]

يفكر الكاتب العودة من الوطن وإن كانت العودة مضطرة سيكون من المنفيين في المنفى ، وقوله " فكرت للحظات في كل ما هجست به، في احتمال أن تغادر اليافاوية التي في داخلها، وتعود إلى منفاها الأمريكي وتجدده، وتتحول إلى لاجئة في الغربة، إن كل منفى هو مخيم جميل للاجئين يتهمونه وطنا فزعت صرخت " لن أرحل إن قرر باسم الرحيل فليرحل وحده أنا لن أترك ما لي وما بنيته لمهاجرين يأتون من بلاد لهم إلى بلاد ليست لهم، يرثونني وأنا على قيد الحياة " .[353]

كانت حياة الكاتب مملوئة بالهجرة من بلد إلى بلاد مختلفة، وكانت هجرته الأولى من وطنه المولود " فلسطين " إلى مصر وكان منفيا في مصر ولذت ذكريات المنفى من المصر وبعد هاجر إلى البلاد المختلفة

[352] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 209.
[353] المصد رنفسه، ص 100.

ومنها عمان، أردن وسوريا، وهذه الهجرات وقعت في مدة دارسته وانتهت جولته في أوروبا، الآن يقيم في اسبانيا، هنا يتعرض ويتجرب شعور المنفى في المنفى خلال هذه الجولات، يفسر الكاتب ذكريات المنفى في المنفى، وصل الكاتب من سوريا إلى عمان لعيشة مطمئينة ولكن كانت الأحوال قد عكست، التجربات هنا أكثر مرا من سوريا وهذا يقول: " ها أنذا جالس فوق خيبتي تحت الحائط الصفيحي الصدئ لمكتب الجبهة الديمقراطية في جبل الحسين، لم يبق معي من شلتنا سوى نعيم ملفوفا بقلقه مثل بقحة لاجئين لم يرض عنها صاحبها، لقد مضى أكثر من شهر على إبعادنا إلى مطار دمشق، وانتقالنا إلى عمان في اليوم نفسه بعد هبوط المساء، وها نحن نحصد خسارتنا، ونلم خيبات السنين، تلقينا دورة تدريب عسكرية في مخيم سوف ، وجئنا إلى عمان لكي تعيدنا إلى دمشق لعلنا نستطيع إكمال دراستنا الجامعية فيها، فلم نخرج من رحلة بحثنا سوى بكلمات غاضبة محت لدينا تعب السنين، كأننا جئنا من عدم وذاهبون إلى عدم، عدم يجر عدما " .[354]

يناقش الكاتب عن الوقائع في المنفى وعن التجربات الشاقة التي لن يستطع أن يسيل الدموع بسبب ضعفه، وهذه التجربات ليس كالسجن ولكن يشبه بالجهنم، يكاد الكاتب أن يقتل بعض الأحيان ولكن يخلص منه، يقول الكاتب: " قررنا نعيم وأنا، تسليم أنفسنا للجيش الأردني، الخروج من جحرنا في فرن أبي محمد، نعيم وأنا جسدانن حيان، كيانان لكن لا نقوى على الانتفاض ، صرنا بندقيتين بلا ذخيرة، في الخارج كان المخيم صمتا وبقايا بيوت، هنا الوادي الصغير ، هنا لا تجري سوى الدموع، هنا لا واد ولا مقاتلون ، شعرت بوحدتي، كأن نعيم ليس بجانبي، كأن نعيم مثلي وحيدا في، وأنا وحيد فيه، واحد في واحدين بلغنا زاوية البيت المجاور للفرن، أول مرة نتمنى عودة من خفنا أن يقبض علينا ويقتلنا، ويلقي بجثتينا في جورة الفرن، كأننا نبتة غريبة ظهرت مثل عش الغراب، الآن نحن الغراب نفسه لا العش، غرابان أسودان لن يرغب أحد في رؤيتهما، المخيم لا يموت "[355]، يسمع الكاتب من المخيم أصوات من شاب وسيدتان عجوزتان،

[354] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 245.
[355] المصدر نفسه، ص 282 – 284.

تقولان " ويلي على شبابكم " وين رايحين، يا أولادي، يا حبة عيني، وين رايحين ؟ إذ شافوكم رح اطخوكم، يا حسرتي على شبابكم، وعلى أهاليكم، صوتها أفزعني، أدخل الرعب إلى قلبي، في نبرة صوتها بحة صوت أمي، أمي ترقبني من بيتها في مخيم خان يونس، تنظر في مرآتها تراني، تستقط الأخبار من الرديو، تسمع صوتي يصرخ مستغيثا، قلبها يقفز، فجأة يقفز، يحس بشيء ما غامض فيقفز، قلب الأم دليلها، " يمه والله لو رحت اخر الدينا لا حس فيك، وإن صابك إشي، لا سمع الله، قلبي بينكزع طول " أمي ليست بعيدة، أمي هنا في صوت هذه المرأة: ويلي على شبابكم ! " .[356]

هنا يتذكر الكاتب عن أحوال أمه ويفزع من أجلها وغربتها ويحس إحساس المنفى في المنفى ويفكر أن شبابه يشبه كما قالت العجوزتان، وهذه الفترة من الشباب قد فاتت وضاعت في المنفى، ولن يستطع أن يعيد من المنفى ويحزن على ذلك ويحب أن يسمع صوت أمه ويعيش معها.

المخيم يخلق شعور المنفى وإنها بني لأجل للاجئين ولذا يحس فيه إحساس المنفى ليس عجيبا ولكن هي عادة وكذلك يحس الكاتب شعور الغربة في المخيم، أن المخيم من نتائج الحرب والمنفيين من ثمرات الحرب ، والكاتب في المنفى ويصير من المنفى إلى المنفى يعني وهو يلجأ إلى المخيم بسبب الحرب، ويقول: " الأكل والشاي صارا مثل العيش والملح، لا يجرؤ الناس على خيانتهما، كأنهما ميثاق شرف بين الجميع، كتب برائحة النعناع ، قبل أربع وعشرين ساعة فقط، لم أجدني غريبا، الآن عدت غريبا مثل أول يم دخلت فيه المخيم، حين استقبلني أبو محمود برفقة نعيم، وقدم لنا الفرن ملجأ ومنامة، الآن صرت عبئا على المخيم، صرت شحاذا، الحرب علمتني شحدة الرغيف " .[357]

يندم الكاتب في المنفى عن الأيام التي مضت في الخسران والحزن وينبه أن الماضي قد مات ولذا ليس هناك حاجة لتفكير عن خسران الماضي ويشبه الماضي بالموت ويشكو أن الحاضر يكاد يموت، الغضب بسبب

[356] المصدر نفسه، ص 284.

[357] المصدر نفسه، ص 286.

خسران الحاضر يصعب علينا وقوله: " حاضرنا يموت، وسوف يصبح ماضيا يثير الحسرة حينا، والغضب حينا آخر، مضينا يموت، والضرب في الميت حرام، ولا تجوز عليه سوى الرحمة الرحمة على مضينا في المخيم "[358]. يحزن الكاتب أيضا من المنفى ويذوق طعم الغربة ويكون منفيا في المنفى ويقول" تركت بلدي بعد أن فقدت عائلتي كل شيء تقريبا، ولا أنوي العودة إليها ثانية، وقد مضى على وجودي هنا أكثر من أربعة شهور، وأجدني غريبا ضائعا في لندن، وأود ان أسألك عن ما يجري بين الفلسطينيين والإسرائيليين.. هل تخبرني ما الذي يجري هناك؟ "[359]

حياة الكاتب في المنفى في بلد واحد فقط ولكن إنه عاش كالمنفي في بلاد مختلفة وذاق طعم المرارة، يريد الكاتب أن يناقش هذه التجربات المؤلمة للقرآء خلال سرديات الرواية، ويؤمن الحياة في المنفى كالهزيمة ويؤمن أنه من ضحايا واللعبة للحكومة التي يعيش الكاتب فيها، ولن يستطع للكاتب أن يعيش في المنفى، وهذا يدل على ما يقول حين يكون في عمان " أمضيت شهورا أحاور المتحاورين نهار، ضمن موجات حوار لا يستحق الحوار، يتواصل بمعنى وبلا معنى، وعند منتصف الليل، وأحيانا بعده بقليل، أذهب إلى سريري الذي ليس لي، لحواري، إلى حورارى الآخر أذهب، فأجدني وحيدا مع ذبلة خطوبة وصورتين[360] ". يتجرب الكاتب طعم في الفراق حين بلغ سنه في الثالثة وحتى الآن، قد يحاول الكاتب العودة من المنفى ولكن لن يستطع أن يحقق أحلامه، ولذا يحمل الكاتب أثقال شعور ألم المنفى في المنفى، الشعر يعطي له الراحة من شدة حزن فراقه من الأهل والوطن والأصدقاء، ويغني حين يشتد حزنه ويجيئ في قلبه ذكريات الوطن والأهل والأصدقاء.

وهكذا يغني الكاتب عن المنفى في المنفى ويقول:

---

[358] المصدر نفسه، ص 292.

[359] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص، 209.

[360] المصدر نفسه، ص 312.

" في الصباح أستيقظ، أوقظ زوجتي من تحت المخدة:

صباح الخير يا مشمشتي

صباح الغربة التي تلد غربتها في الغربة

فراقا يمتد في زمن المسافات

من مدن الولادة الأولى إلى مدن الفراق

يذيب ملامحنا القديمة

نكبر غرباء

غرباء نكبر

نكبر

في مواسم الفراق " .[361]

يندم الكاتب عن خسرانه في المنفى، وأن المنفى يعطي له الخسران وألم الفراق، الحزن والجرحات المؤلمة، وهذه كلها سلبيات وليس فيها شيء يسر الكاتب، ولذا يعبر شعوره المحزونة خلال سرديات الرواية ويقول: " جاء وأنا مهزوم في الحب، مهزوم في المال، مهزوم في السياسة، مهزوم في الحرب، من قلبي خرجت عمان التي أردناها هانوي فطردتنا، جاء خليل وحاضري مهزوم في الماضي، ومستقبلي مهزوم في الحاضر " [362]. ينشد الكاتب من المنفى من ألم المنفى ويدعى المنفى يلد المنفى، ثمرة المنفى هي الغربة، ويقول: " صباح الخير يا أختي

[361] المصدر نفسه، ص 312 – 313.

[362] المصدر نفسه، ص 314.

صباح الغربة التي تلد غربتها في الغربة غربة

تلد الغربة منفى

يصير المنفى فراق

يكبر

ونكبر في دهاليز الفراق " .[363]

[363] المصدر نفسه، ص 318.

الفصل الخامس: أنواع المنفى في روايات ربعي المدهون

هناك العديد من أنواع المنفى التي يمكن تصنيفها استنادا إلى مختلف العوامل والأساليب، يستعرض الكاتب أنماطا مختلفة من المنفى التي تنشأ نتيجة لأسباب سياسية، اجتماعية، أو غيرها، وعندما يعود الكاتب إلى وطنه يشعر بأنواع مختلفة من المنفى، بما في ذلك المنفى المكاني، والمنفى الجسدي، والمنفى الروحي، والمنفى السياسي، والمنفى الاجتماعي، والمنفى الثقافي والحضاري.

المبحث الأول: المنفى المكاني

إن المنفى ليس مكانا غريبا، فحسب وإنما هو مكان يتعذر فيه ممارسة الانتماء، لأنه طارئ ومخرب ومفتقر إلى العمق، "وهو مكان يضمر دوما بالنسبة للمنفى قوة طاردة، تجعله يعيش حالة انفصام معه ويخفف في مد علاقة تواصل مع المكان الجديد مما ينطوي على ذات ممزقة، لا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم "[364]. منفى الكاتب مكاني بقدر ما هو روحي وشعوري وعاطفي، يعيش فيه بانتظار تبدده ، ويسعى للتغلب عليه، ويلجأ إلى الأدب لفك خيوطها الجذابة، والتمتع ببعض الانتماء. المنفى المكاني هو حالة ينتقل فيها الفرد أو المجموعة إلى مكان آخر يختلف تماما عن موقعهم الأصلي أو مكان إقامتهم السابق، ويسبب بعض الأشياء ليكون المكان المنفى مثل تغيير المكاني: يتعين على الشخص أو المجموعة ترك مكان إقامتهم السابق والانتقال إلى مكان جديد والانفصال عن المحيط الاجتماعي: يفقد المرأ الاتصال المباشر مع الأصدقاء والعائلة والمجتمع الذين اعتادوا عليه، والشعور بالغربة: قد يعاني الفرد من شعور بالغربة وعدم الانتماء إلى المكان الجديد.

يسرد الكاتب عن المنفى المكاني، وهذا الشعور ينشأ من العزلة والوحدة والغربة النفسية، ولما احتل اليهود الفلسطين تفرق شعب الفلسطين في أنحاء العالم وأصيب سكان الفلسطين من الخسران المختلف مثل الأزمة الاقتصادية والمالية والنفسية والروحية، الهجرة القسرية جعلت الفلسطين الوطن الذي خاليا

[364] عبد الله ابراهيم: الرواية العراقية الجديدة، المنفى، الهوية و اليوتوبيا، كتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتي، 2009م، ط1، ص 62.

من ثروته وضياعا من تراثه، وكان الكاتب من المهاجرين من وطنه وترك عائلته وهاجر إلى المنفى، وهجرته تكون عائلته منفردين ويشعرون شعور المنفى في داخل الوطن وبيته الذي يحس فيه الكاتب شعور المنفى المكاني ويقول: " كان بيت أو وليد وما يزال، هو كل ما تبقي لها من دنيا توشك على طي زمانها، لا زوج ولا أبناء حولها أو بنات، بيتها هو الكيان الوحيد الذي يقيم معها، تعشقه وتمارس غيرتها عليه، تحاوره كما انفردا وحيدين، تمدد أصابعها إلى أقرب حيطانه وتتلمس فيها ملامح شخص عزيز تستلقي على ظهرها في صاصة الجلوس الصغيرة، أحيانا ، وتتجول بعينيها على السقف المتعرج المصنع من ألواح الاسبست السميكة " .[365]

المبحث الثاني: المنفى السياسي

المنفى السياسي يحدث عندما يتعين على الأفراد مغادرة بلدهم بسبب الاضطهاد السياسي أو تهديدات لسلامتهم أو معارضتهم للحكومة، غالبا ما يبحثون عن مأوى في بلدان أخرى، المنفى السياسي هو نتيجة طابعة من عقاب سياسي، يكون المنفى السياسي بعد الحرب أو بعد الاحتلال أحيانا،المنفى السياسي هو شعور الشخص بالغربة ازاء السياسة والحكومة في مجتمعه ، وشعور الفرد بعدم الرضا والاطمئنان للقيادة السياسية والانفصال عنها، وعدم الاهتمام بما يصدر منها من توجيهات سياسية تخص المجتمع أو النظام السياسي".[366]

ومنها منفى الكاتب الذي هاجر من وطنه قسريا بسبب احتلال اليهود الذين احتلوا أرض الفلسطين بعد النكبة التي وقعت عام 1948م. "المنفى السياسي هو عملية ترك الشخص أو المجموعة المعارضة للسلطة السياسية في بلدهم والانتقال إلى بلد آخر بسبب التهديدات السياسية أو القمع أو الاضطهاد الذي

[365] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010 م، ط3، ص 10.

[366]صادق الاسود ،علم الاجتماع السياسي اسسه وابعاده، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل العراق، 1990م،ص .595

يواجهونه في بلدهم، يكون المنفى السياسي نتيجة لتعبير الأفراد عن آرائهم ومعارضتهم للنظام الحاكم، ويمكن أن يؤدي إلى فقدان الحقوق والحريات الأساسية للأفراد والتعرض للعنف والاضطهاد ".[367]

يقول الكاتب: " طردتني الإسكندرية لكلمتين في السياسة لم يتحملهما عبد الناصر، طردتني، حرقت عمري الدراسي كله، ورمتني في دمشق بلا شهادة ابتدائية، كلمتان في السياسة خربتا بيتي " لا لمشروع رزجرز ".[368]

يؤمن الكاتب أن السياسية التي فارقت بينه وبين أهله ورغباته، يعني الكاتب بسياسة الاحتلال اليهودي على الفلسطين، ومن نتيجة الاحتلال الهجرات والمخيمات والمنفى والشتات ، كلها خلقت من أجل الاحتلال السياسي ، وكان الكاتب من ضحايا الاحتلال السياسي من الإسرائيل، ولذا أضاع هذا الاحتلال كل ما لديه وصار من المنفيين، ويتهم الكاتب الاحتلال جعله من المنفي السياسي وسبب لخسران الحياة وأطعم طعم الفراق ويقول: " شقيقتي التي علمتني ألعاب الطفولة، كبرت معي وكبرت معها، ولم يفصل بيننا الجدار الذي فصل بين بيتنا، فصلت بيننا مسارات الحياة، مزق روابطنا الاحتلال الإسرائيلي، تغيرنا، ولم نعد نحن، محت الغربة ملامحنا الأصلية " .[369]

المبحث الثالث: المنفى الذاتي (نفسي)

المنفى النفسي هو حالة تتعلق بالفرد الذي يجد نفسه في مكان بعيد عن مكانه الأصلي أو مكان إقامته المعتاد، يتكون المنفى الجسدي لعدة أسباب، منها: الهجرة يمكن أن يكون المنفى الجسدي ناتجا عن هجرة الفرد أو الأسرة من بلدهم الأصلي إلى بلد آخر بحثا عن فرص اقتصادية أو سبب سياسي أو اجتماعي، ومنها: النزوح البيئي :يمكن أن يتعرض الأفراد للنزوح الجسدي بسبب الكوارث الطبيعية أو التغيرات البيئية المؤثرة على مكان إقامتهم، ومنها: العمل الدبلوماسي أو العسكري يمكن أن يثم نقل الأفراد إلى بلدان أخرى

[367] ذكي بوت، ماذا يعني الاغتراب السياسي 2/2/2021، https://www. ejaba. com/.

[368] المصدر نفسه، ص 309.

[369] المصدر نفسه، ص 318.

بناء على مهام دبلوماسي أو عسكري، مما يجعلهم يعيشون بعيدا عن موقعهم الأصلي. المنفى الجسدي يمكن أن يكون تحديا كبيرا للأفراد، حيث يتعين عليهم التكيف مع بيئة جديدة وتغييرات كبيرة في حياتهم اليومية، يمكن أن يتضمن ذلك التعامل مع لغة وثقافة جديدة، والبحث عن سكن ووظيفة جديدة، وبناء علاقات اجتماعية جديدة، والتغلب على الإجهاد النفسي عن التغييرات. " المنفى النفسي يتأثر في نفوس الإنسان ويصيب إلى تهيلك أحوال النفس وتغير أحوالها من الحسنة إلى السيئة يقول أسماء منصور: فهو مفهوم شامل وعام لكل الحالات التي يتعرض فيها الشخص إلى الانشطار أو الانهيار والضعف وذلك بتأثير من العوامل الاجتماعية والثقافية في المجتمع المحيط بالفرد" .[370]

المسافات بين الأجساد تخلق المنفى وتتكرر شعور الغربة في نفوس الإنسان، وهنا يكون الكاتب في المنفى ويقطع علاقة الجسد بين أهله، ولذا يتكون شعور الغربة في نفس الكاتب تدريجيا، ليس في نفس الكاتب فقط بل يكون هذا الشعور في أهله أيضا، وينقطع إرسال الرسالات عبر البريد بسبب إجراءات اليهود، ويشرح الكاتب عن شعور المنفى الجسدي حين انقطعت علاقته مع عائلته " مضت الأيام والشهور والسنين، وأهلي وأنا في قطيعة، المسافات بيننا تتزايد، والفراق شبح لا نهاية له، ونحن لم نعد نحن، نذوب تدريجيا في المسافات، تمحو الغربة ملامحنا الأصلية، أضاعتني أديبة (شقيقته) في المسافات، وأضعتها في البريد، ضاعت من حبيبتي الإسكندرانية في الحقيقة ومعها ضاعت إسكندرية عمري، عمري الذي وزعته على شوارعها وترمایاتها ومحطاتها وجامعاتها وبيوتها ونسائها ومومستها وعذاراها وشواطئها "[371].

ويشرح " في شقة العازب الأخير، تمضي أم وليد وحيدة، تقلب الساعات وتتقلب معها، قبيل منتصف الليل، استوقف صوتها عماد عند عتبة الباب، وكان آخر الساهرين: " ابو نسرين.. أمانة الله لما تجيبو

[370] أسماء منصور، الاغتراب النفسي والاجتماعي،https://mqall. org 5/5/2021.

[371] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 308 – 309.

وليد بكره الصبح من معبر ايريز اتدشرونا لحالنا شوية... قلبي مليان حسرة على غيابه،.. وبدي أغسل قلبي يا ابني م الوجع.. أخليه يوج ويضوي زي ثيابه اللي غسلت له اياها آخر يوم قبل السفر" .[372]

يشارك الكاتب شعور المنفى النفسي الذي يحس في باله حين علم موت أهله ويحزن بعدم وجوده عند وفاة أهله، لأنه في المنفى، وليس ممكن له الحضور في وإجراءات الجنازة، ويتألم باحساس المنفى الجسدي والروحي، يمكن أن يعرف هذه الأخبار عبر الهاتف، ولكن الهاتف ليس كافية لطمأنية نفسه، لأنه يشعر ألم المنفى الجسدي والروحي معا ، ويقول الكاتب هذه في روايته: " الآن، وقد جلسنا ثلاثتنا على مقعد في حديقة زكي الأرسوزي، قال لي خليل كلاما كثيرا له علاقة بالماضي الذي حضر، وبالحاضر الحاضر، وبالمستقبل الذي لم يحضر بعد، كلاما أصعب من الكلام مع أنه يشبهه، تبكي كلما أتى أحد على سيرتي، أو سيرة أخي، ولم تتحقق أمينة عمتي، فقد ماتت في أوائل التسعينات، رحلت دون أن تراني أو ترى أخي، قبلها رحل جدي، قال لعمتي قبل وفاته بأيام: " نفسي يا حاجة أشوف ولاد ابني "، وقبل أن يفارق الحياة أعاد إحياء أمينة في لحظة انتهت، ومات وصورتانا أخي وأنا في عينية، أغلقهما بصمت على صورتينا، فراحتا بعيدا، بعيدا، كأنهما قطعة من روحه، بعده رحل عمي اعليم ، مثله عبر الهاتف رحل، كلهم يموتون عبر هواتف الغربة، لا نراهم ولا نسمع أصواتهم، يأتينا موتهم في نعي، في صوت قريب، أو صديق ينقله عبر الهاتف، مات عمي مثل غيره عبر الهاتف، وماتت عمتي قبله عبر الهاتف يا إلهي كم من أجزائها فقدت أرواحنا في الغربة " .[373]

مصطلح "المنفى الذاتي "هو مفهوم أدبي وفلسفي يستخدم للإشارة إلى حالة نفسية تعيشها الشخصية تماما كما لو أنها نفيت من وطنها الروحي أو غابت عنها جوهريا،" وهو الحالة التي تصبح فيها الشخصية غير مركة لما تشعر به، كما يتضمن انعدام الصلة بين الفرد وذاته"[374]. يتعلق هذا المفهوم بالشعور بفقدان الذاتي والاغتراب الداخلي، المنفى الروحي يكون ناتجا عن تجارب حياة صعبة أو أحداث مؤلمة قد تؤدي

[372] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010م، ط3، ص 11 .12-

[373] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2010 م، ط1، ص 302 – 304.

[374]نورة القحطاني، تجليات الاغتراب في قصص عبد الله باخشوين، مجلة الثقافية،الجزائر،العدد .281

إلى فقدان الاتصال بالذات والشعور بالانعزال والخروج من العالم الداخلي الذي يشعر الفرد بأنه جزء منه، يمكن أن يظهر المنفى الروحي كحالة نفسية مؤقتة أو دائمة، يمكن أن يتم التعبير عن المنفى الروحي في الأدب والفنون بشكل مختلف، حيث يمكن أن يكون موضوعا مركزيا في الروايات أو الأشعار أو الأعمال الفنية، يستخدم هذا المفهوم لاستكشاف أفكار حول الهوية والفقدان والبحث عن الذات. "المنفى لا يعني أن نذهب بعيدا، بل يعني أن نكون بعيدا حتى حينما نكون بالقرب، والطن لا يعني أن نكون داخل حدود تربنا الجغرافي إنما أن يكون هذا التراب داخل حدودنا النفسية، هذا الفرق بين المنفيين جسدا والمنفيين روحا، بين هؤلاء الذين ابتعدوا بارادة مادية يمكن التخلص منها بإرادة مادية أخرى، وبين هؤلاء المنفيين روحا الذين ابتعد عنهم انتماؤهم الداخلي بارادة خفية لا سلطة عليها ولا أمل من التخلص منها لأنها مثل مس الجن، لا مرئية و مستفحلة في المسامات"[375] .

قد يتكرر الإحساس عن الغربة في نفوس الأشخاص وإن كانوا في داخل وطنهم، وهذا الإحساس يعني المنفى الروحي الذي هو يرتبط مع الروح، وقد وردت عدة من الأمثال التي توضح عن شعور الغربة الروحية كما قال في رواية مصائر " أدمن الكلام عن استحالة البقاء في البلاد صار يتذكر منافيه ويحن إليها، كأنه لم يتعب من هجرته الأمريكية التي حرره عشق جنين منها وأعاده إلى الوطن " [376]، هنا قد وصل باسم في فلسطين أي إنه عاد من المنفى إلى وطنه ، ولكن لما وصل إلى وطنه يشعر ويحس الغربة الروحية.

" تنتابني حيرة وتسكنني للحظات مشاعر متناقضة، أفكر في غربته الطويلة فيقشعر بدني، أموت لو فارقت أمي وأبي لشهرين، أنا لا أقوى على الانفصال عن والدي حتى للإقامة في مدينة أخرى، لا تبعد سوى كيلومترات " .[377]

[375] حنين عمر، بين منفى الجسد ومنفى الروح، 5/5/2021، https://www. ahewar. org.

[376] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 105.

[377] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010 م، ط3، ص 112.

يظهر الكاتب مشاعر الغربة التي يعاني في قلبه يعنى المنفى الروحي حين ماتت إيفانا ويغني بطلب الراحة من المنفى الطويل ويرجو العودة من المنفى واللجوء إلى وطنه الذي فقد من طفولته.

ويقول:

" هدّي يا بحر هدّي

طوّلنا في غيبتنا

ودّ سلامي ودّي

على الأرض اللي ربّتنا " .[378]

"أشعر بي غريبة عني، وبكلامه يأخذني مسافات أبعد مما تحتمل مشاعري، أقترح الخروج من مشاهد التغريب التي أحاطت بي، ومن اعتبار وليد لي شخصية في روايته التي يكتبها وظلا لبطلتها آرنه كتساف" .[379]

المبحث الرابع: المنفى الاجتماعي

المنفى الاجتماعي هو الحالة يعيشها فرد أو مجموعة من الأفراد عندما يجدون أنفسهم معزولين أو مستبعدين اجتماعيا عن مجتمعهم أو مجموعتهم الاجتماعية الأصلية. وهو شعور الفرد بافتقاد العلاقات ذات المعنى مع الآخرين والاحساس بالتعاسة بسبب هذا الافتقاد، أسباب متعددة ومتنوعة تخلق المنفى الاجتماعي، منها العزلة الاجتماعية هي عندما يعيش الشخص بمفرده دون علاقات اجتماعية قوية أو دعم اجتماعي من الأصدقاء أو الأهل بسبب انعزال طوعي أو نتيجة لظروف قاسية مثل مرض نفسي أو جسدي، ومنها التمييز والتهميش يعني يتعرض الأفراد للتميز أو التهميش على أساس عوامل مثل العرق أو الدين، أو الجنس أو الجنسية، مما يجعلهم يشعرون بأنهم غير مقبولين أو مستبعدين من المجتمع، ومنها الهجرة

[378] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 14.

[379] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010 م، ط3، ص 114.

واللجوء، ويقع حين يضطر الأفراد إلى مغادرة بلدهم بسبب الصراعات والحروب أو الظروف الاقتصادية، ويلجأون إلى بلد جديد دون دعم اجتماعي أو اندماج في المجتمع الجديد، ومنها العزوف الاجتماعي أي يختار الشخص عزل نفسه عن المجتمع طوعا نتيجة اختياراته الشخصية أو عوامل أخرى مثل القلق الاجتماعي الاكتئاب، المنفى الاجتماعي يمكن أن يؤثر بشكل كبير على صحة الفرد وعلاقته مع المجتمع، ويمكن أن يشمل تأثيره الاجتماعي نقص الدعم الاجتماعي وزيادة مستويات الوحدة، وانخفاض التكامل الاجتماعي.

يشعر الفرد بالعزلة والغربة عن المجتمع والبيئة التي يعيش فيها لأسباب مختلفة، ويحس أنه ليس منهم " المنفى الاجتماعي الذي يعني إحساس الفرد بعزلته عن المجتمع والبيئة التي يعيش فيها لأسباب يراها هو وليس غيره من أبناء المجتمع الذي هو جزء منه " [380]. النكبة التي وقعت 1948م قد سببت لشعب الفلسطين إلى هجرة قسري من الفلسطين، وكان الكاتب ممن هاجروا من الوطن، ويحاول مستمرا للعودة إلى الوطن ولن يستطيع، ولكن يحصل له فرصة لزيارة وطنه، ولما وصل إلى وطنه يشعر الغربة ويحس بالعزلة عن المجتمع الذي عاش فيه الكاتب ويتجرب المنفى الاجتماعي، ويذكر الكاتب هذا المنفى الاجتماعي حين وصل من لندن إلى وطنه لزيارة، ويتعرف هناك فاطمة وترحب فاطمة بترحيب حار وتقبل على وجنتيه وتهمس في أذنه " بوسه من بنت بلدك بتحبسك في عكا العمر كله "، ويدهش ويقارن عكا بسجن أي المنفى في داخل الوطن " بدك تحبسني في سجن عكا القديم ؟ "، وهنا يتذكر عن الهجرة القسري يقول " أغلب أزلام عكا رحلوا عن المدينة سنة الثمانية وأربعين، واتغربو وما نفعهم كل البوس اللي باسوه، ولا حتى حفلات الجنس الهستيرية التي سبقت الرحيل " .[381]

يضرب الكاتب المثال للمنفي الفلسطيني لكلمات خطبة الزواج، يشير هذا المنفى بالمنفى الاجتماعي يعني الهجرة والنفي يمنع لعلاقاة المجتمع الفلسطيني بينهم، ولن يستطع أن يعيد إلى وطنهم، وهم ممنوعون،

[380] المنفى المكاني واللغة الضائعة، 2021 /5/2 .https://alrai. com

[381] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 17.

وهذا مثّل الكاتب " من لحمك تصنع لك فراشا لا يرتاح عليه غريب، ولا تنامان، لأن الرب جعل بينكما منفى، مثل الفلسطينيين ، من أبناء قومكما ولا تلتقيان، لأن المنفى يكون " [382]. ويقول الكاتب: " كلما هاجر يهودي ما من بلد ما إلى إسرائيل، انتقل فلسطيني ، ربما عشرة إلى مهجر جديد، وتزداد كلماته قسوة حين يقول: " تسقط مهاجركم لتبدأ منفينا " .[383]

المبحث الخامس: المنفى الثقافي والحضاري

المنفى الثقافي والحضاري هو مصطلح يستخدم لوصف حالة تأثر ونقل العناصر الثقافية والحضارية من مجتمع أو ثقافة إلى آخر بسبب عوامل مختلفة مثل الهجرة، الاستعمار، التبادل الثقافي، أو التأثير الثقافي العالمي، يمكن أن يكون هذا التأثير إيجابيا أو سلبيا، ويمكن أن يشمل مجموعة متنوعة من العناصر الثقافيةمثل، اللغة، والأدب، والفنون، والعادات، والتقاليد، والديانات، والملابس، والمأكولات، والتكنولوجيا، والفلسفة، وعناصر أخرى.

يمكن أن يكون المنفى الثقافي والحضاري سببا في ترسيخ تبادل الثقافات وإثراء التنوع الثقافي، مما يسهم في إثراء الثقافات المشاركة، على الجانب الآخر، قد يؤدي المنفى إلى فقدان الهوية الثقافية للمجتمع المنفى وتهديد الحفاظ على عناصره الثقافية الأصلية، تاريخيا، تمتلك العديد من الثقافات والحضارات خلفيات منفى ثقافي، مثل الهجرة الكبيرة للشعوب والثقافات في مختلف أنحاء العالم، يعتبر المنفى جزءا مهما من تطور البشرية وتشكليل التاريخ والتفاعل الثقافي.

"الثقافة والحضارة من تراث الوطن مفهوم الثقافة بالمعنى المطلق عند العرب، وكما وردت في المعاجم، جاءت من اللفظ (ثقف)، ويطلق على الفهم والإدراك والحذق فعند القول غلام ثقف تعني أنه ذو ذكاء، أما بعد إضافة كلمة للثقافة، تعني التراث الحضاري والفكري للأمة من كافة الجوانب العملية والنظرية

[382]المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010 م، ط1، ص 299.
[383]المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010 م، ط3، ص 112.

التي تميز تلك الأمة حيث يشكل هذا التراث ثقافة الأمة بطريقة مترابطة ومتداخلة يحكم الأسر والأفراد والمجتمع بشكل عام ".[384]

عرّف بعض الباحثين عن الثقافة ، هي طريقة الحياة السائدة في الأمة، بحيث يستوعب الإنسان هذه الثقافة منذ اللحظات الأولى من ولادته، ويشكل تقاليده وعاداته ، ولن ينال أي نوع من الرضا إذا تجاوز هذه الثقافة الموروثة ، حتى يتمكن من تجاوز الأمر من عدم الرضا إلى نوع من الأذى. توسّع مفهوم الحضارة عبر العصور ليصبح المعنى يشمل مدلولاً آخر، وهو التعبير عن رقي المجتمع عن المستويات البدائيّة، ويطلقون على هذا المجتمع اسم (مجتمع متحضّر)، وهذا المجتمع يعرّف على أنّه المجتمع الذي له قيمة روحيّة رفيعة، وأساليب ماديّة متطوّرة في سبيل مواجهة الحياة الطبيعيّة. يجد الكاتب حين يدخل في وطنه شعور الغربة ويفهم يكافح شعب الفلسطين من أجل البقاء والعيش وإعادة تشكيل هويتهم وثقافتهم وحضارتهم.

وقد أضاعت النكبة التي وقعت 1948 عام الثقافة والحضارة من تراث الوطن الفلسطيني، واحتلت مكانها ثقافة الاحتلال أو ثقافة أوروبي، هذه تسمى المنفى الثقافي والحضاري، الثقافة الوطن لا تكتمل إلا بثلاثة: على أرض لك ، وبين شعب لك، وفي نظام لك، ولكن للفلسطين ولديهم الأرض والشعب وأما النظام فهم عدو لهم، يحرم لهم الحرية والحقوق والعيش المطمئن ويعيش في وطنهم كالمنفيين الذين ضاعوا لهم ثقافتهم وحضارتهم. قد أضاع الاحتلال اليهودي تراث الوطن وقاموا بطمس التراث وتشويه وسرقته، واعتدت على المسجد الأقصى الذي هو أقدس تراث للعرب والمسلمين والذي قام بحفظ الثقافة والحضارة الفلسطينية، وعملت على تهويد المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين ودمرت العديد من المساجد وحولتها إلى ملاه، كما قامت بتدمير القرى الفلسطينية وغيرت أسماءها العربية إلى العبرية،

[384] غادة الحلايقة، الثقافة والحضارة 5/2/2022، https://mawdoo3. com.

وهكذا قد أضاع الاحتلال اليهودي التراث والحضارة والثقافة التي نشأت من هذا التراث، يسرد الكاتب عن شعور غربة الثقافة والحضارة حين غابت الثقافة والحضارة الفلسطينية بسبب هذا الاحتلال. يصوّر الكاتب المنفى الثقافي والحضاري خلال سردياته ويحزن بما حل في وطنه من خسران الثقافة والحضارة ويبين ذلك " أزحت ستارة النافذة الوحيدة لغرفتنا، وألقيت نظرات " حشرية " من عينين كسولتين على الخارج، فلم أجد القدس التي حملت العمر كله بزياتها أمامي جانب من طرف ضاحية في مدينة ما أوروبية زرعت في المدينة ، لم تقو على اكتساب شيء من ملامحها مجرد بنايات حديثة مبعشرة على تفاصيل المشهد، مما يمكن أن نراه في أي بلد أوروبي، كأننا لسنا في القدس كأن القدس في مكان آخر [385]"، هناك لم يجد الكاتب القدس الحقيقي الذي تقوم بمحافاظة حضارتها وثقافتها ولكن تقوم مكانها مدينة كما توجد في بلاد أوروبا.

يقول الكاتب عن التغيرات التي حدثت للقدس التي كان مملوئة من الحضارة والثقافة، ولكن الآن قد خضع لتغييرات شاملة ويؤثر في قلوب المواطنين شعور منفى الثقافة والحضارة " كانت القدس التي في ذاكرتي قد ابتعدت عني ، واستراحت في كتب المدارس التي عرّفني عليها، وقفت مثل الآخرين ، مصلوبا على دهشتي أمام الباب الكبير ، أستعد للدخول إلى قلب المدينة من بين نظرات ثلاثة جنود إسرائيليين ورقابة أسلحتهم [386]. "

[385] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 194.

[386] المصدر نفسه، ص 215.

الفصل السادس: شعور المنفى في روايات ربعي المدهون

شعور المنفى هو تجربة عاطفية ونفسية، ويحمل هذا الشعور من الأفراد الذين تم نفيهم عن مواطنهم أو مجتمعهم الأصلي، يشمل هذا الشعور مجموعة من المشاعر والأفكار التي قد تكون معقدة ومتنوعة ويشمل في هذه المشاعر الحب الخالص تجاه الوطن والشوق إلى عودة وطنهم، يشعر الكاتب بمشاعر مختلفة عن الوطن من المنفى، يكثر شعور المنفى حين يكون المنفي، وكان الكاتب قد انتظر زمنا طويلا للعودة إلى وطنه ولكن لن يستطع أن يحقق أحلامه ولكن وجد له فرصة لزيارة وطنه، الانتظار الطويل جعل الكاتب أن يذكر وطنه بتذكر ما وقع وحدث حين كان في وطنه قبل هجرته، وهنا قد يناقش عن شعور المنفى مثل العودة من المنفى، والحنين إلى الوطن، الذكريات من المنفى، والوصية من المنفى.

المبحث الأول: العودة من المنفى

العودة من المنفى هي لحظة مهمة ومعقدة في تجربة الشخص الذي عاش في المنفى، إنها تمثل نهاية فترة من الانعزال أو النزوح وبداية مرحلة جديدة من التكيف مع الوطن الأصلي أو المجتمع الذي تم نفيه منه. تتضمن عودة من المنفى العديد من التحديات والمشاعر، تختلف تجربة العودة من المنفى من شخص لآخر، ويعتمد على الظروف والسياق، إن دعم الأفراد العائدين من المنفى وتوفير بيئة داعمة ومفهومة يمكن أن يساعد في تسهيل عملية التكيف والعودة إلى الوطن الأصلي بنجاح. وهنا الكاتب يرجو العودة من المنفى ولكن الظروف التي لن تسمحه لإقامته المستمرة في وطنه، ولكن يحقق أحلامه أي عودته من المنفى بعد زمن طويل.

ويتجلى هذا الشعور في الرواية: " غدا صباحا يصل وليد دهمان إلى قطاع غزة، لا تصدق أمه الخبر تعتبره إشاعة، خرافة، مثل عودة الفلسطينين إلى بلادهم ، ثمانية وثلاثون عاما وهي تسأل وتكرر السؤال، تنصت لهمس الريح يوشوشها صدى السؤال، تعلم حيبتها وتطويها مع الفراش وفي المساء، تنام مع الخيبة وتستيقظ صباحا على السؤال، وحين هاتفها وليد وكادت تسمع صوته في لندن: " إني جاي ع غزة يمه...

راجع ع لبلاد "، لم تصدقه ، وهذت محمومة ترتعش بالمفاجأة: " وايش بدو يجيبك بعدها لغيبة الطويلة يمه ؟؛[387] "، ويتكرر بيان عودته: " أتخذ مكاني على المقعد B في الصف رقم 19، في طائرة الخطوط الجوية البريطانية، في الرحلة رقم 153 إلى مطار تل أبيب ، من المتوقع أن تهبط الطائرة في السابعة صباحا بالتوقيت المحلي ، لم يعد يشغلني قلق أمي وشكها في حقيقة عودتي، فكلاهما بدأ يتحول إلى انتظار تذوب ساعاته في الليل الآخذ في الابتعاد في ليله، ولا بد أنها تستسلم، الآن، لنوم متقلب مثل مشاعرها " [388]"، وكان عودته بعد ثمانية وثلاثين عاما يذكر هنا الكاتب، "تخرج جارتي من المرآة، وتستدير على نحو مفاجئ ، وتسألني بصوت راعش بالقلق: هل تزور غزة كثيرا ؟، بل هي زيارتي الأولى لها منذ ثمانية وثلاثين عاما، في الواقع لم أر أمي وأقاربي منذ ذلك الحين، تنتفض في مقعدها: إلوهي.. ثمانية وثلاثين عاما، ! حقا، سيكون ذلك مثيرا جدا... قد لا يبدو عليك ذلك ولكنك مجنون.. أنا آسفة... أنت فعلا مجنون، الاحتلال هو المجنون يا سيدتي " [389]، " تقصد هذا اللقاء: كاتب فلسطيني عائد إلى بلاده بعد ثمانية وثلاثين عاما ، يلتقي ممثلة إسرائيلية على متن طائرة متوجهة إلى إسرائيل " [390]يرجو الكاتب العودة من المنفى في أحيان شتى خلال سرديات في الرواية وتوضح ذلك كلماته في الرواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة " يقول: " اسمع مني ومن مرتك يا عزيزي وبيع بيتكم ما رح تخسرو غير هجرتكم وغربتكم هلبلاد ما في منها يا عزيزي لا في الدنيا ولا في الآخرة " [391]، هنا يشعر الكاتب العودة من المنفى وأن يبيع بيته في المنفى واللجوء إلى وطنه، ولكن هذه هي أحلام فقط كمثل المنفيين.

يستعد الكاتب الفلسطينيين للعودة من المنفى إلى الوطن ويشير على ذلك حادثات وقعت في رواياته إلى هذا الشعور، حيث ويقول: قلت له ذات مرة " خلينا نتعلم من لمعلم – وكنا مثل كثيرين في البلاد، نصف إميل افضل – مات مطمئنا إلى بقائه في حيفا زين قبره بوصيته (باق في حيفا) صارت الوصية منارة للتائهين،

[387]المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 32.

[388] المصدر نفسه، ص 49.

[389] المصدر نفسه، ص 94.

[390] المصدر نفسه، ص 114.

[391] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015م، ط1، ص 66.

ممن لم يتحملوا أعباء البقاء فيها طويلا، وللراغبين في العودة إليها من أجل البقاء " [392]. يقول الكاتب عن الفتاة المسمى " هنية " وهي من ضحايا النكبة، واضطرت الهجرة القسري من المجدل، ولكن وهي تقرر العودة من المنفى وأن تعود إلى المجدل، النساء الآتي ينصحن أن لا تعود ولكن رفضت، يقدم الكاتب هذه المرأة الشجاعة التي تحب الوطن وتستعد الموت لأجل الوطن " هنية امرأة شابة تماما، أصرت على العودة إلى المجدل بعد الهجرة بأيام، قيل لها: " انت مجنونة يا ولية، تروحي ع المجدل، ردت: " طبعا رح أروح، والله لو مسكوني اليهود وقطعوني ما بستغني عنه، رح أجيبه يعني رح أجيبه " .[393]

المبحث الثاني: الحنين إلى الوطن

الحنين إلى الوطن هو شعور عميق ومكثف يشعر به الأفراد عندما يكونون بعيدا عن وطنهم أو مكان إقامتهم الأصلي، إنها مشاعر شديدة العرق والشوق إلى المكان الذي نشأوا فيه والذي يحمل لهم ذكريات وروابط عائلة وثقافية، يتضمن الحنين إلى الوطن العديد من الجوانب مثل الشوق للأماكن والمناظر الطبيعة، يشتاق الأفراد إلى رؤية المناظر الطبيعية والأماكن التي كانوا يزورونها بانتماء إلى وطنهم سواء كانت الشوارع الضيقة أو الجميلة ومنها الرغبة في لقاء الأهل والأصدقاء ومنها الثقافة والتقاليد واللغة والمأكل والمشرب هذه من جزء من الحنين إلى الوطن ومنها أيضا الانتماء والهوية، يمكن المرء أن يشعر بفقدان الانتماء والهوية عندما يكونون بعيدا عن وطنهم، مما يجعلهم يشعرون بالحاجة الملحة للعودة. إن الحنين إلى الوطن يمكن أن يكون شعورًا قويًا ومؤثرًا، وقد يتغلب عليه الأفراد من خلال التواصل مع أصدقائهم وعائلاتهم بانتظام، والمحافظة على تقاليدهم وثقافتهم، وربما من خلال الزيارات المنتظرة إلى وطنهم الأصلي. الحنين إلى الوطن هو حالة نفسية تصيب الشخص الذي هاجر من وطنه وعائلته لمدة من الزمن، يشعر بالضيق النفسي والقلق والاكتئاب والعصبية والرغبة في الانعزال عن الناس والحزن الشديد والخوف من

[392] المصدر نفسه ، ص 89.

[393] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010م، ط1، ص 303.

الأماكن المغلقة والخوف من التجمعات والخوف من الأماكن المفتوحة. وقد تجلى شعور الحنين إلى الوطن في روايات الكاتب في عدة مواضع " تذكرت ما قالته لها " الست معارف " في طريقهما إلى البيت تذكرت أيضا، تعليقها على ما قالته " انت بهبو أكا كتير ست مآرف !، وتذكرت رد فاطمة الساخر على تعليقها " ومين ما بهبو أكا يا روهي ؟ !، ان شالله بنطس في عينيه الثنتين اللي بيكرهها عكا حبيبتي هي الدنيا والآخرة عكاوي بيطلع بره سور بصير غريب، وبيحلف ابغربته كمان " .[394]

يحن الكاتب اللجوء إلى وطنه، ويدل على ذلك في خطاب بين إيفانا وجولي ووليد، تعبر إيفانا رغبتها لزيارة إلى فلسطين تقول " فأضافت إيفانا وطيف من الارتياح يظلل ملامحها أتمنى أن تزورا كنيسة القيامة إن زرتما القدس، وأظنكما ستفعلان حتما صليا لي فقد يطهر ذلك روحي وإن سارت الأمور على مايرام، أقيموا والمشيعون المحتملون، حفلا صغيرا في المنزل الذي سيتقبل ما تبقي مني أحرقوا بخورا مقدسا، وانصتوا جيدا إلى فيروز ترفع زهرة المدائن إلى أعالي السماء، ولتملأ صرختها المدينة أنا متأكدة أنني سأسمعها أيضا، لأنني سأكون هناك، في السماء. " يصل وليد قرابة التاسعة، لم تعد زيارته فكرة أو مجرد احتمال، فقد ابتاع تذكرة سفر إلى تل أبيب، واختار موعدا لوصوله ينتهي به عند أمه في هذا الوقت بالذات ، كي يتناول معا طعام إفطار، قال إنها تعده منذ ثمانية وثلاثين عاما وحان موعد تناوله " .[395]

الساعة تقارب الحادية عشرة والربع ، أي الواحدة والربع بتوقيت فلسطين ، سأكون عند أمي في الصباح ، سأقول لها وأنا أستعيد طفولتي على صدرها " صدقت يمه.. هذني اجيت "، ونجلس إلى طبلية الطعام ، ثمانية وثلاثون عاما ونحن نحلم ، منفردين ، أن نجلس ونتناول فطورنا معا ". " [396]

[394] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 19.

[395] المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010 م، ط3، ص 3.

[396] المصدر نفسه، ص 49.

المبحث الثالث: الذكريات من المنفى

الذكريات من المنفى هي جزء من الحياة وملاحظة بين الحزن والسرور، إن من يطلع على ذكرياته في المنفى سيدرك بصورة جلية عن حسرات الماضي وذكريات المؤلمة التي قد تسبب لضياع نومه حتى ستبقى هذه الذكريات آخر لحظة من حياته، ومواجهة قسوة الحياة بالضحك والهمة. الذكريات من المنفيين التي يذكر المنفيون عن اللحظات والتجارب التي يحملونها معهم من وطنهم عندما يكونون في حالة من النزوح أو الانتقال إلى مكان جديد تلك الذكريات تمثل جزءا مهما من هويتهم وتاريخهم وتأثيراتهم الشخصية والثقافية.

يتذكر المنفيون ذكريات المنفى حين يوجد الوقت المناسب ولن يستطع أن يعيش بدون هذه الذكريات، وإذن يسأل الكتب ما شأن من عاش نصف قرن من المنفى، وكيف يتمسك ذكرياته في الداخل ؟ يقول الكاتب: " خانتني ذاكرتي المتعبة من ضغط السنين ، فمن يعش نصف قرن لاجئا يعرف كيف يتراكم فوق ذاكرته الأولى اللجوء فوق اللجوء فوق اللجوء، فيحمل فوق سنواته الخمسين جبلا من متاعب السنيين ، أتسلق جبل ذاكرتي مثلما أتسلق الصخور، أبحث في ثقوبها عن أسماء غيبتها السنين، وأخشى أن أجرح السنين، عن حوارات كانت تمثل الحوارات، وأخشى أن أكسر الكلمات، أن ذكرياتي دقيقة في ما يتعلق بالوقائع والأحداث والتواريخ " .[397]

الذكريات التي تتبعنا من المنفى، قد تألم أحيانا وتسر أحيانا، وهذا الاختلاط قد ازدوج الكاتب في روايتاه، حين تذكر الشخصية " إيفانا " الذكريات وتكون هذه بين الحزن والفرح، الحزن قد يسبق من السرور، يقول: " فاجأت إيفانا الجميع بقفزة خارج سياق توقعاتهم راحت تستحضر ماضيها البعيد، تسرد حكاياته وعيناها مثبتتان على مقعد الراحل جون أسمعتهم الكثير مما يعرفونه أيضا، وبعض ما لم يكونوا على علم به، وأغلقت قلبها على الكثير مما يعرفونه أيضا تحدثت عن شبابها الأول، قالت إنها كانت مراهقة حين

[397] المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010، ط1، ص 126.

أحبت الضابط الطبيب الشاب، جون ليتل هاوس، الذي منح ابنته جولي ثلثي اسمه، وأورثها لون عينيه الخضراوين "[398]، هنا تشارك شخصية إيفانا عن حبها مع الطبيب البريطاني، ولكن السعادة التي تحصل من المحبة أجلها لمدة قليل، سيأتي الحزن عقب السعادة كما وقع في حياة إيفانا، لم يستعد ولم يقبل والد إيفانا العلاقة مع الطبيب، ولذا عزما للخروج من الفلسطين، وهنا تقطع العلاقة بين إيفانا ووالدها، وهذه الذكريات المؤلمة تتذكر إيفانا من المنفى " عاش منويل حياة بائسة في مخيم جسر الباشا، انتهت قبل اندلاع الحرب الأهلية في نيسان 1975 بشهرين مات مهموما مقهورا على نفسه وعلى شقيقه انترانيك، وعلى ابنته التي رفض كل محولاتها للمصالحة ولم يرد على رسائلها التي ظلت تصله في السنوات الخمس الأولى التي أعقبت الهجرة، وكتبت إيفانا مرارا ترجوه أن يستقبل حفيدته جولي على الأقل، ويتعرف عليها، ولم تتلق منه ردا وفي 29 يونيو 1976، قتلت زوجته أليس، خلال اجتياح قوات " الكتائب اللبنانية " لمخيم جسر الباشا، الذي أجبر من تبقى من سكانه على مغادرته، سكتت إيفانا مستسلمة لموجة حزن عالية تكسرت على ملامحها أرعشت شفتاها قشعريرة حزن ارتدادية، تجادلت كفاها بتوتر تساقط من عينيها دمع كثير كأنما اختزنته في سنوات وحدتها " .[399]

" إذ توفي جون قبل زواج ابنته من وليد، وورثت إيفانا عن جون أملاكه، وبضمنها البيت الذي تقيم فيه، وسيارته المرسيدس السوداء، التي احتفظت بها، ومبلغ من المال، وصداقة باير الذي تعرفت إليه إيفانا في أحد لقاءاتها الغرامية السرية مع جون، قبل رحيلها عن فلسطين، وظل يذكرها بأجمل أيام عمرها المسروقة من زمن الانتداب البريطاني، فأبقته إلى جانبها، فيما بعد، وأوكلت إليه شؤونها المالية والقانونية ". [400]

[398] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015، ط1، ص 28.

[399] المصدر نفسه، ص 32.

[400] المصدر نفسه، ص 23.

يتذكر الكاتب عن اختلاف القضاء قياسا على حادثة في التلمود " تزحف جثة اليهودي الذي مات خارج فلسطين ، بعد دفنها تحت الأرض، إلى أن تصل إلى الأرض المقدسة وتتوحد معها ، ما شاء الله ، والفلسطيني اللاجئ ما بصلها لا حي ولا ميت لا زاحف تحت الأرض ولا ماشي ع رجليه ، ولا حتى هابط عليها م السما الفلسطيني بيزحف ع السويد والدينمارك " .[401]

يرجع الكاتب إلى الطفولة والذكريات التي قد توجد في أعماق قلبه خلال سرديات ومن هذه الذكريات تجربات في وقت التعليم في المدرسة ، ويشارك معنا عن العهود التي قد مضت في حياته وعن صديقه جميل الذي يعيش في فلسطين ولكن قد حرم له الحرية الكاملة " كنت وجميل طالبين في مدرسة لتخريج كوادر الأجزاب الشيوعية، جئنا من مكانين مختلفين ، لكي نساهم مع آخرين في إيجاد حل لبلادنا التي نحلم بأن تجمعنا ثانية ولد هو هناك في فلسطين، وبقي هناك وجاء إلى موسكو ضمن فريق تابع للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكح) يضم عددا من اليهود وولدت أنا هناك أيضا، لكني لم أبق، صرت غزاويا لم يحتفظ حتى بغواويته، هكذا تعرفت على جميل، فلسطينيا في إسرائيل، نصف مواطن في ديمقراطية لا تخصه ولا تلتفت إليه إلا في المناسبات الانتخابية، وتعرف هو علي، فلسطينيا مهجرا في بلاد الله الواسعة تزوجت أنا من سنوات، بجولي البريطانية نصف الإنجليزية ونصف الأرمنية "[402]، هكذا مضت رحلتنا طيلة أكثر من ساعة ونصف الساعة ، نستعيد خلالها ذكريات حميمة، ونراقب مشاهد كلما استوقفت أحدنا، صرخ بالروسية (بوجه موي)، إلى أن فتحت لنا حيفا ذراعيها وألقينا بأنفسنا بين أحضانها .[403]

يتذكر الكاتب عن الأيام التي قضت في المدرسة ويتذكر عن الأحداث التي وقعت في المدرسة " كنت في مدرسة الجمعية إسلام وكنت اشوف بنته ميمنة في المدرسة أنا كان عمري خمس ست سنين ومرة كانت لابسة أسود سألتها ليه لابسه أسود يا ميمنة ؟ قالت لي " قولي ياريت يموتو اليهود" قلت الها " ياريت

[401] المصدر نفسه، ص 151.

[402] المصدر نفسه، ص 186-187.

[403] المصدر نفسه، ص 193.

يموتواليهود " " قولي يا ريت يموتو لنجليز " رديت " ريت يموتتو لنجليز " كنت أعيد الحكي وراها كنت أزغيرة، وزي ما بتقول لي أقول بعدين ما ينزل من عينيها نقطة دمع كانت بنت قوية، قالت لي " عشان قتولو أبوي ".[404]

يذهب الكاتب إلى الماضي خلال زيارته ويتذكر ما وقع وحدث في الماضي " تجولنا أربعتنا، ورافقنا الماضي تجوالنا في الأزقة القديمة كأصدقاء عبر تاريخ طويل ، إلى أن وصلنا أحد معالم القدس الكبرى كنيسة القيامة توقفنا في الساحة "[405]، ثم يتذكر الكاتب عن تاريخ الكنيسة وتقليدها، فإن عائلة المسلمة يفتح أبواب الكنيسة بحفظ تقليدهم منذ تاريخ خليفة عمر رضي الله عنه الذي سلّم مفتاحه لعبد الله بن نسيبة، هكذا يتذكر الكاتب عن الماضي وذكرياته وعن تاريخ آثار الوطن حين يرى.

يتذكّر الكاتب في المنفى عن ذكريات الطفولة وعن وفاة أبيه، وكان يدرس في المدرسة الثانوية حين وفاة أبيه، وعمره أيه أربعة وثلاثين ، وتلك الأفكار تأتي إلى ذهنه خلال سفره في القطار في المنفى " غادر القطار نهائيا محطته في ضاحية ريتشموند ، بصورة طبيعية ، لولا تلك المفاجأة التي اخترقت كل هواجسي وذكرياتي ، ففي اللحظة التي خرج فيها القطار من حدود الضاحية وزاد من سرعته ، خرج أبي من ظل بعيد في الذاكرة قاطعا المسافة ، منذ وفاته حتى الآن، لكي يهبط علي في القطار ،

حثة لفت بملاءة بيضاء مثلما رأتها أمي قبل ثمانية وثلاثين عاما، في حينه قالت أنها رأت بركة صغيرة تخثر دمها عند خاصرته اليسرى، ألقيت نظرة على جثمان أبي ، فيما كانت يدي تخرج أوراق وقلما، ووجدتني أكتب دون أن أرفع عيني عن جسد أبي الذي لم يسمح لي برؤيته يوم وفاته مات أبي... أنهى أربعة وثلاثين عاما من عمره ومات " .[406]

---

[404] المصدر نفسه، ص 206.

[405] المصدر نفسه، ص 219.

[406]المدهون، ربعي، طعم الفراق ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 2010م، ط1، ص 16.

يتذكر الكاتب عن أيام الحب التي جرت خلال دراسته ويصف الكاتب عن جمالها وعن لذة لحظات بينهما وهكذا يحب الكاتب أن يطلق الذكريات المعشوقة " رأيتها هناك... تتفتح داخل بلكونة غرفة نومها مثل زهرة، التقت عيناي الزهرة، ومنذ النظرة الأولى أدركت أن كيمياء الحب سرت في جسدينا، وأن تلك اللحظة لم تفتح أربع عيون على جسدين، بل فتحت أبواب الكون كله، هتفت... هي ذي قتاتي، بحثت عنها في وهم صباي في خان يونس فلم أجدها، بنية مثل لوح شيكولاته بلجيكية، طويلة إلى حد يرتاح فيه رأسها على كتفي، ممتلئة إلى آخر حدود النحافة، عيناها واسعتان مثل فتحات فناجين القهوة ، وشفتاها تكفيان لإرواء ظمئ الدهر كله، أربكني حضورها غير المتوقع، مثلما أربكني حضوري في حضورها، لم أجد ما أقول لها، عيناها تعلقتا بي، عيناي تعلقتا بها كلها، احتويت وجودها كله ن احتوت هي عيني المثبتتين بخيوط سحرية إلى حضورها " .[407]

يتكرر أوصاف الكاتب عن عاشقته ويكون الحب بينهما غير قادر للوصف، وهو يؤمن أن عاشقته خلقت لأجله ويشارك معنا عن اللقاء الأول بينهما، ولم يستطع الكاتب أن يصدق هذا اللقاء ويقول: " رأيتها ذات مساء ورأتني، تبادلنا النظرات إلينا كما نتبادل التحية تماما ، ظلان يتحركان على حائط الجيران المقابل، أول مرة رأيت ظلها على الحائط لم أصدق عيني، أخذنا نقترب من بعضنا ظل شفاهنا حتى تلامست، ثم مددت يدي ألمس كتفها، استدارت فجأة، يدي تعلقت في الهواء، وضعت يدها عليها، ثم سحبتها، لوحت بيدها مودعة، أطفأت النور، اختفت " .[408]

يطلق الكاتب ذكريات الحب فقط ولكن يشارك معنا التفريق بين الكاتب وعاشقته وينكسر حبه ويصير الحب في الفشل ويتذكر الكاتب عن هذا في روايته " وجاء اليوم الذي كشف لي أنني كنت منفيا داخل خطوبتي شبه المعلنة، وأن الفاتحة التي قرأناها لم تحم حبنا من الانهيار، كانت شقيقتها سبقتها إلى

[407] المصدر نفسه، ص 210- 211.

[408] المصدر نفسه، ص 213 – 214.

الخطوبة من ضابط يقيم في القاهرة صار صديقا لي بحكم علاقتنا بالشقيقتين، وكانت ليلة زفافه على شقيقتها في إبريل 1970، المناسبة التي أخرجتني من قلبها وإلى الأبد " .[409]

يتذكر الكاتب عن شقيقته " أديبة " التي كانت حب طفولته وهي زميلة اللعب، المنفى قد تفرق بينهما، ويقول الكاتب عنها: " أنا لها وهي لي وشقيقان نكون، هي حب طفولتي بريئة تكون، طفولتي حفظت الأسفار، شبابي توزعه التاريخ في المسافات، ابتلعته دروب المنافي، ومدن الفراق، أضاعت أديبة بين مسارات الشتات ورغبات القوم، أديبة ضميرا صارت، لم يزل يركض في شوراع المعسكر، يبحث عن طفلة ضاعت صبية بين رمال غربتي وعوسج آل مدهون " .[410]

المبحث الرابع: الوصية من المنفى

الوصية هي " ما يتركه الإنسان ليعمل له بعد موته، والجمع وصايا، وهو موصى، والمشرف على تنفيذ الوصية يسمى بالوصي "[411]. الوصية من المنفى هي رسالة أو توجيهات يتركها الشخص عند مغادرته لوطنه في حالة انتقاله إلى مكان جديد أو في حالات النزوح، إنها تعبر عن توجيهاته أو رغباته بخصوص ما يجب فعله في حالة وفاته أو بعد وفاته أو تعامل مع ممتلكاته أو أمور أخرى تتعلق بحياته وممتلكاته.

كانت شخصية إيفانا أم جولي التي هي بطلة في رواية " مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة "، وهي هاجرت مع الطبيب الريطاني من الفلسطين إلى لندن بسبب عدم قبولية علاقتهما من عائلتها، وانقطعت علاقتها مع العائلة حتى آخر لحظات حياتها، قد توفي والدها في المخيم ولم يستعد لرد رسالتها التي أرسلت لقبول ابنتها جولي، وبعد وفاتها تحس الغربة والحنين إلى الوطن والحب أن تموت في وطنها والعودة إلى وطنها، ولكن لن تستطع لتنفيذ هذه الأحلام في حياتها ولذا تحب أخيرا أ، يدفن نصف رماد جثتها التي احرقت في عكا التي

[409] المصدر نفسه، ص 219.

[410] المصدر نفسه، ص 299.

[411] القاموس الإلكتروني https://www. almaany. Com2/8/2022

هي مكان ولادتها، وهذه الرغبة توصي إلى ابنتها جولي وزج ابنتها وليد من المنفى " وتابعت إيفانا بهدوئها الذي يشبه إيقاع آخر العمر قائلة " قد لا أعيش طويلا، وأريد لجثتي أن تحرق بعد وفاتي وأن تجري مراسم تأبيني على وقع أغنية جون لينون، بعد الانتهاء من مراسم الحرق، تنثرون حفنة من رماد جسدي فوق نهر التايمز، يأخذه من هناك غبارا ويوزعه على مياه المحيط أنت حبيبتي جولي وأنت وليد ، تتوليان ذلك، تابعت إيفانا حديثها، فأوصى بوضع حفنة أخرى من رماد جسدها في قارورة زجاجية بطول ثلاثين سنتمترا، يكون لها لون البحر صيفا، وشكل قوامها هي في كل الفصول، عنق من شموخ (رفعت رأسها)، صدر من كبرياء (شدت جذعها إلى أعلى، وتأنق أنفها الأرستقراطي المظهر فوق ملامحها)، وخاصرة تحتويها كفا عاشق، وطلبت نقل القارورة إلى بيت والديها في ساحة عبود في عكا القديمة قالت " خذو بعضي وكل روحي إلى عكا يعتذران لها حارة حارة خذوا ما تبقي مني وشيعوني حيث ولدت مثلما ستشيعني لندن حيث أموت، يا أصدقائي وأحبتي، يوما ما، ولا أظن بعيدا، سأموت أريد أن أدفن هنا وأن أدفن هناك " .[412]

يهدف الكاتب بهذه الوصية انتمائه إلى وطنه الذي هاجر منه بسبب النكبة التي وقعت عام 1948م، وإن لم يمكن أن تدفن جثتها في عكا الذي نشأت منها، وتطلب من جولي ووليد أن تدفن في القدس ويقول " إن تعذر الأمر لسبب ما، أكون سعيدة لو أخذتما هذا النصف من بقاياي، إلى القدس القديمة أعرف أن لوليد أصدقاء هناك، وقد تروقكم زيارتهم وترتيب وضع التمثال عندهم، أو عند أي عائلة فلسطينية يمكن أن تقبل بذلك " .[413]

[412] المدهون، ربعي، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015 م، ط1، ص 33 – 34.

[413] المصدر نفسه، ص 34.

الوصية تؤدّي الكاتب إلى وصول وطنه وتحقيق أحلامه وهذا يكشف الكاتب " أنا مش بسدء (أصدق) انا في فلسطين، لو ما في وصية ماما وما في سلمان عمره أنا ما بشوف بلاد هاذا شكرا كثيرا ". " أوقف جميل سيارته ال " سوبارو " فضية اللون، خلف جدارمن بقايا سوق الخضار القديم في المجدل عسقلان تناثرنا أربعتنا ، أنا وجولي وجميل ولودا، خارج السيارة في اتجاهات نجهلها رحت أبحث عني .[414]

[414]المصدر نفسه، ص 181.

خاتمة البحث ونتائجه

هذه الأطروحة المعنونة ب"الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون" تتضمن على أربعة أبواب وأربعة عشر فصلا؛ وكل باب ناقش فيه الباحث فكرة رئيسية فيما يختص بالموضوع. أما الباب الأول المسمى ب"الوطن والمنفى: دراسة تحليلية"، وهذا الباب يحتوي على أربعة فصول؛ ناقش في الفصلين الأولين عن مفهوم الوطن لغة واصطلاحا، وحب الوطن والانتماء إليه، وكذا عن حب الوطن في القرآن والسنة والدلائل من الآيات والأحاديث التي تدل على أهميته. وفي الفصلين الأخيرين تناول فيه الباحث نظرية القومية والوطنية، والفرق الأصلي بينهما؛ كما ناقش عن المنفى لغة واصطلاحا، وأقسام المنفى هما المنفى الداخلي والمنفى الخارجي. وينتهي هذا الباب بمناقشة عن المنفى الفلسطيني وأدب المنفى.

والباب الثاني المعنون ب"تطور الرواية الفلسطينية نظرة عامة" متكوّن من ثلاثة فصول. فالفصل الأول بيّن فيه الباحث عن تطور الرواية الفلسطينية وفي الفصل الثاني عن دور ربعي المدهون في تطوير الرواية العربية الفلسطينية، بينما الفصل الأخير حديث عن أشهر الروائيين الفلسطينيين.

وأما الباب الثالث الموسوم ب"ربعي المدهون حياته وأعماله الأدبية" مشتمل على أربعة فصول، ناقش الباحث في الفصل الأول عن سيرة ذاتية للكاتب بشكل موجز. والفصل الثاني سلط فيه الضوء على مؤلفاته وخلاصة أعماله الروائية. ثم بحث في فصل الثالث عن المكان في رواياته وكذا في الفصل الأخير عن الزمان في رواياته. واكتشف الباحث المكان الأصلي والمكان المغلق والمكان المفتوح في رواياته كما استنبط منها أيضا الزمن التاريخي والاسترجاع والاستباق.

وأما الباب الرابع الأخير المعنون ب"الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون" باب محوري، ناقش الباحث فيه عن إنعكاس الوطن والمنفى في روايات ربعي المدهون، فهذا الباب مقسّم إلى خمسة فصول. والفصل الأول عالج فيه الباحث عن سرديات الوطن التي قد وردت في روايات الكاتب مثل الوطن المفقود والوطن المستوطنة وشعور الوطن وتراث الوطن. والفصل الثاني ركّز فيه الباحث على القضايا الوطنية واستخرج

منها القضايا المختلفة مثل قضية المرأة، وقضية الاحتلال وقضية الحرب والمقاومة. وانتهت المناقشة بذكر عن سرديات المنفى في روايات ربعي المدهون و عن شعور المنفى التي قد أشار إليها الكاتب خلال سرديات الروايات.

أهم نتائج هذا البحث

- تتميز روايات ربعي المدهون بكونها نموذجا ناضجا للفن الروائي، حيث تجمع بين عناصر الواقع والخيال وتكشف عن الحب الخالص لوطنه.
- إن شخصيات ربعي المدهون الروائية كلها مستوحات من الواقع الفلسطيني المأزوم، حيث تعبر عن فقدان الوطن وتلاشي الهوية والجنسية وتجربة المنفى.
- التجارب والأحداث التي مر بها ربعي المدهون تأثرت بشكل كبير على رواياته، حيث تجلى تأثيرها بوضوح في سرديات رواياته، ومنها تجربته الشخصية مع النكبة التي وقعت عام 1948م عندما كان في الثالثة من عمره، حيث هاجر من وطنه وأصبح من المنفيين.
- موضوع "الوطن والمنفى" هو مصدر الإلهام للأدباء الفلسطينيين، حيث يسعون إلى تصوير حياة شعبهم وكشف الحقائق التي طمستها التغييرات التاريخية والاستعمار، ويسعى الكاتب لإلقاء الضوء على التاريخ الحقيقي لوطنه ومعاناة شعبه من خلال سردياته المؤثرة.
- يتجلى دور ربعي المدهون بشكل بارز في تطوير الرواية الفلسطينية، حيث أسهم بشكل كبير في تناول قضية فلسطين وسرديات النكبة، بالإضافة إلى تميزه في تقديم الأحداث والمقارنات التاريخية، وتجسيد الرواية التجريبية.
- استطاع الكاتب أن يتناول القضايا الوطنية الهامة بشكل فني صادق، حيث بذل جهدا كبيرا في توثيق الأحداث والتاريخ والوقائع المتعلقة بالقضية الوطنية، وقد جمع وشرح كل هذه القضايا

ببراعة خلال سرديات رواياته، ومن بين تلك القضايا الوطنية التي تناولها الكاتب هي قضية الحرب، والاحتلال، وقضية المرأة والدفاع.

- يظهر تضارب مشاعر الوطنية للكاتب بوضوح في رواياته، حيث يغمر الكاتب حزنا عميقا لوضع وطنه المؤلم، ويحلم استعادته من قبضة الاحتلال اليهودي ، ويصف وطنه بحالة من الضياع والفقر والدمار، مع فقدان للتراث والهوية والمدن، وفي الوقت نفسه، ينبثق شعور آخر يدفعه نحو رغبة في التعايش مع اليهود الذين دمروا وطنه.
- انعكس تأثير التجارب الشخصية في المنفى على سردية الكاتب في صدد تعبيره عن حبه العميق لوطنه وانتمائه القوي إليه، إذ يعبر الكاتب، وهو في المنفى، عن انتمائه لوطنه بمشاعر متعددة، ومنها الحنين إلى الوطن والوصية من المنفى وذكريات طفولته ورغبة العودة إلى الوطن.
- يستعرض الكاتب في رواياته مجموعة متنوعة من أنواع المنفى، بما في ذلك المنفى الذاتي والاجتماعي والسياسي والثقافي والمكاني.

الاقتراحات والتوصيات

وبعد هذه الدراسة يدرك الباحث أن لهذا الموضوع أبعاد متنوعة، كما أن روايات ربعي المدهون تحتاج إلى دراسات بأوجهها المختلفة لمن لديه عناية واهتمام بروايات ربعي المدهون. وهنا يود الباحث أن يضع بعض العناوين البحثية التي تساعد الباحثين على إجراء البحث في هذا الصدد ومنها:

- تقنيات السرد في روايات ربعي المدهون.
- الهوية في روايات ربعي المدهون.
- العودة والبقاء في روايات ربعي المدهون.

المصادروالمراجع

المصادر

1. القرآن
2. المدهون، ربعي، طعم الفراق... ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة (سيرة روائية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (طبعتان) نشرت 2001 م - 2010م
3. المدهون، ربعي، سوبر نميمة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، الطبعة الأولى، 2018.
4. المدهون، ربعي، السيدة من تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الطبعة الثالثة، 2010.
5. المدهون، ربعي: مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الألى، 2015.

والمراجع

1. ابن منظور: لسان العرب، تح عامر أحمد الحيدري، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، ، مجلد 7، الطبعة الأولى ، 2005 م.
2. ابن عابدين، محمد أمين، حاشية ابن عابدين (رد المختار على شرح تنوير الأبصار) دار الكتب العلمية ببيروت.
3. أبو مطر، أحمد " الرواية في الأدب الفلسطيني "، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990م.
4. زكي بدوي، أحمد، معجم المصطلحات السياسية والدولية، دار الكتاب المصري، القاهرة /دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1989.

5. أحمد زنيير : جماليات المكان في قصص إلياس الخوري ، دراسة نقدية ، التنوخي للطباعة، والنشر ، الرباط ، المغرب الطبعة الأولى ، 2009.

6. إدوار سعيد صور المثقف: محاضرات ريث سنة 1993م، نقله إلى العربية: غسان غصن، راجعته منى أنيس، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى ، 1997م.

7. إدوارد سعيد، من مقدمة رأيت رام الله لمريد البرغوثي، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الرابعة، 2011م،

8. ادوين موير، ترجمة إبراهيم الصيرفي، بناء الرواية، الدار المصرية للتأليف والنشر القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1965 م.

9. الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم الحديث 2480،.

10. الإمام محمد بن عيسى، صحيح سنن الترمذي، باب في فضل مكة، رقم الحديث (3925)، مكتبة المعارف، مملكة السعودية.

11. إيمان بقاعي: القيم الروحية والإنسانية في شعر عبد العزيز محيي الدين خوجة، قناديل للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 2004م.

12. أيوب محمد، الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة وقطاع غزة، اتحاد الكتاب الفلسطيني، 1997م.

13. بحراوي حسن ، بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية) ، بيروت ، المركز الثقافي العربي 1990م.

14. جمال زاهر: شعر الوأواء الدمشقي ، دراسة فنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، الطبعة الطبعة الثانية، 2007 م..

15. جميل صليبا:المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، المحلد الثاني، 1994م،

16. جيرالد برنس : قاموس السـرديات ، ترجمة : السـيد إمام ، القاهرة ، ميريت للنشـر والمعلومات ، 2003.

17. جينيت ، جيران : خطاب الحكاية - بحث في المنهج ،ترجمة : محمد معتصم ، عبد الجليل الأزدي ، عمرحلى ،الطبعة الثانية ، 1997.

18. جينيت جيرار ، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير دار الخطابي للطباعة والنشر 1989م.

19. حبيلة شريف : بنية الخطاب الروائي ، الأردن ، إربد ، عالم الكتب الحديث ،2010..

20. حسن القصراوي ، الزمن في الرواية العربية ،المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى،2008م.

21. حمادة حسـن محمد، الاغتراب عند إيرك فروم، المؤسـسـة الجامعية للدراسـة والنشـر والتوزيع، بيروت، المجلد الثاني، 1995م.

22. حموي، صبحي: المنجد الوسيط في العربية المعاصرة،المطبعة الكاثوليكية بيروت،2000 م

23. حميد لحميداني : بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1991م.

24. خليل شـكري هياس : القصـيدة السـير الذاتية ، عالم الكتب الحديث للنشـر والتوزيع ، أربد ، الأردن ،الطبعة الأولى،2010.

25. د- عبد الحميد عبد الله الهرامة: القصـيدة الأندلسـية خلال القرن هـ 08، الظواهر القضـايا والأبنية، دار الكتاب، طرابلس ، الطبعة الأولى، 1991م.

26. دراج فيصـل قضـايا فلسـطينية –سـياسـية، السـياسـة والثقافة والهوية، المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية:شركة مؤسسة الأيام للطباعة ،رام الله , 2008م.

27. د-عبد العاطي كيوان: القيم الإنسانية في أدب الأطفال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،الطبعة الأولى،1424هـ -2003م.

28. الدقاق، عمر: الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، مكتبة الشرق، لبنان. 1963م.

29. الدكتور عبد الرحمن قصاص، مفهوم الوطنية في ضوء الكتاب المبين والسنة النبوية، المكتبة الشاملة الذهبية، دار الكتب لبنان،2010م.

30. ديوان أحمد شوقي، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، 1998 م.

31. زيتوني ، لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية ، بيروت - لينان – دار النهار للنشر ،2002.

32. زيد عبد الكريم الزيد، حب الوطن من منظور شرعي، طبع على نفقة المؤلف،المطبعة الأولى،1996م.

33. سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، دار الفكر العربي، مصر 1987.

34. سلام محمد زغلول:دراسات في القصة العربية الحديثة:أصولها، واتجاهاتها، أعلامها، دار المعارف، مصر، 1973م.

35. الشريف الجرجاني: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993م،.

36. الشريف حبيلة : بنية الخطاب الروائي ، نشر عالم الكتب الحديث ، الطبعة الأولى، المجلد الأول 2010.

37. صادق الاسود ،علم الاجتماع السياسي اسسه وابعاده، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل العراق، 1990م.

38. صبحي حموي: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (و. ط. ن) ، ،الطبعة الأولى 2002م.

39. صبيحة عودة زعرب،جماليات السرد في الخطاب الروائي،دار مجدلاوي للنشر و التوزيع, 2006 م.

40. عبد الجبار بن أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، دار الكتب العلمية ببيروت.2011م.

41. عبد الحميد محادين : التقنيات السردية في رواية عبد الرحمن منيف ، الطبعة الأولى، دار العربية للكتاب ، 2005 م.

42. عبد الكريم سلمان أبو خشان، ابن عوليس بين الاغتراب والمنفى الثقافي، الشعراء، المركز الثقافي الفلسطيني، عدد 5-4، رام الله، فلسطين، 1999م.

43. عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكلوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة، الجزء الأول 2003م.

44. عبد الله ابراهيم: الرواية العراقية الجديدة، المنفى، الهوية و اليوتوبيا، كتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتي،الطبعة الأولى 2009م.

45. عبد المنعم زكرياء القاضي : بنية السردية في الرواية : عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية : بيروت ، الطبعة الأولى، 2009 م.

46. عبيد داود المراغي، تأثير الاحتلال الإسرائيلي على هوية الوطنية الفلسطينية، جامعة شرق الأوساط للدراسة العليا، 2013 م.

47. عبيد داود المراغي، تأثير الاحتلال الإسرائيلي على هوية الوطنية الفلسطينية، جامعة شرق الأوساط للدراسة العليا، 2013م.

48. عدنان خالد عبد الله ، النقد التطبيقي التحليلي ، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986،.

49. غريد الشيخ : الأدب الهادف ، ، قناديل التأليف والترجمة والنشر ،ط1، بغداد ، 2004.

50. غسّان كنفاني. " أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966"، دار منشورات رومال، 2015م.

51. فريدة ابراهيم بن موسى : زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية دراسة نقدية ، دار، صداء للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى، 2012م.

52. فهد حسين : المكان في الرواية البحرينية ،فراديس للنشر والتوزيع ،ط،2003 م.

53. القصـــراوي، مهـا حســـن : الزمن في الروايـة العربيـة، المؤســســـة العربيـة للـدراســات والنشر،لبنان،2004م.

54. مارتن والاس : نظريات السرد الحديثة ، ترجمة : حياة جاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998م.

55. محمد إبراهيم: تجليات المكان في السرد الحكائي، فضاءات للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى،2009.

56. محمد السيد السلام، النسيج الفني للمأساة في الشعر الفلسطيني المعاصر قصيدة " رسالة من المنفى "للشاعر محمود درويش أنموذحا، مجلة كلية العربية بذقاقيق، العدد السادس والثلاثون، 2016م.

57. محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبي عبد الله، سير أعلام النبلاء، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة.

58. محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار حمامي، الأردن، الطبعة الثانية 1988م.

59. محمد صابر عبيد، سوسن البياتي : جماليات التشكيل الروائي دراسة في الملحمة الروائية ، الطبعة الأولى ، دار الحوار ، اللاذقية ، سوريا ، 2008.

60. محمد عويد الطربولي : المكان في الشعر الأندلسي ، ط1 ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2012.

61. محمد وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002 م.

62. مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998 م.

63. مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي بيروت،الطبعة الرابعة ، 2011م.

64. مصطفى التواتي : دراسة في روايات نجيب محفوظ ، ط3، دار الفارابي ، بيروت ، 2008.

65. معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، الجزء الثاني المجلد ،1،2001م.

66. النعيمي ، أحمد حمد : إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، لبنان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ، دار فارس ، الطبعة الأولى، 2004.

67. هيام شعبان : السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ،الطبعة الأولى، 2004.

68. هيثم الحاج علي ، الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2008م.

69. وادي فاروق، " ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية "،: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، الأسوار للطباعة والنشر، 1985 م.

70. وائل علي فالح الصمادي، صورة المرأة في روايات سحر خليفة، عمان، 2010م.

71. وردة دغفل، التجريب الروائي في رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة لربعي المدهون، جامعة محمد بوضياف، الطبعة الأولى ، 2019م.

72. ياغي، عبد الرحمن، " في الأدب الفلسطيني الحديث قبل النكبة وبعدها "، شركة كاظمة، الكويت، الطبعة الأولى، 1983م،

73. يسين النصير : إشكالية المكان في النص الأدبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1986،

74. يوسف رزقة، المنفى وتجلياته في الشعر الفلسطيني، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، 2003م،

المجلات والدوريات

1. أ م دي صلاح محمد سالم، الفرق بين الوطن الإقامة والأصلي، مجلة علوم الإنسانية، 2008م.

2. إبراهيم الحجري، الرواية المجهرية والهويات العربية المتصدعة، مجلة الذوات، العدد 52، 201 م.

3. إدوارد سعيد، تأملات في المنفى، الكرمل، معهد دراسات الشرق الأوسط، مجلد 6، عدد 12، مجموعة 1، حيفا، فلسطين، 1984 م.
4. عبد القادر شريف موسى، مصطلح الاغتراب في الأدب والعلم النفسية والاجتماعية: تحديد المفاهيم والأنماط، مجلة دراسات أدبية،كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان،المجلد 6،العدد3.
5. عز الدين المناصرة، إدوارد سعيد والنقد الثقافي المقارن و قراءة طباقيه، مجلة فصول، العدد 64 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2004 م.
6. فخري صالح، أدب المنفى، مجلة الكلمة الإلكترونية، العدد 10، أكتوبر لندن 2007 م.
7. نورة القحطاني، تجليات الاغتراب في قصص عبد الله باخشوين، مجلة الثقافية،الجزائر،العدد 281.

Websites

1. Http: //thawra. Alwehdagoosy.
2. Http: //stories – blog.com.
3. http://yafanews net.
4. http:www. alhayat. com.
5. https://aawsat. com
6. https://alrai. com
7. https://arab-ency. Com.
8. https://arabprf. Com.
9. https://encyclopedia. ushmm. org

10. https://khutabaa. Com

11. https://mawdoo3. Com

12. https://pulpit. alwatanvoice. Com

13. hthttps://www. ahewar. Org

14. https://www. al-albany. Com

15. https://www. alaraby. Com

16. https://www. aljazeera. Net

17. Https://www. almaany. Com

18. https://www. alquds. co. uk

19. https://www. arageek. Com

20. https://www. diwanalarab. Com

21. https://www. ejaba. Com

22. https://www. ida2at. Com

23. https://www. islamweb. Org

24. https://www. marefa. Org

25. https://www. mominoun. Com

26. https://www. nizwa. com

27. https://www. sasapost. Com

28. https://www. Shorouknews. Com

29. https://www. ssrcaw. org.

30. https:/www. tunisia-cafe. Com

HOMELAND AND EXILE IN THE NOVELS OF RABAI - AL - MADHOUN

Thesis submitted to the University of Calicut

In Partial Fulfilment for the Requirements for the Award of the

Degree of the Doctor of Philosophy

In Arabic Language and Literature

(REVISED COPY)

By

RASHEED. V. V

Under the Supervision of

Dr. ABBAS K. P.

Assistant Professor& Research Guide

Post Graduate & Research Department of Arabic

Farook College (Autonomous)

Kozhikode

University of Calicut

Kerala, India

2023